مشرقية
معالم
فصلية فكرية ثقافية تعنى بشؤون المشرق
العدد 32 - آب - 2023

الفهرس

فكر

الإبادة الأرمنية 1915 - 1945!! 3
د. إيلي جرجي الياس

محاربة التطبيع 31
سعاده عبد الرحيم

مؤتمر فكر أنطون سعاده بين الماضي والحاضر 41
د. ليليان قربان عقل

علمانية سلطان الأطرش، أنطون سعاده، وميشيل عفلق وطريق تحقيق العلمانية في بلادنا 47
د. ريم منصور الأطرش

لنجرؤ على اختراع المستقبل 61
الأب الياس زحلاوي

صراع «الدهاء» بين معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص 69
سرور جمعة داود الزيدي

أديان

أهمية الاعجاز التأثيري للقرآن الكريم في الدعوة إلى الله 91
سعد عوّاد بردي الحلبوسي
أبو بكر عزيز سعد آل غازي الرفاعي العاني

خفايا وأبعاد الهجوم الاستشراقي على القرآن الكريم 119
شيماء عليوي عبيد السعيدي

دفاعاً عن رسول الرحمة محمد ﷺ في غزوة بني قريظة الأسباب والأحداث ورأي دفاعي 139
بلسم بهجت بوشقرا

أدب

قراءة في كتاب خريستو المر الفلسطينيون والتحرر- موقف مسيحي 151
د. شوقي عطيه

تحولات مشرقية

فصلية، فكرية، ثقافية، تعنى بشؤون المشرق والمنطقة

مجلة محكمة

المدير العام المسؤول: سركيس أبو زيد
abouzeid@gmail.com

مدير العلاقات العامة: أ. زاهر العريضي

هيئة التحرير

د. فاتن المر	أ. نجيب نصير
د. عاطف عطية	أ. الياس فرحات
د. حسن حماده	د. زهير فياض
أ. نصري الصايغ	د. محمود حيدر
د. علوان أمين الدين	د. لؤي زيتوني
أ. ستيفاني عويني	أ. سليمان بختي

سكرتير التحرير التنفيذي: هنادي شموط
info@tahawolat.net
هاتف: 841086 (71 - 00961)
صندوق بريد: 7179 - 113 بيروت – لبنان.
لبنان – بيروت – شارع عبد المنعم- بناية بلعة وقمند ط 4

الإخراج الفني: ZAID MAHDI

تصدر في طبعتين من فلسطين ولبنان
مدير عام طبعة فلسطين: سعاده مصطفى أرشيد
هاتف: 0599305248
صندوق بريد: 41 جنين – فلسطين

توزيع: شركة الأوائل لتوزيع الصحف والمطبوعات
بيروت – لبنان
هاتف: 666314 - 666668 - 1 - 00961
فاكس: 653260 - 1 - 00961

الاشتراك السنوي – لبنان
للأفراد: 50 دولار أمريكي أو ما يعادله
للمؤسسات: 100 دولار أميركي أو ما يعادله

الاشتراك السنوي – خارج لبنان
للأفراد: 100 دولار أمريكي أو ما يعادله
للمؤسسات: 200 دولار أمريكي أو ما يعادله

سعر المجلة 10 $ أو ما يُعادلها.

المواد المنشورة تعبر عن رأي كاتبها

الإبادة الأرمنية 1915 – 1945!!

د. إيلي جرجي الياس – كاتب، وباحث استراتيجيّ، وأستاذ جامعيّ(*)

مقدّمة

تاريخ يُكتب من جديد!! عنوان ساطع ولكن يقود إلى حقيقة نوعيّة... فعلى ضوء الاستفادة من المصادر والمراجع والمؤلّفات، والعـــودة إلى الحقائق المثبتة والمعروفة من قبل، لا بدّ من مزيـــد من التحقيق ومتابعة التوثيـــق على ضوء المعلومات والمعطيـــات والوثائق الجديدة والفرضيّات المكتسبة والإشكاليّة المتجدّدة... لا ينسف جهد الحاضر تعب الماضي بطبيعة الحال، بل يكمله ويتكامل معه، بحثاً عن إقرار الحقيقة وتثبيت شأن الحقّ...

فكيف إذا تعلّقت مسألة كتابة التاريخ من جديد بقضيّة جوهريّة في التاريخ العالميّ الحديث والمُعاصر هي الإبادة الأرمنيّة. وقد اكتسبت هذه العبارة تألّقها الجيوستراتيجيّ، من كون الشـــعب الأرمنيّ حافظ على قدسيّة قضيّته، وتابع نضاله الشـــاق والطويل والممتدّ، رغم الإبادة الرهيبة وتداعياتها القاســـية ونتائجها المرعبة، وعنـــاد المرتكبين أصولاً وورثة على الاعتراف بفداحـــة الإبادة الجبّارة، وقد امتدّ ذلك على مـــدى القرن العشرين وصولاً إلى الألفيّة الثالثة...

(1) دكتور في التاريخ والديموغرافيا، ماجســـتير في المعلوماتية، ماجســـتير في الاحصاء، أستاذ محاضر في الجامعة اللبنانية – كلية الآداب – الفـــرع الثاني، وفي الجامعة اللبنانية – معهد العلوم الاجتماعية – الفرع الثـــاني، وفي الجامعة اللبنانية – معهد العلوم الاجتماعية – الفرع الرابع، وفي الجامعة اللبنانية – كلية إدارة الأعمال – الفرع الثاني، وفي جامعات خاصّة، رئيس رابطة خريجي الجامعة اللبنانية – كلية العلوم – الفرع الثاني، عضو اتّحاد الكتّاب اللبنانيّين، وعضو الرابطة الثقافيّة مار مارون الدورة، وجمعيّة تجاوز، وزميل في الجمعيّة اللبنانيّة للدراسات العثمانيّة، باحث لبناني في العلاقات الدولية والدبلوماسية وقضايا التسلّح.

يوم 24 نيسان من كلّ عام ليس ذكرى للمقاومة والبطولة فحسب، بل فرصة لقراءة تاريخيّة مركّزة ومزيد من البحث العلميّ الجادّ عن الحقيقة كاملة!! وفي خلاصة القول، أقدم العثمانيّون يوم 24 نيسان 1915، على اعتقال كبار زعماء الأرمن في اسطنبول، بتهمة التواصل والتخابر مع الروس والبريطانيّين والفرنسيّين، كقدّمة لما عُرف لاحقاً باسم مذابح الأرمن، ومذابح سيفو بحق السريان والآشوريين والكلدان!!

بعد ثلاثين عاماً وأسبوع من هذه الذكرى المؤلمة والقاسية والحاضرة أبداً في الضمير الإنسانيّ الحيّ، انتهت الحرب العالمية الثانية، أقسى الحروب على الإطلاق، وما زالت تداعياتها مستمرّة حتّى يومنا الحاضر، على ضوء عدم إمكانيّة حدوث حرب عالمية ثالثة، لأنّها ستكون نوويّة ومدمّرة بالكامل... فإذا تضمّنت الحرب العالمية الأولى الإبادة الأرمنيّة والنكبات السريانيّة والآشوريّة والكلدانيّة المُشتركة، فإنّ الحرب العالمية الثانية أفرزت أقسى ما يُمكن أن يكون أي الإبادة السياسيّة... وقد عطّلت الإبادة السياسيّة فرص الحلّ السريعة المُفترضة كردّ على الإبادة والنكبات المدنيّة... وانطلاقاً من تلك المعطيات النوعيّة، يجب البحث والتوثيق للإحاطة بكافة مفاصل هذا التوجّه البحثيّ، في هذه الدراسة وفي دراسات بحثيّة لاحقة!!

ولهذه الدراسة البحثيّة العميقة إشكاليّتها الرائدة المتمثّلة بمجموعة من الأسئلة التاريخيّة النوعيّة: ما الجديد البحثيّ في صلب الإبادة الأرمنيّة الرهيبة وأحداثها المباشرة؟ وما مسار نتائج تلك الإبادة المترابطة خلال الحرب العالمية الأولى وما بين الحربين العالميّتين؟ وما مدى العلاقة بين مواجهة تداعيات الإبادة والحرب العالمية الثانية؟

بين الإبادة الأرمنيّة ومخطّطات جمال باشا السفّاح

الحروب الواسعة كارثيّة بالفعل على كافة المستويات، وعلى وجه الخصوص الحربان العالميّتان الأولى والثانية!! ولقد برزت تداعيات الإبادة الأرمنيّة الديموغرافيّة والسكّانيّة في صلب الحرب العالمية الأولى: «سترتفع الخسائر السكانيّة الناتجة عن الحرب العالمية

الأولى، إلى الضعف تقريباً، بعد مرور أكثر من مئة سنة على نهاية الحرب، من زهاء 10 ملايين من القتلى بعد الحرب مباشرةً، إلى 20 مليوناً ويزيد حسب آخر الإحصاءات!! وقد حصدت أرواح ما بين 5 و10 ملايين مدني، وهو رقم يشمل ما بين 1,2 مليون و1,5 مليون أرمني قتلوا في السلطنة العثمانية.»[1]، إذاً نحن أمام اتجّاهين رئيسيّين ومهمّين: أوّلًا، الحاجة إلى تحقيق وتوثيق الأرقام الديموغرافيّة حول الإبادة الأرمنيّة الطويلة، لأنّ الأرقام الفعليّة قد تزيد عن 1,5 مليون ضحيّة، وثانياً ضرورة إدراك أنّ الإبادة تلك – مع النكبات التي مورست بحقّ الشعوب اللبنانيّة والسوريّة والعربيّة، والشعوب السريانيّة والأشوريّة والكلدانيّة والكرديّة وسواها – تقع ضمن خطّة عثمانيّة مستقبليّة خطيرة الأبعاد وسرّيّة الإدارة ودقيقة التنفيذ!!

إلّا أنّ الحقائق البحثيّة لا بدّ أن تظهر تباعاً، فلم يعد جائزاً دراسة الحرب العالمية الأولى في مداها الشرق الأوسطيّ، دون العودة إلى مخطّطات الثلاثيّ العثمانيّ الحاكم: جمال باشا وطلعت باشا وأنور باشا، وبالأخصّ جمال باشا السفّاح الذي عمل بجهد على مخطّطات استراتيجيّة توسّعيّة شديدة الخطورة ورهيبة النتائج!! «جمال باشا، الكرديّ الأصل، الخبير في الشؤون الأمنية والاستخبارية، بالإضافة الى خبراته في المجال العسكريّ، والضليع في المذابح بحقّ الأرمن التي حدثت قبل الحرب العالمية الأولى، العنيد والعنيف والمتسلّط، الطاغية والمتغطرس والمعتدّ بنفسه، حاول مفاوضة الغرب لإقامة دولة مستقلّة عن السلطنة العثمانية: المملكة الجمالية المُفترضة، بقيادته المباشرة والمُطلقة، ولمّا فشل في طموحه المُرفق بمزيج من الاستبداد الرهيب وجنون العظمة، ازداد إجراماً وترهيباً!! فكانت المجاعة الكبرى، وضاعفتها حالة الحصار المفروضة على الموانئ من قبل الفرنسيين والإنكليز، وانتشار الجراد دون أيّة محاولة لمنعهم، وتفشّي الكثير من الأمراض القاتلة والمُعدية، والتعذيب والملاحقة والاضطهاد واتّباع القتل والاغتصاب للترهيب، وصولاً إلى المحاكم

(1) د. إيلي جرجي الياس، التداعيات الديموغرافية للحروب العالمية والباردة والأوبئة!!، مقالة علمية تُنشر قريباً في مجلة الأكاديمة للبحوث في العلوم الإجتماعية الجزائرية.

العرفية، وإعدام الأبطـــال المقاومين الصامدين!! لقد ذهب جمال باشـــا في تطبيقه لإرادة القيادة العثمانية العُليا، إلى أبعد حدود مُمكنة، دون أن يردعه ضمير!! ولقد جعل العثمانيين في مأزق أكيد، تجاه نظرة أهل المنطقة إليهم!! وفي المقابل، بات حضوره موضع انتقادٍ لاذع ودائم، في الذاكرة الشرق أوسطية!!»[1]، لذلك فلكلّ حدث مع أسبابه وتفاصيله ونتائجه حضوره الأكيد في اســـتراتيجيّة جمال باشا العنيدة للســـيطرة على المنطقة، مستفيداً من كلّ الظروف الدوليّـــة المُتاحة خلال الحرب!! «مع العلم أن مديـــر البنك العثماني في بيروت، الســـويسري روبير نافيل، هو واسطة الاتصال بين الانجليز وجمال باشا. وفي تقرير مرسل من وزارة الدفاع (القاهرة 28 تموز 1915)، ثمة إشـــارة إلى توتر بين جمال باشا والسلطات العثمانية، إلا أن تقريراً آخر من دوفرانس (30 تموز 1915) يشير إلى أن توتّر العلاقة هو مع القيادة العسكرية الألمانية في الآستانة، بينما علاقاته مع أنور وطلعت هي جيّدة. وأن القيادة العسكرية في اسطنبول استدعت مدير البنك العثماني روبير نافيل إلى العاصمة.»[2]، لم يوفّر جمال باشا السفّاح أيّ فرصة سانحة ليستفيد منها، في تحقيق طموحاته مهما كانت مأساويّة وتحقيق أهدافه مهما كانت رهيبة!!

ولقد عمد جمال باشـــا إلى ممارسة كافة أنواع الدهاء السياسيّ، لإقناع ركني الثلاثيّ الباقيين أنور باشا وطلعت باشا، بخططه الرهيبة والبعيدة المدى، وسط مفاوضات سرّيّة وغامضة مع الحلفاء العربيّين تقوى حيناً وتضعف أحياناً!! ليس لطموح جمال الســـفّاح من حدود، حتّى ولو اقتضى ذلك مجالاً من الجرائم المنظّمة لا ينتهي... « وانطلاقاً من خطورة مشروع جمال باشـــا السفّاح أي المملكة الجمالية المفترضة في المناطق اللبنانية والسورية، تنبثق فرص بحثية مســـتقبلية، بتصرّف الباحثين والمتابعين، عن مدى اســـتفادة جمال باشا وفريق عمله

(1) د. إيـــلي جرجي الياس، صمود المناطـــق اللبنانية بمواجهة مشروع جمال باشـــا الجريء والخطير!!، تحولات مشرقية، فصلية فكرية ثقافية تعنى بشـــؤون المشرق، العددين 22/ 23، كانون الثاني 2020، ص 145، 146.

(2) د. عصام كمال خليفة، لبنان 1914 – 1918، من خلال أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية، طبعة أولى، بيروت، 2005، ص 49.

من الإحصاءات الضخمة الواردة في السـالنامات العثمانيـة في كافة المجالات... كما عن مدى استعانتهم بالمتغيرات الديموغرافية والآليات السكانية خلال الحرب العالمية الأولى، فهجرة قسم وازن من أهالي المناطق اللبنانية والسورية قبل الحرب، ووفاة قسم وازن منهم خلالها مع انهيار ديموغرافيّ شـامل، قد تعزّزان فرصة جمال باشـا لنقل عائلات موالية له من آسـيا الصغرى وتوطينها في مملكته المفترضة، وتحديداً في معاقل مستقلّة لتسهيل سكن هذه العائلات ضمن بيئتها الخاصّة، فيصار إلى طلب مساندتها عند الضرورات العسكريّة لقمع ثورات مستقبليّة محتملة: قرية بجرّين في منطقة جبيل، المهجورة منذ بدايات الحرب العالمية الأولى، مثالاً... وثمّة فرصة بحثية أيضاً، عن دراسـة احتمال جدّيّ لسعي الثلاثية العثمانية الحاكمة خلال الحرب العالمية الأولى: جمال باشـا، وطلعت باشـا، وأنور باشـا، لاقتسـام السـلطنة العثمانية إلى ممالك ثلاث، على غرار المملكة الجمالية المفترضة... وسط مفاوضات معقّدة مع الدول الأوروبية، قبل وخلال الحرب، ومفاوضات أيضاً مع المنظّمة الصهيونية العالمية، بعدما أطاح رفض السلطان عبد الحميد الثاني قبل ذلك بسنوات بإقامة وطنٍ يهوديّ في فلسطين أو بعضها، بنظام حكمه... يبدو، أنّ الثلاثيّ الجديد: جمال باشا، وطلعت باشا، وأنور باشا، بات مستعدّاً للموافقة على توثيق حلم اليهود بوطن لهم أيضاً، ولو على حساب الآمال والطموحات العربية... لم يكن مسار المعارك الحربية على مستوى إرادة الثلاثيّ، ولم تكن مفاوضاتهم مع الأوروبيين موفّقة، وجاء وعد بلفور ليصبح اليهود في صفّ بريطانيا، وأشـعلت الثورة العربية الساحات، بوجه العثمانيين... وحلّت اتّفاقية سـايكس – بيكو بديلاً عن خارطـة الثلاثيّ المفترضة، لمنطقة الشرق الأوسـط والمنطقة العربية... وانتهت الحرب العالمية الأولى، وكأنّ الظـروف عادت إلى نقطة الصفر، وكأنّ قطار التغيير قد انطلق من جديد، ولكن بطيئاً جدّاً هذه المرّة...»[1].

(1) د. إيلي جرجي الياس، المناطق اللبنانية والسورية في خضمّ تغييرات ديموغرافية وسكانية واقتصادية وتربوية 1860 – 1920، تحولات مشرقية، فصلية فكرية ثقافية تعنى بشـؤون المشرق، العددين 28، آب 2022، ص 48، 49.

ولقد عمل جمال باشـــا الســـفّاح على التهيئة للخدعة العثمانيّة الكبرى بحقّ الأرمن، عشيّة اندلاع الحرب العالمية الأولى وخلال بداياتها، عـــبر تقريب القيادات الأرمنيّة إلى المركزيّة القياديّـــة العثمانيّة، لإيهام الأرمن بصدق نوايـــا العثمانيّين واعتماد منطـــق الصداقة المتينة بين الشـــعبين... ولقد كان لهذا التحايل الذي مارســـه جمال باشا الســـفّاح دوره المستقبليّ الخطير!! «فترة زمنية قصيرة، كانت كفيلة بنقل المناطق اللبنانية في ولايتيّ بيروت وسورية، وخصوصاً تلك الواقعة في متصرفية جبل لبنان، من حالة هدوء شامل واستقرار نسبيّ، إلى مرحلة صعبة ودقيقة من القلاقل والاضطربات والتحديّات!! وفي 9 كانون الثاني من سنة 1913 اجتمع سفراء الدول الســـتّ في جلسة عند وزير الخارجية نورادنجيان وهو أرمني وعرض عليهم المرشـــحون فاختاروا منهم أوهانس بك وهو أرمني أيضاً، وللحال وضع مرســـوم تعيينه ووقّعه المجتمعون ووافق عليه الباب العالي ومن ثمّ دعي لمقابلة السلطان فمنحه رتبة الوزارة ولقب باشـــا ووجـــه إليه بعض توصيات على قولـــه منها: ألا يرهق اللبنانيين بالرسوم لأنهم فقراء. بعد ذلك سافر إلى لبنان ترافقه زوجته وأخته وأولاده على الباخرة الفرنســـية التي رفعت على إحدى سارياتها العلم العثماني تكريماً له. ومن المُلاحظ في هذا الســـياق، أنّ القيـــادات الأرمنية بالرغم من حضورها الفاعـــل في القيادة العثمانية السياســـية العُليا، عشيّة الحرب العالمية الأولى، لم تستعدّ لمُواجهة الأخطار المُستقبلية.... أو أنّ العثمانيين وضعوا عدّة احتمالات للتعامل مع الأقليات، حسب التحالفات المُنتظرة إذا ما دخلوا الحرب القادمة!!»[1].

كانت الخدعة العثمانيّة – الجماليّة خطيرة للغاية ومدروســـة بعناية، ولو أنّها اســـتفادت من عدّة عوامل وظروف منها:

أوّلاً: الثقـــة الأرمنيّـــة الفائضة بالتواصل مع العثمانيّين، ورقيّ الشـــعب الأرمنيّ على مســـتوى هذا التواصل، وتنامي العلاقات الأرمنيّـــة – العثمانيّة إيجابيّاً!! «لم تصبح

(1) . إيلي جرجي الياس، صمود المناطق اللبنانية بمواجهة مشروع جمال باشا الجريء والخطير!!، تحولات مشرقية، ص 134.

الإمبراطورية العثمانية قط مكاناً مهماً للهجرة الطوعية على الرغم من أن الحكومة قدّمت شروطاً سخية. وعلى الرغم من أن كثيراً من الأوروبيين والأرمن المهتمين استفسروا عن ذلك، فإن عدد المستوطنين الحقيقيين الطوعيين الذين جاؤوا سعياً وراء الفرصة الاقتصادية يبدو قليلاً للغاية.»[1]

ثانياً: العوامل السياسيّة خصوصاً بعد الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني تباعاً، حتّى وصول تركيا الفتاة والثلاثيّ جمال وأنور وطلعت إلى السلطة، حيث شهدت القيادة السياسيّة العُليا تغييراً استراتيجيّاً على أعلى المستويات!! «في النهاية، نحن نعرف أن هناك صراعاً مستمراً في الغالب بين حزب الحرب وحزب السلام داخل البلاط العثماني، وأن أعضاء حزب السلام بصفة خاصة قد يطلبون المعلومات من أحد السفراء الأجانب لإثبات آرائهم.»[2]

إلّا أنّه في هذه المرّة تحديداً، ومع حكم الثلاثيّ العثمانيّ العنيد، تغلّب معسكر الحرب بشكلٍ كامل على حساب معسكر السلام، ليصبح الحليف – الصديق الحصريّ الإمبراطورية الألمانية دون سواها من الدول الأوروبيّة والغربيّة!!.

وثالثاً: الظروف العسكريّة والاقتصاديّة تالياً التي تحكّمت بقرار السلطنة العثمانيّة التي دخلت مجالات الحرب العالمية الأولى دون إنجاز الدراسات والخطط الجيوستراتيجيّة المطلوبة!! فمثلاً، «ارتفع مؤشر كلفة المعيشة، الذي أعدته إدارة الدين العمومية العثمانية لاستانبول، ثمانية عشر ضعفاً من تموز 1914 حتى الربع

(1) ثريا فاروقي، بروس ماك غوان، دونالد كواترت، شوكت باموك، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية، تحرير خليل إينالجيك بالتعاون مع دونالد كواترت، ترجمة د. قاسم عبده قاسم، دار المدار الإسلامي، المجلد الثاني، الطبعة الأولى 2007، ص 536، 537.

(2) ثريا فاروقي، الدولة العثمانية والعالم المحيط بها، ترجمة د. حاتم الطحاوي، مراجعة عمر الأيوبي، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 2008، 44، 45.

الأخير مـــن عام 1918.»[1]، فكانت الإبادة الأرمنيّة الشـــاملة والنكبات السريانيّة والآشـــوريّة والكلدانيّة، بمثابة الفرصة الكبرى لمصـــادرة أموال وممتلكات هؤلاء للاســـتفادة منها لضخّ القدرات الماليّة في الآلة العســـكريّة العثمانيّة المنهكة كنتيجة حتميّة للمعارك المتواصلة...

وقد مارس جمال باشا الســـفّاح جريمته المنظّمة بقساوة بالغة وتخطيط طويل الأمد، وعن ســـابق تصوّر وتصميم... وتراه في مذكّراته وإيضاحاته ومدوّناتـــه، يتخطّى الرأي العامّ العربيّ والعثمانيّ وحتّى الأوروبيّ، ليعرض أفكاره المبسّطة دون توثيق حصراً، مع جملة من الإشاعات الخطيرة والأخبار الملفّقة... فحول ما حدث في أضنه خلال شهر نيسان 1909 (مجزرة أضنة قامت بها الدولة العثمانيّة بمســـاعدة بعض ســـكان أضنة من الأتراك، بحقّ الســـكان الأرمن، وأدّت المجزرة إلى مقتل ما لا يقل عن 30,000أرمنيّ من قاطني أضنة ومـــا حولها، في حين تمّ وصف المجتمع الأرمنيّ في أضنـــة بأنّه الأغنى والأكثر ازدهاراً)، وحول الإبادة الأرمنيّة سنة 1915 أيضاً، يقول جمال باشا السفّاح: «في أوائل 1909 راجت إشاعة بأن الأرمن سيثورون على الأتراك ويبيدونهم على بكرة أبيهم في القريب العاجل... لكن لم أوفق قط في التيقن من صحة تلك الإشاعة... بات كل فريق يخشى أن ينقضّ عليه الفريق الآخر في أي لحظة... ذهبت الحكومة في ســـاعة حيرتها هذه إلى حد إثارة الغوغاء في تلك الجهات لمنع اعتداء الأرمن على الأتراك... فالحوادث التي وقعت في منتصف سنة 1915 في جهتي الزيتون وأورفة لم تكن سوى عصيان أرمني مسلح... لم يكن الذنب ذنبهم بل ذنب السياســـة الروســـية التي حرضتهم بعضهم على بعض... تلك السياسة الروسية التي طالما اشتهت الســـباحة في بحار الدم وتحريض الأرمن على الأتراك... التعزية لتركيا البائســـة على ما ضحّته في الحرب العالمية من الضحايا هي أن القيصرية عدوتنا التاريخية قد

(1) شوكت باموك، التاريخ المالي للدولة العثمانية، تعريب د. عبد اللطيف الحارس، دار المدار الإسلامي، الطبعة الأولى، بيروت، 2005، ص 401.

تلاشـــت من الوجود وانمحى أثرها...»[1]، يا للعجب ويا للغرابة، أن يعمد حاكم مطلق الصلاحيات إلى تبرير إبادة وسلســـلة من الجرائم المتتالية والمتواصلة، بهكذا تعابير لا قيمة استراتيجيّة لها...

لكنّ جمال باشـــا الســـفّاح، الخبير في المجازر، وخصوصاً بحقّ الأرمن، لن يستطيع طويلاً إخفاء مقاصده، ولن يهدأ أو يســـتكين قبل تنفيذ مخطّطاته... ودور الأرمن محوريّ في هذه المخطّطات، لا كما توهّم البعض أنّه جانبيّ وعابر... فالإمعان في التفنّن في تجســـيد الإبادة الأرمنيّة، لا ينفي أنّ لجمال باشا السفّاح أيضاً دور مقصود ومدروس في توجيه نخبة الناجين المختارين رغم ضراوة الإبادة نحو سوريا ولبنان، لتكون الأرض المختارة – أرض الميعاد – بالقوّة لهم، كما للسريان والآشـــوريّين وســـواهم... بحيث أنّ وجود هذه المجموعات وخصوصاً الأرمن، في المملكة الجماليّة المفترضة في المناطق اللبنانية والسورية، يدفعهم إلى الانتقام من السكّان المسلمين في هذه المملكة – لأنّ لا قدرة مباشرة لهم للانتقام من الإدارة الجماليّة حســـب تقديرات جمال باشـــا نفسه – ما يدفع جمال باشـــا في هذه الحالة إلى توثيق مشاريعه الخطيرة في المنطقة، عبر استحضار الجماهير الموالية له من آسيا الصغرى لتوطينها حكماً في مملكته النظريّة... نظريّة اســـتوحاها جمال باشـــا من المخطّطات الصهيونيّة، فهو نفسه كان يجري مفاوضاته الخاصّة مع المنظّمة الصهيونية العالمية... نظريّة عنصريّة خطيرة تناولتها عالمة الاجتماع الســـياسيّ الأميركيّة الرائدة حنة أرندت، في مجال توصيفها للتجربة الصهيونيّة في فلســـطين لاحقاً: « امتلكت حنة أرندت تجربة إنسانية شاملة، تمتدّ من ألمانيا التي أحبّت ورغبت وسعت لإخراجها من نفق التوتاليتارية إلى مجال الديموقراطية والحرية وصيانة حقوق الإنسان بعد الحرب العالمية الثانية، وصولاً إلى الولايات المتحدة الأميركية التي اكتشـــفت فيها قدرات استثنائية على قول وشرح الحقيقة ولو كان ذلك مكلفاً، مروراً بالهولوكوست ورأيها المتقدّم أنّ الإبادة التي حصلت بحقّ الشعب اليهوديّ لا يجب في أيّ

(1) جمال باشـــا : مذكّرات جمال باشا، إعداد محمد السعيدي، المجموعة التاريخية العثمانية العربية 1908 – 1918، دار الفارابي، بيروت، 2013، ص 455، 490، 491.

حال من الأحوال أن تقود إلى انتقام من شـــعوب أخرى لا ذنب لها كالشعب الفلسطينيّ المعذّب: عنصرية قبيحة تسرّبت من النازية إلى الصهيونية!!»[1]، ولن يكون لعنصريّة جمال باشا الســفّاح من حدود، أو من رادع، على ضوء سعيه إلى الاستفادة من كلّ سانحة ممكنة لتحقيــق طموحاته ومخطّطاته!! وانطلاقاً من هذه المعطيات تحديداً، تقدّم جمال باشــا على زميليه أنور باشا وطلعت باشا، في مجال الاستثمار الكامل في أطكر الجريمة المنظّمة والإبادة الشاملة لتحقيق الغايات المنشودة، مهما كان الشرّ حاضراً في تفاصيل هذه الغايات الرهيبة، والتي تبقة تأثيراتها موجودة ولو بعد مرور ســنين طويلة وتعاقب أجيال كثيرة!! وانطلاقاً مــن كلّ تلك المعطيات المترابطة والمخطّطات الخطيرة والأحداث المتواصلة، يُمكن اعتبار الإبادة الأرمنيّة من التداعيات الرئيسيّة الممتدّة انطلاقاً من الحرب العالمية الأولى، تماماً كما يُمكن اعتبار النكبة الفلسطينيّة من التداعيات الرئيسيّة المستقاة من ضراوة الحرب العالمية الثانيــة، ولا تزال تداعيات القضيّتين حاضرة بقوّى حتّــى يومنا الحاضر، بانتظار الحلول العادلة والشاملة والضروريّة...

وتبقى الإشــارة ضروريّة أنّ الإبادة الأرمنيّة اقترنت – كما النكبات السريانيّة والآشوريّة والكلدانيّة – بالثلاثيّ العثمانيّ الحاكم، وخصوصاً بجمال باشــا السفّاح الذي تميّز بفائض الإجرام والخبث والدهاء عن أنور باشــا وطلعت باشــا، وكان مستعدّاً أن يمضي إلى آخر المطاف في أحقاده المتمادية باتّجاه التخلّص من النسبة الكبرى من الضحايا الأبرياء...

تداعيات الإبادة الأرمنيّة ومرحلة ما بين الحربين العالميّتين الأولى والثانية!!

لا بدّ في البداية، من مراقبة مجال عمليّة نيميسيس غرباً، والتي تمّت بين 1920 و1925، على يد مناضلي الاتّحاد الثوريّ الأرمنيّ – الطاشــناق، للتخلّص من القادة العثمانيّين المتورّطين في الإبادة الأرمنيّة الفظيعة:

(1) د. إيلي جرجي الياس، قراءة معمّقة وتحليل شامل لكتابي عالمة الاجتماع الأميركية حنة أرندت: أيخمان في القــدس تفاهة الشر، وأســس التوتاليتارية!!، تحوّلات مشرقية، مجلة فصليــة محكّمة، العدد 25، آب 2021، ص 53، 54.

- اغتيـــال رئيس وزراء آذربيجان فاتالي خان خويســـكي في تبليـــسي يوم 19 حزيران 1920، على يد آرام يرجانيان وميساك كيراكوسيان.
- اغتيال طلعت باشا في برلين يوم 15 آذار 1921، على يد سوغومون تهليريان.
- اغتيال وزير الداخليّة الآذريّ بهدود خان جافنشـــير في القســـطنطينية يوم 18 تموز 1921، على يد ميساك تورلكيان.
- اغتيال الوزير العثمانيّ الأكبر ســـعيد حليم باشا، في روما يوم 5 كانون الأوّل 1921، على يد آرشافير شيراجيان.
- اغتيال بهاء الدين شـــاكير أحد أبرز مؤسّسي جمعية الاتّحاد والترقي، في برلين يوم 17 نيسان 1922، على يد آرام يرجانيان.
- وفي برلين يوم 17 نيســـان 1922 أيضاً اغتيال القائد العثمانيّ البارز جمال عزمي، على يد آرشافير شيراجيان.
- اغتيال جمال باشا السفاح، في تبليسي يوم 25 تمّوز 1922، على يد ستيبان دزاغيجيان وآرتشيس غيفورجبان وبدروس تير بوغوسيان.

وعلى سبيل المثال لا الحصر، بالنسبة لعمليّة اغتيال طلعت باشا، أحد أركان الثلاثيّة العثمانيّة الحاكمة في مرحلة تركيا الفتاة، والمتورّط مع جمال باشا السفّاح في الإبادة الأرمنيّة الخطيرة والرهيبة، ألقي القبض على منفّذ العمليّة الجريئة ســـوغومون تهليريان في برلين، على ضوء أنّه تخلص من طلعت باشا، وسط المدينة وفي وضح النهار وبشجاعة استثنائيّة، أي أنّ الفعل صريح وواضح وضوح الشـــمس الساطعة... ولم يخف سوغومون تهليريان فعله، واصفاً العمليّة بالبطوليّة كونها استهدفت مجرماً من الطراز الأوّل... حُكم سوغومون تهليريان في بادئ الأمر، في ألمانيا، بتهمة القتل المتعمّد، ولكن بعد متابعة المحاكمة، تمت تبرئته بشـــكلٍ كامل وحاســـم، في نهاية المطاف، من قبل المحكمة الألمانيّة نفســـها، ما أثار ضجة كبيرة في

الأوساط الشعبيّة الألمانيّة والأوروبيّة وقتذاك. محامو الدفاع عن سوغومون تهليريان، والذين أوكلت إليهم مهمّة الدفاع عنه وإنقاذه، ركّزوا في جلسات المحاكمة على أحداث الإبادة الجماعية الأرمنية وتفاصيلها وأسبابها ونتائجها وتداعياتها، والظلم العظيم الذي لحق بالشعب الأرمنيّ المقاوم، وخصوصاً التداعيات النفسيّة والاجتماعيّة التي خلّفتها تلك الاحداث على الناجين من هذه الإبادة المرعبة، وفي مقدّمة هؤلاء سوغومون تهليريان الذي أقدم على اغتيال طلعت باشا مستحضراً شرف الأمّة الأرمنيّة وكرامتها... وفي خلال محاكمة تاريخيّة، وبعد ساعة ونصف من المداولات الشاملة، أصدرت المحكمة الألمانيّة قرارها النهائيّ: سوغومون تهليريان بريء بالكامل وكأنّه ولم يرتكب أي جرم... لقد ألهب هذا القرار الرأي العامّ الأرمنيّ والأوروبيّ والعالميّ، وألهم الشعب الألمانيّ المُنتفض على قرارات مؤتمر فرساي بحقّه...

يلاحظ الزمكان حيث ومتى تمّ تنفيذ الاغتيالات في زمن النهضة اليمينيّة المتطرّفة في ألمانيا وإيطاليا على حدّ سواء... غضب إيطاليّ لأنّ إيطاليا ناصرت الحلفاء الغربيّين فكان وضعها بعد الحرب أسوأ من وضع تركيا وريثة الدولة العثمانيّة التي ناصبت هؤلاء الحلفاء العداء خلال الحرب العالمية الأولى... وخيبة أمل ألمانيّة وخصوصاً من الفوهرر أدولف هتلر الصاعد نجمه وقتذاك، من اتّفاقيّة فرساي ودور تركيا المستقبليّ على حدّ سواء... «لم تحمل اتّفاقيّة عالميّة ودوليّة أنهت حرباً ضارية ومدمّرة كالحرب العالمية الأولى، بين طيّاتها وبنودها وتداعياتها، بذور حرب أعنف من الحرب التي أنهتها ستسمّى الحرب العالمية الثانية، مثل معاهدة فرساي!! لقد كانت هذه المعاهدة قاسية لا بل كارثة على ألمانيا قيادةً وشعباً، لأنّها كبّدت الألمان خسائر ماليّة مؤلمة ومترتّبات اقتصاديّة هائلة!! ألمانيا الخصم لم تتأثّر بفرساي وحدها أيضاً، بل المنضويان في التحالف العريض بوجه ألمانيا: إيطاليا واليابان حيث تجاهلت المعاهدة مطالبهما بشكلٍ مثير للدهشة... وهكذا انتعش المحور منذ معاهدة فرساي نفسها: الفاشيّة تتوثّق في إيطاليا منذ مطلع عشرينات القرن العشرين، والنازيّة تتألّق في ألمانيا منذ ثلاثينات القرن نفسه، واليابان تتهيّأ للانضمام إليهما... أمّا

الصامت الأكبر: الولايات المتّحدة الأميركيّة، فتلعب دور المراقب الهادئ المستعدّ للاستفادة من كلّ حدث تغييريّ محتمل!!»[1]، لذلك يتمّ تقدير دعم ما بقصد إنجاز هذه الاغتيالات ونجاحها...

في تلــك المرحلة الزمنيّة الفاصلة مــن التاريخ العالميّ الحديث والمُعــاصر: مرحلة ما بين الحربين العالميّتين الأولى والثانية 1918 – 1939، كان العالم تباعاً أمام جبهتين متعارضتين ومتناقضتين... فكان لا بدّ للدول والشــعوب والمجتمعات من التزام أحد الجانبين، على ضوء التطوّرات الاســتراتيجيّة والتداعيات السياســيّة والاجتماعيّة!! «أدّت السياسات الأوروبيّة الغربيّة العشوائيّة والفوقيّة، والسياسات الأميركيّة المهتمّة حصراً بشؤون القارة الأميركيّة، إلى دعم إنشــاء محور روما – برلين – طوكيو، بشكلٍ مُباشر أو غير مُباشر، مع تجاوب مدريد للتفاهم مع هذا المحور على ضوء الدعم الألمانيّ – الياباني الشــامل لإسبانيا الفرانكويّة خلال الحرب الأهليّة الإســبانيّة 1936–1939!! في 25 تشرين الأول 1936، انحازت اليابان إلى دول المحور في بحثها عن حلفاء، واصطدم طموح الإمبريالية اليابانية بالإمبرياليات الغربية، وبدأت اليابان المحادثات مع الجانب الألماني. وفي 25 تشرين الثاني 1936، تمّ توقيع الاتفاقية المعادية للشــيوعية التي تهدف إلى منع انتشار الشيوعية... وقد دعت الاتفاقية أية دولة تعتبر أن ســلامها مهدد من قبل الشــيوعيين للانضمام إليها، فتمّ توقيع بروتوكول جديد في روما في 6 تشرين الثاني 1937، لتصبح طرفاً في المعاهدة السابقة. توافقت السياســة التوسعية الألمانية مع التطلعات اليابانية، وبخاصة بعد أن أدركت ألمانيا أن تحالفها مع إيطاليا غير كافٍ لتحقيق طموحاتها التوسعية، وتشكيل رادع بوجه بريطانيا والولايــات المتحــدة... إذاً محور روما – برلــين – طوكيو حاجة اســتراتيجيّة وضرورة حيويّة، وقد اســتقطب هذا المحور تباعاً مزيداً من الحلفاء والأصدقاء عبر العالم... وباتت

(1) د. إيلي جرجي الياس، مسارات معقّدة ومترابطة، وطموات مختلفة ومتشابكة في أوروبا، بين الحربين العالميتين الأولى والثانية 1918 – 1939، تحــوّلات مشرقية، مجلة فصلية محكّمة، العدد 30، كانون الأول 2022، ص 36.

ألمانيا واليابان الركيزتين الأساسيّتين لهذا المحور... وبات هـذا المحور الطرف الرئيسيّ والأساسيّ في دفع القارة الأوروبيّة والعالم نحو مسار الحرب العالميّة الثانية المدمّرة..»[1]، ولأنّ القضيّة الأرمنيّة محقّة وعادلة، عملت القيادات الأرمنيّة العالميّة والأوروبيّة، على نصرة هذه القضيّة، والتفاهم مع كلّ من يلتزم بإيجاد حلّ نهائيّ لهذه القضيّة، مهما كانت دقّة وصعوبة الظروف!!

لقد كان موقف المناضلين الأرمن جازماً وحاسماً، «ويتعلّق ذلك أيضاً بالنسبة للاتحاد الثوريّ الأرمنيّ أن ينتقم من الشباب الأتراك - تركيا الفتاة الذين كان متحالفًا معهم وبعلاقات جيدة جداً حتى الإبادة الجماعية.»[2]، وهذا ما يؤكّد قساوة الخدعة العثمانيّة ضدّ الأرمن عشيّة ومع بداية الحرب العالمية الأولى... إلّا أنّ الموقف اليمينيّ المتطرّف، الفاشيّ والنازيّ، سيكون أيضاً تصاعديّاً بوجه الأتراك ورثة العثمانيّين!!

ولقد ربط اليمين المتطرّف في مسار تصاعده، وضمناً النازيّة الألمانيّة والفاشيّة الإيطاليّة، القضيّة الأرمنيّة بالغضب تجاه الأتراك ورثة العثمانيّين، مستعيدين قول الكاتب الفرنسيّ الشهير فكتور هوغو: من هنا مرّ الأتراك فأصبح كل شيء خراباً... وتجاه الحلفاء الغربيّين أيضاً، لصمتهم المريب عمّا حلّ بالأرمن وسواهم عبر الإبادة والنكبات...

لم تحبط السياسة التركيّة الباردة، خلال الفترة الزمنيّة الممتدّة بين الحربين العالميّتين الأولى والثانية 1918 - 1939، والتي تعمل في آن على تطوير العلاقات مع الدول الغربيّة وإيطاليا الفاشيّة وألمانيا النازيّة والاتّحاد السوفياتي الشيوعيّ على حدّ سواء - مع اعتماد الحياديّة العلنيّة في التعامل مع هذه البلدان - الإرادة الأرمنيّة الثابتة والهادفة لاستعادة أرمينيا

(1) د. إيلي جرجي الياس: ألمانيا النازيّة والإمبراطوريّة اليابانيّة، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن مجلة الأمن، العدد 92، تشرين الأول 2022، ص 86.

(2) Rolf Hosfeld, Operation Nemesis : Die Türkei, Deutschland und der Völkermord an den Armeniern, Kiepenheuer & Witsch, 2005 (ISBN 35-03468-462- et 978-462-3-4-03468, OCLC 58422031, lire en ligne [archive])

التركيّة بشــكلٍ كامل وتوحيدها مع أرمينيا السوفياتيّة إذا سمحت الظروف الاستراتيجيّة بذلك، والجهود الأرمنيّة السياســيّة والعسكريّة والاستخباريّة عبر العالم... وكأنّ الأرمن أحسّوا قبل سواهم أنّ الحرب العالمية الثانية على الأبواب، وأنّ هذه الحرب العالمية تحديداً ســتمحو تداعيات الحرب العالمية الأولى على الصعيد الأرمنيّ، لذلك كانت استعدادات الأرمن على قدمٍ وساق...

الإبادة الأرمنيّة في قلب الحرب العالمية الثانية!!

صحيــح أنّ الفوهرر أدولف هتلر لا يعبّر عن أفكاره بالكامل، بل يترك الغموض حاضراً وفاعلاً، «لم يكن هتلر يدوّن مذكّرات أو يسجّل فكرة على طرف ورقة. على كل حال، لم أره يفعل ذلك.»[1]، إلاّ أنّه أوضح في كتاب كفاحي رؤيته الشاملة حول تحالفات الحرب العالمية الأولى التــي أضرّت بالمصلحة الألمانيّة العُليا، «عــلى ألمانيا أن تتنب الوقوع في الخطأ الذي وقعت فيه قبل الحرب عندما استعدت العالم كله لأنها لم تعرف كيف تختار أصدقائها.»[2]، إشارة قاسية إلى التحالف السابق مع العثمانيّين، استعاده الفوهرر في خطاب له قبل الحرب العالمية الثانية: «مــن يتكلم اليوم عن إبادة الأرمن؟»[3]، تحتمل إشــارة الفوهرر الأرمنيّة تحضيراً للهولوكوســت وتبريراً له، كما تصوّب نحو الأتراك مبــاشرةً في يوم الاتّفاق بين الألمان والسوفيات تحديداً، والذي ســيكون على حساب تركيا لو استمرّ، لكن من حيث قصد هتلر أم لم يقصد أعاد القضيّة الأرمنيّة المركزيّة إلى الأضواء...

بعــد الانتصارات الباهــرة في أوروبا الشرقيّة والبلقان، بات الفوهــرر أدولف هتلر أمام خيارين حربيّين لا ثالث لهما بالنســبة لمســار المعركة الكبرى المُتواصــل: أمّا التقدّم حول المتوسّط باتّجاه الشرق الأوسط ومنه إلى الاتّحاد السوفياتي، «كان يوم 12 تشرين الثاني 1940

(1) روخوس ميش، الحارس الشــخصي لهتلر يتكلم، شهادة دونها نيقولا بورسيه، الطبعة الاولى، 2015، ص 103.

(2) أدولف هتلر، كفاحي، دار الأنوار للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ص 216، 217.

(3) خطاب ألقاه الفوهرر أدولف هتلر أمام قادة الفيرماخت في البرغهوف بتاريخ 22 آب 1939.

يوم قرارات بالغة الأهميّة. فقد وضع جودل بين يدي الفوهرر تقريراً يُستخلص منه تعّر غزو إنكلترا، وقبل هتلر بالأمر. وقام بتحرير مذكّرته رقم 18، وقد برز فيها مخطّط جديد كامل للحرب. وأمام هذه الوثيقة ظنّ جودل وكلّ من آزره في الاستراتيجيّة المتوسّطيّة أنّ قضيّتهم رابحة. وازداد هتلر ولعاً...»[1]، أو الهجوم على الاتحّاد السوفياتي وبعد الانتصار التوجّه إلى الشرق الأوسط والهند... «لكنّ المظاهر كانت خدّاعة. فالشهادات كلّها تثبت أنّ هتلر قد خرج من مقابلته مع مولوتوف فب حالة هياج شديد. قال بول شميدت: إني مقتنع بأنّ هتلر قد اتّخذ قرار مهاجمة روسيا على إثر ذلك مباشرة.»[2]. لقد بحث مولوتوف مع الفوهرر ومع وزير خارجية ألمانيا ريبنتروب، بين 12 و14 تشرين الثاني 1940، فرص تطوير التفاهم الألمانيّ – السوفياتيّ، ومن ضمن ذلك تطويق تركيا، ما كان يُمكن أن يكون مفيداً للمجاهدين الأرمن، إلّا إذا جاء التوسّع الألمانيّ صوب الاتّحاد السوفياتي على حساب المتوسّط، وهذا ما حدث بالفعل!!

كان اللوبي الأرمنيّ الأوروبيّ في قلب الراغبين بالاستفادة من الهجوم النازيّ على الشرق الأوسط، بقصد إحياء مشروع أرمينيا الكبرى الموحّدة، وفي مقدّمة القادة الأرمن الكبار المندفعين لتشكيل الألوية الأرمنية تحت راية المحور، في سبيل ذلك الهدف المقدّس، الجنرال الأرمنيّ الخبير دراستامات كانايان (1884 – 1956)، وزير الدفاع زمن الاستقلال الأرمنيّ العابر 1918 – 1920، قبل ضمّ الاتّحاد السوفياتي لأرمينيا. وبما أنّ قسمي أرمينيا الموحّدة وقعا أحدهما بيد تركيا بعد فعل الإبادة، وثانيهما بيد الاتّحاد السوفياتي بعد فعل الاحتلال، أشرف كانايان على تشكيل الفيلق الأرمنيّ ضمن الرايخ الثالث.

عاون كانايان في تشكيل الفيلق الأرمنيّ، مجموعة من القادة الأرمن الاستراتيجيّين أصحاب الباع الطويل في النضال لتحقيق استقلال أرمينيا الموحّدة، ومن ضمنهم رئيس

(1) ريمون كارتييه، الحرب العالمية الثانية، مؤسسة نوفل، الجزء الأول، 1983، ص 181 .

(2) ريمون كارتييه، الحرب العالمية الثانية، مؤسسة نوفل، الجزء الأول، 1983، ص 182 .

الحكومة الأرمنيّ الأســبق غاريغين ناجدي (1886 – 1955)، وفاهان بابازيان (1876 – 1973)، وكان لهما حضورهما الفاعل في تأسيس المجلس الوطنيّ الأرمنيّ في برلين عاصمة الرايخ الثالث.

حظي المجلــس الوطنيّ الأرمنيّ، بحماية ورعاية منظّر النازيّة المعلن ألفرد روزنبرغ وأمين سرّ الفوهرر العامّ مارتن بورمان، رجلي الفوهــرر الأمينين، ما يثبت اهتمام هتلر الفائض بالشرق الأوســط وقضاياه، ولم ســتمّ هذا الدعم إلّا بإشراف الفوهرر نفســه... وتشير الدراســات الحديثــة أن الدعم حصل أيضاً مــن القائد الألمانيّ التاريخــيّ هانز غودريان صاحــب الأصول الأرمنيّة المبهمة، «وفي أوائل خمســينيات القرن العشرين، بات الجنرال هانز غودريان مستشاراً عسكرياً مساعداً في إنشاء قوات الدفاع العسكرية في ألمانيا الغربية والتي ســتصبح لاحقاً الجيش الألمانيّ، قبل وفاته في أيار 1954!! تاركاً مذكراته أيضاً تحت عنوان : مذكرات جنديّ!!»[1]، وقد تعمّد غودريان توثيق هذا الدعم بأسلوبه الغامض!!

بالنســبة للجنرال الأرمنيّ دراســتامات كانايان، الذي عُرف على نطاقٍ واســع أنّه قائد الفيالق الأرمنيّة في الجيوش الألمانيّة، كان من الافضل ســلوك مجال الشرق الأوسط أوّلاً باتّجاه الاتّحاد الســوفياتي، لإنشــاء الوطن الأرمنيّ الكبــير في الأراضي الأرمنيّة في تركيا والاتّحاد الســوفياتي، فمن السهل حينذاك دفع الأرمن الســوفيات للوقوف مع إخوانهم بوجه الكرملين... إلّا أنّ نجاح المستشــار الألمانيّ السابق فرانز فون بابن في دفع الفوهرر أدولــف هتلر نحو عمليّة بربروســا مباشرةً، جعل كانايان في الموقــف الصعب... وقد اســتبشر كانايان بقرب تحقيق الحلم الأرمنيّ خلال حملة القوقــاز 1942!! ألم يقل رئيس الاســتخبارات الســوفياتيّة لافرينتي بيريا: «الشيشــان باتوا جاهزين للتعاون مع الألمان باعتبارهم محرّرين. أمّا القوميّات الأخرى فتســاند ســتالين، لكن يلــزم الوقت لتنظيم

(1) د. إيلي جرجي الياس: أوروبا تشتعل في خضمّ الحرب الباردة، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفســية، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن مجلة الأمن، العدد 80، تشرين الأوّل 2019، ص 135.

المقاومة.»[1]، فالوضع كلّه سيتغيرّ حسب كانايان، بمجرّد وصول طلائع الفيالق الأرمنيّة إلى حدود أرمينيا السوفياتيّة... لكن أمل كانايان في نهاية المطاف خاب، خصوصاً بعد معركة ستالينغراد، لكنّ حلمه الأرمنيّ ظلّ يراوده بعد الحرب، وبين بيروت وبوسطن، مستفيداً من صداقاته خصوصاً مع الجنرال الألمانيّ الأميركيّ راينهارد غيهلن، حاول إطلاق حراك سياسيّ أرمنيّ عالميّ، ولكن دون جدوى كبرى... هل كان كانايان وراء عمليّة اغتيال فون بابن قي تركيا سنة 1942، مستفيداً من طاقات الأوركسترا الحمراء؟

أمّا غاريغين ناجدي، الذي رسم خريطة أرمينيا الكبرى – أرمينيا الحلم، مع شريكه وصديقه فاهان بابازيان وقد ساهما معاً في تأسيس المجلس الوطنيّ الأرمنيّ في برلين، فقد واكب الحلم دون تعب أو ملل، مستثمراً علاقاته مع الأوركسترا الحمراء حتى النهاية، فحاول تحريض ستالين في رسالة تاريخيّة له يوم 9 أيلول 1944، للهجوم على تركيا واستعادة أرمينيا الغربيّة وتوحيد الأرمينيّتين ولو تحت الرعاية السوفياتيّة، لاعباً على وتيرة العلاقة بين عصمت إينونو وفرانز فون بابن، وأوهمه السوفيات باحتمال بحث عرضه الاستراتيجيّ، ودعوه إلى موسكو لإقرار خطّته، لكنّهم أوقعوه في الفخّ، وزجّوه في السجن لمدّة 11 عاماً حتّى موته، مستعملين معه كلّ وسائل التعذيب المُتاحة... فكان كمن اختصر عذابات الإبادة الأرمنيّة في جسده، بدمٍ بارد وصمود أسطوريّ... أمّا بابازيان فحافظ على إرادته التمثيليّة، من ممثّل للأرمن في البرلمان العثمانيّ قبل الحرب العالمية الأولى، إلى دوره التمثيليّ في المجلس الوطنيّ الأرمنيّ في برلين، إلى مرشّح منافس بقوّة في دائرة المتن قي الانتخابات النيابيّة اللبنانيّة، دون أن يوفّق إلى الفوز... ليس المهمّ من يحمل الشعلة، بل المهمّ أن تبقى الشعلة مرفوعة...

ولكن من في الجهة الثانية ليساند غاريغين ناجدي، على وقع ألحان الأوركسترا الحمراء الدراميّة؟ إنّ ببساطة الرجل القويّ في إدارة الزعيم السوفياتيّ جوزف ستالين: أنستاس

(1) Boguslaw Woloszanski, Les secrets de guerre de Hitler, Editions Jourdan, Paris, 2019, p 150.

ميكويان الأرمنيّ الأصل والذي لم ينسَ الحلم الأرمنيّ في أيّ وقت من الأوقات... ولكن جاء الوقت ليصبّ ستالين غضبه على ميكويان بطريقة غريبة، بعد رسالة ناجدي: «بالنسبة إلى ميكويان، كانت أولى تلك الإشارات صفعة على الرسغ تلقاها من الفوجد. في 17 أيلول 1944 أرسل ميكويان إلى ستالين مسودة قرار عن تقديم حبوب إلى عدد من الأقاليم. برغم أن الاقتراح تميّز بالاعتدال ولم يمنح الأقاليم كل ما طلبته، إلا أن ستالين عبّرعن غضبه وكتب عليه: أصوّت ضد القرار. يتصرّف ميكويان بأسلوبٍ معادٍ للدولة ويخضع لتأثير لجان الأقاليم ويعمل على إفسادها. يجب عزل ميكويان... فعل المكتب السياسي ذلك في اليوم الآتي.»[1]، بين إبادة حدثت في أرمينيا العثمانيّة – التركيّة في نيسان 1915، وإبادة كادت أن تحدث في أرمينيا السوفياتيّة تذكّر بالرعب العظيم في نيسان 1945، ووسط تحريض تركيّ متواصل وغير مسبوق، أحسن ميكويان في استيعاب غضب ستالين، ومن ثمّ العودة إلى ربوع الكرملين ولو بعد حين!!

كان للقيادات الأرمنيّة في القارة العجوز أوروبا أو عبر العالم، خلال الحرب العالمية الثانية والتي امتدّت من 1 أيلول 1939 حتّى 2 أيلول 1945، أي ستّ سنوات ويوم، عبر معسكري الحرب: المحور أو الحلفاء الغربيّين والاتّحاد السوفياتي، شرف المحاولة للعمل الحثيث والجادّ لاستعادة فرصة إحياء الدولة الأرمنيّة المستقلّة والموحّدة – في الأراضي الأرمنيّة الموجودة في تركيا أو في الاتّحاد السوفياتي – من جديد!! مع تسجيل حجم العقبات الاستراتيجيّة والصعوبات العسكريّة والتعقيدات السياسيّة في مواجهة هذا المشروع الجبّار!!

فرانز فون بابن ينقذ تركيا: ملحق الإبادة السياسيّة!!

ثمّة حقيقة بحثيّة يجب إدراكها وتوثيقها، وذلك بعد مرور 108 سنة على الإبادة الأرمنيّة

(1) أوليغ ف. خلفنيوك، ستالين، سيرة ذاتية جديدة لمستبد، جرّوس برس ناشرون، الطبعة الاولى، 2017، ص 395.

والنكبات السريانيّة والآشـــوريّة والكلدانيّة: إن كان طلعت باشـــا أو أنور باشا مشاركين بالفعل في التخطيط للإبادة الأرمنيّة وتنفيذها، فليس طلعت باشـــا الرجل الأوّل في هذه القضيّة، بل جمال باشا السفّاح لذلك اكتسبت شهرة السفّاح معاني إضافيّة في لصقها باسم جمال، وانطلاقاً من ذلك تُفهم جهود جمال باشا حتّى بعد الحرب العالمية الأولى...

وثمّة حقيقة بحثيّة أخرى لا تقلّ قســـاوة عن الأولى، هي أنّ اختيار عصمت إينونو رئيساً للجمهوريّـــة التركيّة الفتيّـــة (11 تشرين الثاني 1938 – 22 أيّـــار 1950)، بناءً على وصيّة المؤسّس كمال باشـــا أتاتورك، لم يكن فقط بســـبب الصداقة المتينة والطويلة بين عصمت وكـــمال، ومقدار وفاء وولاء عصمت لكـــمال، بل نتيجة للصداقـــة القديمة المتجدّدة بين الرئيس الجديد والمستشار الألمانيّ الســـابق فرانز فون بابن، الذي له فضل كبير في وصول الفوهرر أدولف هتلر الى المقام الألمـــانيّ الأوّل!! «حتى ارتكب الرئيس هاندنبرغ الخطيئة المميتة، فبعد الانتخابات التشريعية الجديدة، اســـتبدل فون بابن بفون شلايشر في منصب المستشـــار! فانتفض فون بابن ومد يده بسرية مطلقة إلى العريف المتشرد أدولف هتلر! في التفاف ســـياسي جبار وخطير، بدعم مطلق من فون بابـــن في الداخل، وصديقه غورنغ، وابن الرئيس هاندنبرغ أوســـكار الخائف على صحة والـــده المضطربة، ومع حراك عنيف وعنيد للـ«أس. أس. وأس. إي.»، غامر هتلر! لن يقلّ هتلر عن هاندنبرغ طموحاً وعناداً وإرادة صلبة للقيادة. في 28 كانون الثاني 1933، أجبر فون شـــلايشر على الاستقالة... وفي 30 كانون الثاني 1933 اســـتقبل الرئيس هاندنبرغ هتلر، في أصعب وأقســـى لقاء، وعينه مستشاراً، وفون بابن نائب المستشار! يا للعجب! كان هتلر يراقب صحة الرئيس هاندنبرغ ويعلم بمرضه، لذلك واجهه في الانتخابات الرئاســـية، وانتظر بصبر حتى وفاة هاندنبرغ في 2 آب 1934، فاستأثر بمهمات الرئيس تلقائياً، وبات الزعيم المطلق! يسجّل لهتلر صبره الكبير وقدرته الفائقة على التأقلم في الظروف الصعبة والدقيقة!»[1]، وقد تطوّرت العلاقة بقوّة بين هتلر وفون بابن!! «في العام 1938 أشـــيع أن الفرولين أدما فون بابن ابنة شـــقيق

(1) د. إيلي جرجي الياس، مئة عامٍ من الأسرار سيرة قائدٍ ألمانّي، دار سائر المشرق، 2021.

البارون فون بابن ستكون السيدة الأولى في الرايخ الثالث، فقد شوهدت الفتاة فعلاً في حفلات رسمية السة عن يسار الفوهرر، وسمح هملر للمصورين بأن يلتقطوا لها صوراً وهي تتحدث إلى الزعيم. ولكن هتلر لم يتزوج أدما فون بابن، وتبخرت الإشاعة أسوة بسابقاتها من هذا القبيل.»[1]، وقد أدرك كمال أتاتورك وعصمت إينونو على حدّ سواء، الحاة إلى مهارات وخبرات المستشار فون بابن، تخوّفاً من ردّة فعل عنيفة لهتلر تجاه تركيا، على ضوء تفاهمه مع الاتحاد السوفياتي... «أحسن مفتي فلسطين والديار المقدّسة الحاج أمين الحسيني هروبه من إيران إلى إيطاليا عبر تركيا متقمصاً شخصية مواطن إيطاليّ، والزعيم العراقيّ رشيد عالي الكيلاني هروبه من تركيا بدعمٍ ألمانيّ، فكان إنجاز استخباريّ ألمانيّ – إيطاليّ باهر!! المستشار الألمانيّ المخضرم فرانز فون بابن، والذي بات سفير ألمانيا النازية في تركيا، صاحب مشروع لتوريط الفوهرر أدولف هتلر والجميع في مساحة الحروب المترابطة، وصولاً إلى الهجوم الألمانيّ الكبير على الاتحاد السوفياتي... وإن لم تنجح عملية اغتياله في شباط 1942، ظلّ مشروعه يتفاعل... واستفاد من حضوره الرئيس التركيّ عصمت إينونو، المسؤول عن السياسة الخارجية التركية الداهية، في زمن الحرب العالمية الثانية الضارية!! وها هو مروّة نفسه ينجح في الوصول إلى بلغاريا، انطلاقاً من تركيا...»[2].

من المنطقيّ ربّما أن يعود إينونو الذي ترك منصب رئاسة الجمهوريّة، من جديد رئيساً للحكومة التركيّة بين 1961 و1965، وهذا المنصب شغله طويلاً في عهد المؤسّس أتاتورك، لكن من العجب أن يصبح فرانز فون بابن، الحاضر في الشرق الأوسط خلال الحرب العالمية الأولى، والذي كان يوماً مستشار ألمانيا، سفير ألمانيا النازيّة لدى تركيا بين نيسان 1939 وآب 1944... إلّا أنّ عصمت إينونو رئيساً، لن ينسى صديقه الصدوق فرانز فون بابن الذي نال لاحقاً البراءة على يد محاكم نورمبرغ بعد الحرب العالمية الثانية مباشرةً،

(1) ألبرت زولر، هتلر، الوجه الآخر، جمعية كمال بيروني الثقافية، ص 50.

(2) د. إيلي جرجي الياس، الحرب العالمية الثانية، من خلال الصحفيين اللبنانيين العالميين، إميل الخوري وكامل مروة، تحوّلات مشرقية، مجلة فصلية محكّمة، العدد 26، شباط 2022، ص 86.

بشـــكلٍ مثير للدهشة!! «من الغرابة أن يكون مصير هرمان غورنغ الاعدام، بشكل حاسم ونهائي، بينما هو وهاينرايش هملر، قد شكّلا هاجس الانقلاب لدى هتلر في الايام الاخيرة للحرب العالميـــة الثانية، بل هما المتهمان بمفاوضة الحلفاء مبـــاشرةً و دون علم هتلر، بينما خليفة هتلر، فوهرر الرايخ الرابع، دونيتز، يحكم عليه بالسجن ل 10 سنوات، ومستشاره مستشار هتلر الأحبّ، شبير، يحكم عليه بالســـجن ل 20 سنة... بينما البراءة ل فرانز فون بابن، الصديق اللدود لأدولف هتلر وكأنّه أحســـن التعبير عن نفســـه أثناء المحاكمة وعن أفكاره قبل ذلك بكثير!»[1].

ناهيك عن كون المستشار الألمانيّ فرانز فون بابن كان حاضراً في تفاصيل الحرب العالمية الأولى 1914 – 1918، وملمّاً بقضاياهـــا المترابطة والمعقّدة، عالماً بدقّة بالإبادة الأرمنيّة والنكبات السريانيّة والآشـــوريّة والكلدانيّة، داعماً للحراك العثمانيّ في الصميم ومستشـــاراً ألمانيّاً مع الجيوش العثمانيّة في الشرق الأوســـط، متنقّلاً في المناطق اللبنانيّة والسوريّة والفلسطينيّة، صديقاً مقرّباً لجمال باشـــا الســـفّاح، وصديقاً لأنور باشـــا وطلعت باشا ومصطفى كمال باشـــا أتاتورك، ورفيقاً لعصمت إينونو أيضاً، مناصراً للقضايـــا العثمانيّة ومن ثمّ التركيّة بامتيـــاز... ويجدر التأكيد أنّ فرانز فون بابن أكثر من عمل وتدخّل لصرف أنظار الفوهرر أدولف هتلر عن الشرق الأوســـط كمدخل حتميّ إلى الاتّحاد السوفياتي والقارة الآسيويّة لاحقاً، في مقابل الهجوم المُباشر والمفتوح على الأراضي الســـوفياتيّة لعلّ هتلر يقع في الفخّ الجيوســـتراتيجيّ المُتقن – وقد وقع بالفعل – نصرةً للرجعيّة الأوروبيّة والأرســـتقراطيّة الألمانيّة وعلاقاته في الأوساط الأميركيّة والغربيّة والتركيّة والماسونيّة الدوليّة...

صمود القضيّة الأرمنيّة.

ستنتهي الحرب العالمية الثانية بخيبة أمل كبرى للأرمن فقط كانوا على وشك استعادة ألق القضيّة وعنفوانها: ما ســـبّبته الحرب العالمية الأولى تعوّضه الحـــرب العالمية الثانية، إلّا أنّ

(1) د. إيـــلي جرجي الياس: أدولف هتلر وإيفا براون من برلين إلى الأرجنتين حب أقوى من الحرب، دار سائر المشرق، بيروت، أذار 2019، ص 72، 74.

اللعبة السياسيّة تحكّم بها مستشار ألمانيا السـابق فرانز فون بابن، فقد مرّ ببال الفوهرر أن يصل إلى الاتّحاد السـوفياتي عن طريق الشرق الأوسط وتركيا أوّلاً، وكاد يفعلها!! وكان هذا رأي القائد الألمانيّ العريق هانز غودريان ورجله – مدير الاستخبارات الألمانيّة الغربيّة لاحقاً – راينهارد غيهلن... «بدأ الأمر بموجة بشرية في شـوارع يريفان، ففي 24 نيسـان 1965، نزل أكثر من 100 ألف شـخص إلى وسـط عاصمة جمهورية أرمينيا الاشـتراكية السـوفياتية للمطالبة بالاعتراف بـ الإبادة الأرمنية. وشكل ذلك بداية تحرك مطلبي كان حتى ذلك الحين بعيداً عن الأضواء. في هذه الأثناء، ولدى استقلال البلاد على إثر سقوط الاتحاد السوفياتي في 1991، بات النضال من أجل الاعتراف الدولي بالإبادة الأرمنية أحد أبرز اتجاهات السياسـة الخارجية للبلاد. أما أنقرة فتعتبر أن مجزرة الأرمن لم تكن سـوى صفحة سوداء إضافية في كتاب الفوضى الناجمة عن الحرب العالمية الأولى، دون الاعتراف بها كـ إبادة. وشـهدت الثمانينات بروز حركة دولية للاعـتراف بالإبادة الأرمنية، زاد من اتساعها الشـتات الأرمني في الولايات المتحدة.»[1]، ولن يتأخّر الشباب الأرمنيّ المُناضل عن اعتماد سـبل المقاومة المدنيّة وحتّى المسـلّحة، لإعلاء شـأن القضيّة الأرمنيّة الأمّ في مواجهة التعنّت التركيّ...

تـوّج الرئيس الأميركيّ جو بايدن مسـيرة المقاومة الأرمنيّة السياسـيّة، باعترافه بالإبادة الأرمنيّة المرتكبة من قبل الدولة العثمانيّة، وذلك يوم 23 نيسان 2021، كما «أقر الكونغرس الأميركي بـ الإبـادة الأرمنية في كانون الأول 2019 في عمليـة تصويت رمزية. وفي عام 2000، أكد 126 باحثاً، بينهم الحائز جائزة نوبل للسلام إيلي فيزل، في بيان نشر في صحيفة نيويورك تايمـز، أن الإبادة الأرمنية إبـان الحرب العالمية الأولى واقـع تاريخي لا يمكن إنـكاره. وفي 20 أبريـل 1965، كانت الأوروغواي أول بلد يعـترف بإبادة الأرمن. وفي 2001، أقرت فرنسـا قانوناً يعـترف بالإبادة الجماعية للأرمن، وأقيـم يوم وطني لإحياء ذكرى الإبادة للمرة الأولى في 24 أبريل 2019. غير أن فرنسا لا تجرم إنكار الإبادة، خلافاً

(1) إبادة الأرمن – قرن من حرب على الكلمات والأرقام، دويتشه فيله DW، 17 – 04 – 2015.

لســـويسرا وقبرص وسلوفاكيا. وصوتت برلمانات نحو 30 دولة على قوانين أو قرارات أو مذكرات تعترف صراحة بالإبادة الأرمنية، هي: ألمانيا، والأرجنتين، والنمســـا، وبلجيكا، وبوليفيا، والبرازيل، وكندا، وتشـــيلي، وقبرص، والولايات المتحدة، وفرنسا، واليونان، وإيطاليا، ولبنان، وليتوانيا، ولوكســـمبورغ، وباراغـــواي، وهولندا، وبولندا، والبرتغال، وروسيا، وسلوفاكيا، والسويد، وســـويسرا، والأوروغواي، والفاتيكان، وفنزويلا. وفي شـــباط 2020، اعترف البرلمان السوري رســـمياً بالإبادة الأرمنية. وأقر البرلمان الأوروبي بالإبـــادة الأرمينية في عام 1987. ومـــن البلدان التي صوتت، أخـــيراً، على قرار يعترف بالإبـــادة، هولندا عام 2018، والبرتغال عـــام 2019. كذلك أصدر مجلس النواب الألماني قراراً بهذا الصدد في 2016، وصفته المستشـــارة أنغيلا ميركل بأنه غير ملزم. وفي 24 أبريل 2015، حـــين كانت أرمينيا تحيي مئويـــة الإبادة، تحدث البابا فرنســـيس عن أول إبادة في القرن العشرين.»[1]، مسيرة طويلة وشاقّة من النضال الأرمنيّ السياسّي والمقاومة على كافة مستوياتها، ومن نضال الشـــعوب التي تعرّضت للاضطهاد على يد الثلاثيّ العثمانيّ: جمال باشا وطلعت باشا وأنور باشـــا، أثمرت وعياً على مستوى بلدان العالم ومجتمعاته، ولا بدّ أن ينعكس ذلك إيجاباً على مســـار الاعتذار والتصويب واســـتعادة الحقوق، مهما تعاقبت السنون وغلت التضحيات وكبرت التحدّيات...

خاتمة. توصيات بحثيّة.

كادت أن تشكّل الحرب العالمية الثانية من الناحية الاستراتيجيّة الفرصة المحتملة لاستعادة القرار الأرميني الموحّد والمستقلّ في مواجهة الاحتلال التركيّ ونكرانه للإبادة رغم اعتراف مصطفى كمال أتاتورك المحدود والغامض... إلّا أنّ الرياح جرت عكس ما تشتهي السفن الأرمنيّة!! وقد شكّل اســـتقلال أرمينيا – التي كانت تابعة للاتّحاد السوفياتي – بعد انهيار هذا الاتّحاد أواخر سنة 1991، فرصة لتألّق القضيّة الأرمنيّة من جديد، ناهيك عن الجهود

(1) هذه هي الدول التي تعترف بـ الإبادة الأرمينية، إندبندنت عربية، الجمعة 23 نيسان 2021.

البّــارة لـ اللوبي الأرمنيّ عبر العالم، وفي المقدّمة طبعاً حزب الطاشــناق المُناضل... إلّا أنّ آذربيجان بوكالة طويلة الأمد من تركيا، كما من الدولة العثمانيّة من قبل، عرقلت وتعرقل مفاعيل تطوّر القضيّة الأرمنيّة المحقّة والعادلة!! «تابع الرئيس بوتين خطّته الاستراتيجية، مدعوماً من الرئيس ميدفيديف... فتدخّل ضد جورجيا ســنة 2008، وثبّت الاســتقلال الذاتيّ لأوســيتيا الجنوبية وأبخازيا بحماية روســية!! وضمّ القرم إلى الاتحاد الروسيّ، بعد اســتفتاءٍ فيها، إثر مواجهة حاســمة مع أوكرانيا، ســنة 2014!! وتدخّل إثر الحرب بين أذربيجان المدعومة من تركيا وجمهورية أرتساخ المدعومة من أرمينيا، سنة 2020، متوسطاً بين الطرفين، فارضاً شروطه الاســتراتيجية، رغم انتصارٍ محــدود لأذربيجان!! إنّه زمن النجاحات الروسية السياسية والاستخبارية والأمنية، في منطقة القوقاز، والمناطق التابعة للاتحاد الســوفياتي ســابقاً...»[1]، ولعلّ الإيجابيّة الكبرى في الــصراع الأرمنيّ – الآذريّ المستجدّ، الإضاءة على قدسيّة القضيّة الأرمنيّة في مواجهة التحدّيات الحاضرة والمستقبليّة، وانطلاقاً من ذلك، ضرورة استمرار النضال الثقافيّ والإعلاميّ والحضاريّ لتأكيد وتوثيق الحقوق الأرمنيّة التاريخيّة!!

والقضيّة الأرمنيّة – كما القضيّة الفلسطينيّة – قضيّتان مركزيّتان لا سلام عالميّ عادل وشامل دون إيجاد الحلول العادلة والحاســمة لهما... وطن فلســطينيّ عاصمته القدس الشريف، ووطن أرمنيّ في المجال الأرمنيّ التاريخيّ في تركيا، ســيّدان حرّان مستقلّان، مدخلان إلى السلام الضروريّ والمستدام في الشرق الأوسط المعذّب!! «هل نكبة فلسطين نتيجة حتمية للحرب العالمية الثانية؟ حكماً نعم !! فقد تقرّر مصير فلسطين في أوروبا في الأشهر الأخيرة من الحرب العالمية الثانية، من برلين مروراً ب بودابست وصولاً الى لندن!! هل قدّر للشعب الفلســطينيّ الأبيّ أن يتحمل تبعات الحرب العالمية الثانية كاملة، ولا ذنب له في اندلاعها أبــداً؟؟ للأمم المتحدة ولدول العالم ولمنظمات الســلام، الاتعاظ مــن كل هذه التجارب

(1) د. إيــلي جرجي الياس، من الحرب العالمية الثانية إلى الحرب الأوكرانيّة: أحداث ومفاجآت، تحوّلات مشرقية، مجلة فصلية محكّمة، العدد 31، نيسان 2023، ص 33.

المؤلمة، للإسراع في إيجاد الحلول الناجعة لأزمات الشرق الأوسط المتواصلة...»[1]، وهكذا تتكامل القضيّتتن الفلسـطينيّ والأرمنيّة في البحث عن الحقّ المنشود و انتصار الحقيقة!! وللأمم المتّحدة أن تتّخذ المبادرة المطلقة!! «العين على العالم الثالث، في مسرح الصراع الحادّ والممتدّ بين الدول العظمى والجبّارين السـوفياتيّ-الروسيّ والأميركيّ، وبين المعسكرين الشرقيّ والغربيّ، وفي إطار انتشار الأوبئة والفيروسات ومتحوّراتها، وأفريقيا خصوصاً... والحلّ تغليب لغة المنطق والحوار بين الدول والمجتمعات والحضارات، وإحلال السـلام حيث كان، وإيـلاء المراكز البحثية: العلمية والصحية، كلّ الإمكانيات الأكاديمية والمالية لنجاحهـا، في مكافحة كلّ ما يضرّ بحياة الإنسـان...»[2]، وإلاّ اندفع الشـعبان المقاومان والمناضلان إلى استغلال الفرص التاريخيّة المستقبليّة والمفصليّة، لتحقيق مطالبهما العادلة، ولو بالقوّة...

هل انتظرت تركيا زلزالاً مدمّراً - كما حدث يوم 6 شباط 2023 - لتدرك أنّ فرص الحوار مع الجانب الأرمنيّ ما زلت مُتاحة، شريطة إحقاق الحقّ الأرمنيّ؟؟ «فُتح معبر بين أرمينيا وتركيا للمرة الأولى منذ 35 عاماً من أجل السـماح بمرور مساعدات إنسانية بعد الزلزال الذي ضرب المنطقة، على ما أفادت وكالة الأناضول التركية. وأوضحت الوكالة أن خمس شاحنات محمّلة بمساعدات لضحايا الزلزال الذي ضرب تركيا وسوريا الاثنين عبرت معبر أليكان في محافظة إغدير. ونقلت وكالـة الأناضول تغريدة لنائب وزير الخارجية الأرمني فاهان كوستانيان قال فيها إن المساعدات الإنسانية التي أرسلتها أرمينيا عبرت جسر مرغارا على الحدود بين أرمينيا وتركيا وهي في طريقها إلى المناطق المتضررة من الزلزال. وبحسب

(1) د. إيـلي جرجـي الياس: دور هنغاريّ مركزيّ في تأسـيس الكيان الإسرائيـلّي الغاصب على أرض فلسطين، الدراسـات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسية، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن مجلة الأمن، العدد 83، تموز 2020، ص 121، 140.

(2) د. إيلي جرجي الياس: ما بين تجلّيات الحرب الباردة الثانية وبداية الألفية الثالثة!!، الدراسات الأمنية والقانونية والعلمية والاجتماعية والنفسـية، مجلة فصلية محكمة، تصدر عن مجلة الأمن، العدد 89، كانون الثاني 2022، ص 115، 116.

الوكالة التركية، فتح هذا المعبر خصيصا في العام 1988 لإرسال مساعدات إلى أرمينيا التي تعرضت حينها لزلزال ضرب عاصمتها يريفان وتراوح عدد ضحاياه بين 25 ألفا و30 ألف قتيل. ويسود التوتر بين البلدين بسبب رفض أنقرة الاعتراف بمذابح الأرمن على يد الإمبراطورية العثمانية خلال الحرب العالمية الأولى باعتبارها إبادة جماعية.»[1]، وقد أبرز هذا الزلزال الوجود الأرمنيّ التاريخيّ والحضاريّ في قلب تركيا نفسها!! «في فاكيفلي، قرية الأرمن الوحيدة المتبقية في تركيا، يحمد السكان كبار السن الرب على أن أحدا منهم لم يلق حتفه خلال الزلازل المدمرة التي ضربت المنطقة لكنهم يخشون على مستقبل موطنهم العزيز. وألحقت الهزات الأرضية أضرارا بالغة بنحو 30 من إجمالي 40 منزلا حجريا من طابق واحد أو طابقين في القرية وتحيط بها بساتين البرتقال والليمون. وتقع فاكيفلي على جبل موسى في ولاية هاتاي وتطل على مدينة ساماندا الواقعة على الطرف الغربي لحدود تركيا الطويلة مع سوريا. ويتحدث القرويون فيما بينهم بلهجة أرمينية محلية تُعرف بلهجة أهل جبل موسى الأرمينية وهي لهجة تتخللها كلمات عربية وتركية.»[2]، ما يفتح احتمالات الحوار رغم تواصل وعمق الأزمات!! «قال وزير الخارجية التركي مولود جاويش أوغلو، إن المساعدات الإنسانية التي أرسلتها أرمينيا لضحايا الزلزال المدمر الذي ضرب بلاده الأسبوع الماضي قد تعزز جهود الدولتين الجارتين لتطبيع العلاقات بينهما. وقال جاويش أوغلو في مؤتمر صحفي مشترك في أنقرة مع نظيره الأرميني أرارات ميرزويان: مدت أرمينيا يدها بالصداقة وأظهرت التضامن والتعاون معنا في هذا الوقت العصيب... نحتاج إلى مواصلة هذا التضامن. وقال ميرزويان عبر مترجم إن أرمينيا تظل ملتزمة بالتطبيع الكامل للعلاقات والفتح الكامل للحدود مع تركيا.»[3]، وإن كان لا مجال لنجاح الحوار، إلّا بالاعتراف بالإبادة الأرمنيّة والاعتذار الصريح واستعادة الأرمن كامل

(1) أول مرة منذ 35 عاماً.. فتح معبر بين تركيا وأرمينيا بعد الزلزال، العربية، 11 شباط 2023.

(2) دمار الزلزال يطال آخر قرية أرمنية في تركيا وسكانها يخشون المجهول، يورونيوز، 26 شباط 2023.

(3) الزلزال يعيد تحريك العلاقة بين تركيا وأرمينيا، الخليج، 15 شباط 2023.

حقوقهم الجيوســتراتيجيّة، يبقى باب الحوار مفتوحاً، وذلك أفضل من أن يستطيع زلزال رهيب ذات يوم من تغيير المعادلة الرهيبة المتوارثة منذ قرن ويزيد...

لعلّ الإبادة الأرمنيّة بحجمها المهول وتداعياتها الضخمة، وفي ذكراها الســنويّة الساطعة، تســتنهض صحوة الضمير العالميّ مع بداية الألفيّة الثالثة، لإيجــاد الحلول الناجعة لتلك الكوارث التاريخيّة الكبرى، ولمنع تكرارها في أيّ حال من الأحوال... إذ «يؤكد الأرمن أن 1,5 مليونا من أســلافهم قتلوا بشكل منظّم قبيل انهيار السلطنة العثمانية فيما أقرّ عدد من المؤرّخين مع نحو ثلاثين دولة بوقوع الإبادة. ونجا نحو نصف مليون إنســان من الأرمن وانتشروا في أصقاع الأرض مشتتين.»[1]، وما دام الشعب الأرمنيّ مندفعاً في وعيه، صادقاً بالمطالبــة بحقّه، صامداً في الدفــاع عن قضيّته العادلة، فلا بدّ أن يســتعيد هذا الحقّ ذات يوم!! وفي كلامٍ من القلب للنائب اللبنــانيّ الأرمنيّ هاغوب بقرادونيان في الكرى المئويّة الأولى للإبــادة الأرمنيّة ما يعزّز هذا التوجّه: «إننا ببســاطة نعيــش في زمن مجهول، زمن انكار الجرائم وعدم معاقبتها، زمن الظلم والظلام، زمن القهر والاســتبداد، زمن الكذب والتكاذب، زمن الصمــت المريب والرهيب. وفي هذه الازمنة الرديئة يأتي الارمني في كل اصقاع العالم ليتذكر لا بل ليذكر الجميع بأن القضية الارمنية قضية حية تعيش، لان وراءها شعب يناضل ويكافح.»[2].

(1) الاعتراف بإبادة الأرمن.. ماذا يعني قرار بايدن التاريخي؟، ســكاي نيوز عربية – أبو ظبي، 24 نيسان 2021.

(2) ندوة في كلية الحقــوق 2 في ذكرى الابادة الارمنية بقرادونيان: نطالــب تركيا بالاعتراف والاعتذار والتعويض واعادة الاراضي، منشورات الجامعة اللبنانية الإلكترونية، 22 نيسان 2015.

محاربة التطبيع

سعاده عبد الرحيم - كاتب

التطبيع هــو العمل لجعل الواقع غير الطبيعي مقبولاً كالواقع الطبيعي وجعل التعامل معــه كأنه واقع طبيعي ولا يمكــن الوصول إلى هذا الوضــع إلا بالتدخل بالقسر وذلك بإســتخدام كل الممكنات كالقوة القاهرة والقوة الإقتصادية والقوة الناعمة القوة الثقافية والدين منها ... وهذا ماحصل مثلاً في الشــمال السوري، الأراضي السورية التي فرضت تركيا اليوم سيادتها عليها سابقاً نتعامل معها الآن وكأن السيادة التركية عليها أمراً طبيعاً.

اليوم مجلس الشعب الشامي أدان المذابح التركية للأرمن وشارك في إحياء هذه الذكرى، وصدرت بيانات بهذا الخصوص، مع أن الأتراك قاموا في نفس الفترة بمذابح في الأراضي الســورية الواقعة تحت الســيادة التركية اليوم، وكانت أعداد الذين ذبحوا تزيد عن عدد الأرمن الذين ذبحوا ومجلس الشعب الشامي لا يذكر شيئاً بهذا الخصوص ولا بإغتصاب الأرض، والسبب في ذلك التطبيع قيامه على العصبية الدينية المذهبية .

وزير خارجية الشام «ســورية» جميل مردم بك بعد ضم لواء إسكندرون الى الأراضي التركية إضافة الى الأراضي التي فرضت تركيا ســيادتها عليها ســابقاً، علق بها معناه أنه لم يحصل أمر يســتحق الذكر، فاللواء كان خاضع للسيادة السورية،وأصبح خاضع للسيادة التركية، ولا فرق بيننا نحن سوياً مسلمون .

وهذا ما جعل الأتراك يرون أن إســتيلائهم على أراضي جديدة من سورية أمراً سهلاً مقبولاً ويحتاج الى جهود.

هناك تطبيع آخر مماثل في عدم إشتراك الحزب الشيوعي السوري في جيش الإنقاذ، ولا

في الإحتجاج على الاتحاد السـوفياتي الذي كان أول دولة تعـترف بإسرائيل، وفي ترحيبه بقرار التقسـيم على قاعدة أن اليهود الذين دخلوا فلسـطين هم من أبنـاء الطبقة العاملة والشيوعية تقول: «ياعمال العالم اتحدوا».

لم يسـألوا أنفسهم يوماً أين سيعمل العمال (العمال السوريين الفلسطينين) في أي أرض نعمل إذا فقدنا الأرض.

هل سـيأتي التطبيع الجاري حالياً مع الهجـرة اليهودية الإسـتيطانية الخطرة التي أخذت فلسطين وأراضي سورية أخرى بنتائج كالنتائج التي قامت في شمال سورية مع الأتراك ونرضى بإقتلاعنا من أرضنا ونتعامل مع هذا الكيان الأستيطاني بشكل طبيعي وكأن شيئاً لم يكن.

لمحاربة التطبيع مع العدو الاستعماري الاستيطاني الذي سلبنا جنوب سورية لا بد لنا من:

1- فصل صراعنا القومي مع اليهود عن الدين.

2- يجب النظر الى الهوية الاجتماعية القومية بعيداً عن التعصب الديني العرقي واللغوي والنظر اليها على أساس علم الإجتماع.

1. فصل الصراع مع اليهود عن المسألة الدينية للأسباب التالية :

اليهودية موجودة قبل المسـيحية وقبل الإسلام، والدينان اللذان يؤمن بهما السوريون يقولان كل أنبياء التوراة أنبياء لنا وكل القصص الواردة بخصوص الأنبياء وكل ماورد بما يتعلق بما وراء المادة (قصة الخلق) والقصص المرتبطة بها (الطوفان) مثلاً يتبنيانها مع إقرار بأسبقية اليهود دينياً وتاريخياً في أرضنا وهذا إقرار بحقهم فيها.

تقول المدرسـة التاريخية الدينية أن سكان المنطقة سـاميون أي من أولاد سام بن نوح واليهود ساميون ومن لايقول بأحقيتهم بأرض فلسطين معادي للسامية.

أكدت الكشـوفات الأثريـة العديدة بطلان هـذا التصور، ومع هـذا فإن أصحاب الاتجاهات الدينية ((اليهودية، المسيحية، الإسلامية)) والعربية يصرون على حقيقة وجود نوح وإبنه سام، وأن أهل المنطقة ساميون والعرب أبناء إسماعيل بن إبراهيم، واليهود أبناء

اسحاق بن إبراهيم فهم أبناء عم، وعلى هذا يكون لأبناء اسحاق (اليهود) نصف الأرض العربية على الأقل.

ولقد بنى اليهود العديد من المشاريع لتأكيد حقهم بأرضنا على الأساس الديني والتاريخي وآخر مشروع مدعوم من الغرب وهو أن الأديان الثلاث اليهودية، المسيحية، والإسلام من أرومة واحدة هـي الديانة الإبراهيمية، وعليه يجب البحث عن المشـترك فيما بينهما لإعادة إقامة الدعوة الإبراهيمية لنتبناها، وبذلك يتحقيق السلام والوئام الذي هو غرض الديانات الثلاث، وبهذا المشروع يتم تكريس التطبيع من خلال توجيه الشـعور الديني بقبول اليهود فيما بيننا، هذا الاتجاه الذي يلقى قبولا لوجود أرضية له من خلال اعتماد الدينين المسـيحي والإسلامي الإرث التوراتي الديني والتاريخي ولغياب الوعي القومي.

قام البابا الحالي بدور أساسي في هذا المشروع عندما ربط زيارته للعراق بزيارة لما يسمى قـبر ابراهيم الخليل في أور السـومرية، رغم أن قصة إبراهيم التوراتيـة تقول أنه إبن أور كلدان وتقول إنه مات ودفن في منطقة تدعى بئر لَحَى رؤي من فلسطين.

أور السومرية قامت قبل الكلدان بمدة زمنية طويلة وانسجاماً مع النص التوراتي كان على البابا زيارة أور الكلدانية التي ولد ونشأ فيها.

إن الغرض من هذا المشروع تأصيل الوجود اليهودي في الهلال الخصيب منذ قيام أولى حضاراته من العراق الى فلسطين وأنهم أبناء هذه البيئة ولهم حق فيها لأنهم من أبنائها رغم أن كتابات العديد من مؤرخيهـم يؤكدون حقيقة تاريخية تقول أن قصص التوراة قصص مختلقة وأنهم لا يمتون بصلة لهذه المنطقة.

المدخل للتطبيع هنا هو الدين والقصـص الدينية التي لا وجود أثري يؤكد حصولها، لكن الاستثمار في الشعور الديني أمر سهل.

إن خلط الدين بالسياسـة حولنا الى قبائل دينية متصارعة متناحرة بسبب قضايا تتعلق بما وراء المـادة، قامت بيننا صراعات لاتنتهي لربطها بما وراء المادة وأدت هذه الصراعات الى فقداننا الأرض.

ومن النتائج السياسية لربط الدين بالسياسة أن شعبنا وضع ثقته وقضيته بيد رجال يحوزون على مكانة دينية هامة كالشريف حسين الذي منح اليهود فلسطين على أساس أنهم أبناء عمه اسحاق (العرب وبني هاشم من نسل إسماعيل)، وعلى أن بلاد المسلمين واسعة ولا يضيرهم التنازل عن فلسطين لأبناء عمه اسحاق.

ايضاً عبد العزيز آل سعود حاز على مكانة دينية لتبنيه المذهب الوهابي الرافع لواء العودة الى الإسلام الصحيح منح اليهود فلسطين.

أيضاً الأخوان المسلمون اليوم يسعون لوضع قضية فلسطين بيد أردوغان صديق دولة إسرائيل وحليفها.

أيضاً الحرب التي قامت على مجتمعنا باسم الربيع العربي كان أحد أهم عوامل جمع شتات التكفيريين من العالم لمحاربتنا، وذلك لهدم مجتمعنا وقد لاقى هذا الأمر قبولاً وارتياحاً من أوساط واسعة في المجتمعات التي تدين بالإسلام وسورية من هذه المجتمعات.

الخلاصة: فصل صراعنا القومي مع اليهود عن الدين ضرورة لإغلاق الباب الذي فتحه هذا الربط للتطبيع وولد انقسامنا اجتماعياً وسياسياً في المجتمع.

إن إعتماد الدين في تحديد الهوية الإجتماعية السياسية منافي للقومية عموماً لأن الدين متجاوز للقوميات ومنافي بشكل خاص للقومية السورية لأن السوريين متعددي الأديان فيؤدي اعتماد الدين الى تمزيق سورية والى إيجاد مدخل للتطبيع مع السوريين قبل غيرهم مثال على ذلك التطبيع الذي قام ويقوم مع بعض أبناء الطائفة المارونية في لبنان مع إسرائيل.

2. يجب النظر الى الهوية الاجتماعية القومية بعيداًعن التعصب الديني العرقي واللغوي والنظر اليها على أساس علم الاجتماع .

الحركة الصهيونية في حركتها القومية تعتمد التعصب الديني والعرقي واللغوي في قيامها ونفس هذه الأسس معتمدة من قبل حركات سياسية كثيرة في الهلال الخصيب

والعالم العـــربي والمنطقة وهذا يحول تاريخ الأمة الســـورية الى تاريخ قبائل غير مســـتقرة جوهرها الباس، هذه العوامل لباســـاً قومياً علماً أن الدعـــوة القومية العربية هي تعصب للديـــن العربي وللغة هـــذا الدين وللجماعة التـــي ينتمي إليها نبي هـــذا الدين وصحابته ورد فعل عليها قامـــت القومية اللبنانية التي اخترعت الأصـــول الفينيقية للبنانيين وعلى مسيحيتهم والى الدعوة الى اللغة المحكية بدل اللغة العربية الفصحى.

وعلى نفس الأســـس قامت الدعوة القومية الكردية رداً عـــلى الطابع العرقي للدعوة العربية والتركية وكل هذه الحركات تمزق المجتمع السوري والوطن السوري.

1- التعصب الديني

لقد تعرضنا لهذا الموضوع ونكتفي بما عرض من هذا المجال.

2- التعصب العرقي

النظرية العرقية الأولى تقول:

العرب قبل الاســـلام كانوا في الجزيرة العربية وبعد الإســـلام قامـــوا بالفتوح العربية الإســـلامية، وامتدوا من المحيط الى الخليج وأن الشـــعوب التي كانت تقطن هذه المنطقة بادت واندثرت مثل الســـومريين والأكاديين والكلدان والأشوريين والكنعانيين والحثيين والأموريين والأراميين والسريـــان والميتانيين وبقيَّ العرب وهـــم موجودون بها كأمة لا تموت مثلها مثل الأمة الصينية.

هذه النظرة أخرجت الســـوريين الذين لا يتكلمون العربية من نطاق المجتمع السوري واعتبرتهم غرباء وهذا تسبب بهجرة كثير من الناطقين بالسريانية والى عداوة مع الناطقيين بالكردية وأقام صعوبة في قبول الجاليات التي اســـتقرت في سورية حديثاً من الاندماج في المجتمع السوري كالأرمن والشيشان والشركس والداغستان والقبائل العربية التي قدمت سورية حديثاً.

هذه النظرة العرقية التي وضعت الصعوبات في وحدة المجتمع الســـوري لا تســـتطيع

وقف التطبيع مع اليهـــود الذين يقولون أنهم عاصروا الكنعانيين والحثيين والأشـــوريين ولم يبـــادوا أو يندثروا ولهم الحق في هـــذه الأرض أكثر من العرب وأنهم حالياً يعودون الى أرضهم ووطنهم.

يشترك من يقول بأن الســـومريين والأكاديين والكنعانيين والحثيين بادوا واندثروا مع ماتقوله التوراة أن يهوه دفع هذه الشعوب أمامهم وأعطاهم أرضهم.

العقلية العربية التي تعتمد على الأنساب والتي أقامت للنبي محمد / ص/ نسباً يعود الى إبراهيم الخليل من خلال إبنه اســـماعيل من الجارية هاجر فاصبح العرب أبناء عم لليهود أبناء اســـحاق إبن إبراهيم من ســـارة، وبذلك تكون النظرية العرقية قدمت خدمة كبيرة لليهود ولادعائهم بحقهم في أرضنا.

ثـــم جائت النظرية التاريخيـــة الأوربية التي تعتمد التوراة كحقيقـــة تاريخية وقالت أن شـــعوب الهلال الخصيب والجزيرة العربية ساميون (أبناء ســـام ابن نوح)، وبذلك يكون اليهود جزءاً من نسيجنا الاجتماعي تاريخياً.

هذه النظرية لا تزال فاعلة لدى كثيرين من مؤرخي الغرب الموالين للحركة الصهيونية ويتمســـك بها المؤرخون المسلمون والمســـيحيون والعرب لقدســـية النص الديني لديهم الـــذي يطابق النص التوراتي وهـــذا يقدم مدخلاً آخر للتطبيع ولقبـــول أبناء أمتنا بوجود اليهود كجزء من نســـيجنا الاجتماعي الســـياسي وهم يلوون الحقائق التاريخية القائمة على الكشوفات الأثرية لتطابق النص الديني.

التعصب اللغوي:

تلعب اللغة العربية لدى أصحاب الدعوة العربية قدراً كبيراً من الأهمية فهي لغة كتاب الله القرآن الكريم ويعتبرونها أساســـاً في الشـــأن القومي ويســـتندون الى حديث منسوب لرسول الله محمد يقول (من تكلم العربية فهو عربي).

يذهـــب أصحاب الدعوة العربيـــة والمتعصبون للغة الدين العـــربي الى القول أن اللغة

العربية جائـــت بالفطرة كاملة غنية بمفرداتها وقواعدهـــا ومصطلحاتها وأن أبناء الجزيرة العربية بالفطرة كانوا يتكلمون الفصحى بخلاف كل اللغات الأخرى التي نمت وتقدمت بتقدم حياة الشعوب الناطقة بها وهذا مخالف للواقع والعقل.

ساعد على ترســيخ هذا الاتجاه ظهور نظرية أوربية تقول أن الكشوف الأثرية أبطلت الأصل الواحد من الجد ســام بن نوح لشــعوب الهلال الخصيب والجزيرة العربية ولكن لغاتهم القديمة متقاربــة وبالتالي يمكن اعتبارها من أرومة واحدة هي الأرومة الســامية وعلى هذا الأساس ظهرت النظرية العربية التي تقوم على التعصب اللغوي بحلتها الجديدة فقالوا أن كل الشــعوب السامية لغوياً مصدرها الجزيرة العربية وهم أغلب الشعوب التي اســتقرت في الهلال الخصيب وصنعت حضارته وبهذا يكونوا قد دمجوا التعصب العرقي مع التعصب اللغوي وتابعوا أن الفتوحات العربية الإســلامية هي استمرار وجود العربي على هذه الأرض، صحيح أن العرب قامت بعض قبائلهم في الهلال الخصيب قبل الإسلام لكنهــم لم يبنوا حضــارة عربية فيه ولا في الجزيرة العربية (خــلاف اليمن) التي قامت بها حضارة.

الأطروحة الجديدة هذه حسب رأيهم أقامت مصالحة بين دعوتهم العرقية العربية ومع الكشــوف الأثرية التي لم يعد بالإمكان تجاهلها كما أقامــت مصالحة بين دعوتهم العرقية اللغويــة ومع تاريخ بلادنا وهــذا لا يتم إلا بتجاهل أن المجتمع الســوري تركيبته مزيج سلالي لا يقتصر على القادمين من الجزيرة العربية وأن سورية لم تكن خالية من السكان قبل هجــرة قبائل الجزيرة العربية اليها وأن مجتمع الجزيرة العربية ليس من ســلالة واحدة هي ســلالة يعرب بن قحطان الوهمية بل هم مزيج سلالي أيضاً، اللغة كائن حي يقوى وينمو ويشكل حضوراً مميزاً في حال كان الشعب الناطق بها منتج حضارياً وتذوب وتضمحل في حال توقف الشعب الناطق بها عن الإنتاج الحضاري الفاعل.

بدأت في العــالم الكتابة باللغة الســومرية وقد طورها ونشرهــا الأكاديون في أرجاء الهلال الخصيب والعالم القديم وأصبحت بلهجاتهــا هي اللغة التي يتكلم بها أهل الهلال

الخصيـــب، وقام الأراميون بنشر لغتهم التي هي أحد الهجات الأكادية في الهلال الخصيب والعالم وأصبحت لغة التجارة الدولية في ذلك العصر لكن ايضاً تفرعت من لهجاتها لغات جديدة مثل العربية، السريانية، العبرية.

منح السوريون لغتهم وحرفهم الى شعوب عده ولا يجوز إعتبار الشعوب التي أخذت اللغة الســورية ســوريين ولا يمكن اعتبارنا عرباً لأخذنا اللغة العربية لغة لنا بعد الفتح العربي الأســلامي، كما لايمكن إعتبار السوريين الناطقين باليونانية يوناناً لأخذ السوريين اللغة اليونانية في الفترة السلوقية وللرومانية والبيزنطية ولا يزال سوريي قبرص يتكلمون اليونانية ولا يمكن اعتبار الســوريين في ســفوح طوروس أمة مســتقلة لأنهم يتكلمون الكردية.

ســؤال أحب أن أطرحه ولو جاء معترضاً على البحث هل أبناء الدولة البيزنطية اليوم يســتطيعون قراءة النص الذي كتبه شكسبير باللهجة البريطانية التي كانت قائمة حينها في بريطانيــا مثال آخر (في الهند يتكلمون اللغة الأنكليزية هل يحق لهم أخذ جزء من الأراضي البريطانية).

اللغــة العبرية هي إحدى اللهجــات الأرامية التي أخذها اليهود بعد اســتقرارهم في فلسطين على يد آخر أمبراطور أخميني (دارا) الذي قتل على يد الإسكندر المقدوني.

إن العصبية العرقية اللغوية تســمح للتطبيع مع الســوريين بالانتشــار وبقبول اليهود كجزء من النسيج البشري على أرضنا وحجتهم أن اليهود ساميين لغةً وعرقاً.

الهوية القومية حقيقة تقوم على أساس الإشتراك في الحياة اشتراكاً فعلياً في بيئة جغرافية مميزة ومحددة عبر التاريخ على قاعدة لاحياة بدون أرض ولا أمة بدون بيئة.

الســوريين هم في بيئتهم الجغرافية (ســوريا الطبيعية) مزيج ســلالي من الســلالات المتوســطية والآرية والهندو أوربية وليســوا من ســلالة (ســام أو قحطان) الشخصيتان الوهميتان ولا من ســلالة الفينيقين أو الســومريين أو الأشــوريين أو العرب بل تجري في عروقهــم دماء ممن ذكرناهم من الأقوام ومن أقوام لم نذكرهم وأن هذه الدماء موجودة في

عروق أي سوري ولو بنسب مختلفة وهذه الحياة التي أمنتها البيئة السورية ومزجت كل هذه الأقوام التي حلت بها وجعلتها أمة واحدة التي نشكل اليوم جيلها الحاضر.

اليهود رفضوا الامتزاج بالمجتمع السوري، وأدى هذا الى رفض السوريون لهم، وهناك وقائع تاريخية كثيرة تدل على ذلك، وأدى الى صدامهم مع سلطات المجتمع السوري أو مع السلطات الأجنبية التي فرضت سيادتها على سورية وكانت النتيجة تشتتهم في بقاع العالم حيث رفضوا الاندماج مع المجتمعات التي حلوا فيها فأنشاؤوا الغيتوتات التي تحميهم من الاندماج فتحولوا الى غيتو وكنيس.

يهود اليوم لا علاقة دموية تربطهم باليهود الذين تذكرهم التوراة، بل علاقتهم الدموية مع الشعوب المقيمين بين ظهرانيها والبلدان التي قدموا منها الى فلسطين وأغلب اليهود اليوم أصلهم من يهود الخزر (بحر قزوين بحر الخزر)، لذلك لا حق تاريخي ولا عرقي ولا ديني ولا لغوي في أرض الجنوب السوري فلسطين.

أعود لأذكر القاعدة العلمية لا حياة بدون أرض ولا أمة بدون بيئة اليهود كنيس وغيتو ليسوا شعباً واحداً ولم يجتمعوا على أرض واحدة في بيئة عبر التاريخ ليكونوا أمة، كل الدعوات التي تقوم على الدين واللغة والعرق دون البيئة تشكل قوميات وهمية ويشترك بذلك القومية اليهودية التي أقامتها الحركة الصهيونية على هذا الأساس ويشمل ذلك الدعوة العربية حيث أنها لم تحدد البيئة التي تقوم عليها وبين فترة وأخرى نرى انضمام دولة جديدة الى الجامعة العربية لم تكن محسوبة من الوطن العربي الذي يدعون وجوده.

الأسس التي قامت عليها هذه الدعوات الوهمية تفتح مجالاً واسعاً للتطبيع مع دولة اليهود إسرائيل إن أعتمد العرق واللغة والدين بشكل منفرد أو عليها مجتمعه أساساً لقوميتهم كما إنها تسمح للأمم الأخرى التي تشاركنا في إعتماد العرق واللغة والدين أو إحداها بالتدخل في شؤوننا بأسم هذا الإشتراك بالهوية.

إن التطبيع مع اليهود يشابه الى حد كبير زرع جسم غريب في الجسم البشري وإعطاء جرعات لتثبيط رفض الجسم الأنساني للجسم الغريب.

عندما تزرع كلية لأنســان بدل كليته يشترط أن يكون نســيج الكلية المزروعة مطابق بشكل كبير لنسيج جسم الأنسان الذي تزرع الكلية فيه ومع ذلك يضطر الأطباء الى إعطاء المريض الذي زرع الكلية مثبطات للمناعة كي لا يقتل جسم المريض الكلية المزروعة، واذا كانت الكلية المزروعة لا تطابق نسيجياً جسم الأنسان المزروعة فيه فإن الجسم مهما كانت المثبطات للمناعة يقتل الكلية.

اليهود جسم غريب عن أمتنا ونسيجنا الإجتماعي لذلك سيستمر رفض الأمة السورية لهذا الجســم الغريب مهما كانت مثبطات المناعة التي تعطى للسوريين من خلال المشاريع السياســية والثقافية ومهما كانت مشــاريع التطبيع دقيقة ومدروسة ولكن أقوى المثبطات التي تفرضها من خلال الدين والعرق واللغة لن تنجح لأن مصلحة الحياه أقوى.

وعي الســوريين القوميين لهذه الحقيقــة دعتهم في فترة الدعوة للســلام مع إسرائيل وبحث المســألة اليهودية الفلسطينية على أســاس الحدود الى رفع شعار «حرب وجود لا حرب حدود» وأننا حتماً سندخل الى الحرب مجدداً مادام هذا الجسم الغريب موجوداً.

أن مسألة فلسطين مسألة سورية تخص كل سوري أينما كان وعلى من يشارك السوريين أخاءاً في الرابطة العروبية أو الدينية أو الإنسانية مساندة السوريين في الأنتصار على النكبة التي أصابتهم منذ سبعون عاماً بالهجمة الأســتعمارية الأستيطانية اليهودية والمستمره الى اليوم وهذا واجب عربياً ودينياً وإنسانياً.

محاربة التطبيع على أساس أن فلسطين جزء من الوطن السوري ومن الأمة السورية هو الأساس الصحيح لمحاربة التطبيع وكل ماعداه باطل لا نتيجة عملية له.

مؤتمر فكر أنطون سعاده بين الماضي والحاضر

بيروت / 14 حزيران 2023/

الفكر المدني وأنطون سعاده

مداخلة الدكتورة ليليان قربان عقل

صباح الخير،

تُختَتَمُ مسؤوليةُ الإنتداءِ حول الفكر المدني وانطون سعاده أن نقفَ تهيّباً أمام قامةٍ فكريّةٍ، قيل فيها الكثير وكُتِبَت حولها دراسات ومقالات غنيّة المضامين متشعّبة المواضيع وعديدة التناولات! وإنّي من هذا المقام الفكري الشديد الوفاء لأنطون سعاده، عقيدةً وفكراً وإنتصاراً لمبادئ، أراني منحازة للقول إنّ هذا المؤتمر بمحاوِره الثلاثة والمداخلات السبعة التي تنتظمُ أعمالَهُ، يشكّلُ إطلالةً جديدةً تستنزفُ فكر سعاده وطروحاتِه، وتحاولُ مقاربةَ فلسفتِه العقيدية، وتفسيراتِها وتحدّيات تطبيقها على واقعِنا المُعاش، بل الذي تقاسيه مجتمعاتُنا بتعدّديّتِها المجتمعيّة وتوزّعاتِها الطائفيّة والمذهبيّة، القاتلة للتقدّمِ والمانعةِ للعصرنة والتي تحولُ دون أي تحديثٍ أو تطويرٍ مأمول.

يفرضُ موضوعُ مداخلتي، التمييز بين فكر انطون سعاده في تقديمِه لمعنى (الحياة المدنية)، وإمكانيّة فهمه وتطبيقه في مجتمعٍ كَثُرت فيه الانتماءات وتعدّدت الالتزامات وقلّت فيه المواطنة وندر فيه الحسُّ المجتمعي وخفّ الشعورُ القومي.

وإذا كانت أكثر التحدّيات بروزاً في تقديمِ وشرح مفهومي (الفكر المدني) و(الدولة المدنيّة) هيَ إشكاليّة الإجماع حول هذين المفهومين في مجتمعٍ قلقٍ ودائم التشظّي، فإنّ مسؤولية هذا اللقاء المشكورة عليه اللجنة التنظيميّة، هي أن نحرّكَ البحثَ من جديد حول المصطلحات المفهوميّة لفكر سعاده ونعمل على شرحِها وتفسيرِها والتعريفِ بدلالاتِها،

منعاً لأيّ تأويل أو إســاءة تفســير. فنكون بذلك إعتمدنا قاعدة ثلاثيّة أركانها أن نستفهم لنَفهم ونُفهم...!

لعلّ ما تُفضي إليه هذه المطارحات، يؤكّد على ثابتةٍ فكريّةٍ وثقافيّةٍ واجتماعيّةٍ وسياســيّةٍ هي أن ســعاده لم يُدرس كفاية بعــد، ولم يَتمّ تناولُ فكرِه مــن كلّ جوانبِه من قبل باحثين ملتزمين ولا غير حزبيين.

فَضْلُ هذا المؤتمر أنّه سيعيدُ ضبطَ إبرة البوصلة الفكريّة نحو طروحات سعاده وبحث أطر شرحها وإمكانيّــة إعتمادِها وتطبيقِها في مجتمعاتٍ لا تــزال تترجّح بين تبعيّة التراث الديني والتوفيق مع الحداثة والعصرنة وصعوبات التحوّل من مجتمعاتٍ إنغلاقيّة إلى مجتمعٍ انفتاحي، بحيث لا نكون أمّةً بأوطانٍ كثيرة وبشعوبٍ متنوّعة...!

المعضّلة الأكثــر اعتراضاً على طروحاتِ الفكر المدني، تركّز أساســاً على وجودِ جدلٍ دائــمٍ بين المرجعيّات الدينيّة وبين المجتمع المدني العلماني، على مســتوى إفتعالٍ موسِــمي للمناظــرات والجدالات من دون التوصّل إلى مفاهيمَ محدّدةٍ حول أهداف (الفكر المدني)، الذي تعثّــر المجتمعُ المثقّف في إطلاق مبادرات جادّة تكون قــادرة على تجاوزِ العصبيّات الدينيّة وتســعى إلى بناءِ جســورِ تعاونٍ وتفاهمٍ بين الســلطةِ المســتقويةِ بواقعِها التمثيلي للطوائــف وبين أصحــابِ الفكرِ والرأي الحــرّ الرافض للتبعيّة والســاعي إلى العصرنة الفكريّة من دون الانســلاخ عن الواقع السّــياسي اللّبناني، بحيث لا يكون (تكفير) ولا يقابله إتهامات بالتعصّبِ ولا نقاشاتٍ ســلبيّةٍ بين جماعاتٍ لا تتحاور أصلاً ولا قابليّة لها للتفسير والتواصل.

إنّ الحديثَ عن الفكر المدني كأســاس لنشوء المجتمع المدني بسياقِهِ النظري الذي يمهّدُ للممارسةِ الديمقراطيةِ، لا يزال القضية المحوريّة في حياتِنا السياسيّة والاجتماعيّة والثقافيّة العصرية.

لقد ســاهمت مدارسُ فكريّةٌ غربية عديدة في صياغةِ مفهومِ المجتمع المدني ومن أهمِّها مدرسةُ العقد الإجتماعي وهيغل والمدرسة الماركسيّة وخصوصاً المفكّر الإيطالي غرامشي.

وربّما كان من الصعب الإحاطة بمســـاهماتِ كلّ المدارس في إطار بحث واحد لكن لا بدّ من الإشـــارة إلى أنّ هناك عدّة مساهمات في تحديد هذا المفهوم وليس فقط كونُه سلاحاً في يدّ الحركات الليبراليّة الهادفة إلى الحدِّ من الســـلطة الإقطاعيّة والتأكيد على أهميّة الدّولة في تحقيق العدالة داخلَ المجتمع.

علماً أن انطون ســـعاده يتجـــاوز ويتميّز عـــن الليبرالية في تأكيدِه عـــلى مفهوم العدل الإجتماعي والإقتصادي والقضائي والحياة الكريمة لكلّ المواطنين.

لقد أتْقَنَ انطون ســـعاده الوضوحَ والبرهانَ فكان فكرهُ شـــهادةً على عقلٍ يقرأ الواقعَ ويصف له الـــدواء في مواجهةِ التحدّيات وذلك ضمن مـــشروعٍ نهضوي متكامل يرتقي بالإنســـان في سبيلِ تقدّم المجتمعِ فجعل القضية الســـورية قضيّة قوميّة قائمة بذاتها، نظام هذه الأمّة، الأمّة السّوريّة، يقوم على فصل الدين عن الدولة، منع رجال الدين من التدخّل في الشؤون السياسيّة والقضاء وإزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب.

ما هو مفهوم انطون ســـعاده للدولة القوميّة الإجتماعيّة وكيف شرح أهميّةَ الوصولِ إلى حقوق المواطنة العادلة عندما دعا إلى دينٍ اجتماعي مدني مبنيٍّ على مســـألةِ الأخلاق التي ينبغي أن تكونَ في صميمِ كلّ نظامٍ اجتماعي حيث لكلّ فرد حريّة الإيمان بما يشـــاء دون أن يكون لذلك علاقة بالعقائد الدينيّة الماورائيّة.

من هذا المنطق نوزّع بحثَنا في الفكر المدني وانطون سعاده إلى محاورَ ثلاثة:

1. أنطون سعاده والدولة القوميّة
2. أنطون سعاده ومفهوم المواطنة العادلة
3. نظرة أنطون سعاده إلى الدينِ في الدولة.

في المحور الأول، نتناول مفهوم ســـعاده للدولة القوميّـــة الإجتماعيّة التي دعا إليها الا وهي دولة الأمّة، لا دولة دينية ولا دولة طائفيّة. إذ يعيد انطون سعاده إلى إستغلال الغرب الإستعماري بمختلف أنظمته للنعراتِ الدينيّة في العالم العربي والإسلامي في دعواتٍ هي

دليل على احتقار الدول الإســتعماريّة الكبرى مدارك الشــعوب التي لا تزال تجهل ما هو الفرق بــين القومي والديني وبين الأمّة والجماعة الدينيّة وبين السياســة والعقائد الدينيّة. (سعاده، الأعمال الكاملة، المجلّد السادس 1942 – 1943، 2001، الصفحات 40 – 47)

يقول سعاده في دراسته لنشوء الأمم:

مــا يبرّر وجودُ القوميّة هو اقرار أن الســيادة مســتمدّة من الشــعب، هــذا هو المبدأ الديمقراطــي الذي تقوم عليه القوميّة، فالدّولة الديمقراطيّة هي دولة قوميّة حتماً، فهي لا تقوم على معتقدات خارجيّة أو إرادة وهميّة بل على إرادة ناتجة عن الشــعور بالإشتراك في حياة واحدة (د. يوسف كفروني، دراســة بعنوان معوّقات النهوض وبناء الدولة القوميّة الديمقراطيّة)

فيشــترط سعاده أن تكونَ كلّ عَلاقة لأيّ دولةٍ أجنبيةٍ معنا قائمة على أساسِ الإعتراف بسيادتِنا القوميّة.

والدولة القوميّة هي الدولةُ المدنيّةُ التي تحدّد شروطَ ومؤهّلاتِ من يَحُقُّ لهم الترشّــح للمواقع السياسيّة والقضائيّة فيها.

في المحورِ الثاني، انطون ســعاده ومفهوم المواطنة العادلة، نشــير إلى الربطِ بين المواطنة والدولــة القوميّة الديمقراطية بمفهومِها حماية الحقــوق الأصليّة الطبيعيّة فلكلّ فردٍ الحقّ بالحياة والحريّة والإختيار والتعبير...

إذ يؤكّد ســعاده في مقدّمِة كتابه نشوء الأمم على ظاهرة الوجدان القومي الذي يشكّل الأســاس في ثقافة المواطنة ويشــدّد على محاربةِ النزعة الفردية التي تمثّل التهديدَ الأخطرَ لوحدة المجتمع ويشدّدُ على أهميّة تغليب المصلحة العامّة على المصلحة الخاصّة.

يقول «لا حل لمشــاكل ســوريّة الدينيّة والإجتماعيّة غير حل القوميّة الاجتماعيّة التي تفرض إنشــاء كَيان يكون فيه جميــع أبناء الأمّة أحراراً في الحقوق والواجبات (ســعاده، الأعمال الكاملة 6، 2001، ص 167).

إنّ طــرحَ انطون ســعاده للدولة القوميّة، دولة الأمّة الســوريّة هي النظام السّــياسي والحقوقي الأفضل الذي يرسّخ الفكر المدني على أسسٍ عادلةٍ يعبّرُ عن إرادةِ المواطنين ولا يميّز بينهم على أساس الإنتماء الديني أو الطائفي أو الجندري، فهو أول من أعطى المساواة بين المرأة والرجل.

«إنّ المواطنية تحدّدُ علاقات الفرد بالدولة بشكلٍ رئيسي والهوية المدنيّة مُصانة بالحقوق التي تســبغها الدولة وبالواجبات التي يؤدّيها المواطنون. إنّ أفكار الإستقلاليّة والمساواة والمشاركة المدنيّة في شؤون الدولة، تصنع المواطنيّة نظريّاً، بمعزل عن الأشكال الإقطاعيّة والإستبداديّة للهوية الإجتماعيّة – الهوية التي أصبحت مرتبطة بشكلٍ وثيقٍ بالمواطنيّة هي الهويّة القوميّة» (منيش، 2010، ص 14)

وقد شــغَلَ موضوعُ الدين حيّزاً كبيراً في أعمالِ ســعاده نختصره في المحورِ الثالث لهذا البحث، بـ نظرة سعاده إلى الدين في الدولة.

في نظرةِ سعاده إلى العَلاقة بين الدين والدولة يدعو إلى فصل الدين عن الدولة مشيراً إلى أن التعصّب الديني هو الذي جَلَب الويلات إلى الأمّة السوريّة ووقف عائقاً دون نهضتها وإن كان في هــذا الإطار من فصل بــين البعد الروحي للأديان التي ترقى بالإنســانِ قيماً وأخلاقاً وإدارة الدولة فمنع رجالَ الدين من التدخّلِ في شؤون الحكم وإدارته، فيقول «لا دين في الوطنية، إن الأديان في المعابد والعبادة بين الإنســان وربّه أمّا الوطن فهو للجميع» (سعاده، الأعمال الكاملة 3، 2001، ص 316).

إنّ فكرة الأمّة هي الفكرةُ المركزيةُ عند سعاده ومبادِؤها الإصلاحيّة هي في إقامة دولتها العلمانية العلمية ذات النظام الواحد الذي يتســاوى فيــه المواطنون والمواطِنات بالحقوق والواجبات.

كل ذلك يختصرُ نظرةَ سعاده للدولة الحديثة ذات أساسٍ إجتماعيٍ اسمُه المجتمع المدني.

وإن كان أنطون ســعاده لم يســتخدم مصطلــح «المجتمع المــدني» في كتاباتِه، لكن في إســتخلاصِنا من أفكار ســعاده الأساســيّة وجدنا ما يجعلها قريبة منه، فتصوّر ســعاده

للمجتمع القومي الأســاسي هو المجتمــع الجديد أي الأمّة الواعية التي تهاجمُ المفاســدَ الإجتماعيّــة والدينيّة والإثنيّة والعشــائريّة والسياســيّة والنزاعــات الفرديّة، والإقطاع والعقليّات المتحجّرة.

ومــا أحوجَنا اليوم بالــذات إلى تطبيقِ هذا الفكــر العظيم في مجتمعاتِنــا التي تعيشُ أزماتٍ جمّة تتفاقَمُ يوميّاً وتكاد تقضي على ما تبقّى من «الأمّة الســوريّة»، فهل يمكننا اليوم الإنطلاق من فكر أنطون ســعاده كإطار فكري عام لتنظيمِ المواطنة على الأرض الواحدة لأعضاءٍ يشــتركون في الحياة فيها، ليكونوا مواطنين بالفعــل وأعضاء من المجتمع المدني والدولة المدنيّــة القائمة على حماية حقوق المواطنين بالعيــش بكرامة وحريّة، وذلك بنشر الوعي الإجتماعي والقومي للخروج من الــولاءات والعصبيّات الجُزئيّة إلى الانتماء العام الجامع ضمن خطّة ثقافيّة اجتماعيّة تصبُّ في الحياة السياسيّة العامّة على مختلفِ المستوياتِ والتي أضحت شرطاً وجوديّاً أساسيّاً اليوم لبقائنا كما أشار الأستاذ يوسف الأشقر.

إنّ التحــدّي الكبير الذي نعيشُــه اليوم هو في أن ننقلَ هذا الفكــر في حركتِه العظيمة بمكوّناتِها الوجوديّة إلى الممارسة المنتظمة التي تتناسبُ مع حاجةِ مجتمعاتِنا اليوم إنطلاقاً من وعي أفرادها لضرورة الخروج من هذا الدرك الثقافي والحضاري بالإســتفادةِ من خلاصةِ هذا الفكر العظيم الذي خاطبَ أجيالاً كانــت لم تولد بعد، هي أجيالنا اليوم التي تتخبّطُ بأزماتٍ إقتصاديّةٍ وثقافيّةٍ وإجتماعيّةٍ وهي بحاجة أن تعيشَ مفهومَ المواطنة التي تضمن لها قيمَ الحقّ والخير والجمال...

علمانية سلطان الأطرش، أنطون سعاده، وميشيل عفلق وطريق تحقيق العلمانية في بلادنا

د. ريم منصور الأطرش – باحثة وكاتبة

المقدمة

حرية المعتقد تُناقِض الإكــراه في الدين أو في الأيديولوجيا؛ ومســاواة الحقوق تتنافى مع إعطاء قيمة مميّزة لأي عقيدة. فالســلطة مشــتركة للجميع، وعليها اتّخاذ الحياد، أمام العقائد، مبدأً لها. تتطلّب مساواة الحقوق إجراءات عادلة باتّخاذ القرارات على المستويات القانونيــة، للتأكيد على حيادية الدولة. هذا تعريــف أوّليّ للعَلمانية[1]. ويمكنها التحقّق في فضاء ديمقراطي.

نَصَّ قانــون العَلمانية الفرنــسي (1905)، على أن: «الجمهورية تحمــي حرية المعتقد، وتضمن الممارسةَ الحرّة للعبادات بما فيها الصالح العام»[2].

تتناول هــذه الورقة مقاربة لمفهــوم العَلمانية، اللازمة لتحقيق المواطنة، عند ســلطان الأطرش، وأنطون سعاده وميشيل عفلق، وإمكانية الاستفادة منه اليوم.

العَلمانية عند القائد العام للثورة السورية الكبرى (1925 – 1937)

متمِّماً لطَرْحه في عصر النهضة العربية، رفع سلطان الأطرش شعار «**الدين لله والوطن للجميع**» لتلك الثورة، مؤكّداً على حياديتها أمام الدين، ومعتبِراً الناس سواســية، حقوقاً وواجباتٍ، في «البلاد الشامية»: هذا جوهر المواطنة.

(1) بينا–رويث، هنري، ما هي العَلمانية، ترجمة د. ريم منصور الأطرش، دمشق، دار الأهالي، 2005.

(2) المادة الأولى من قانون العام 1905 في فرنسا، الخاص بفصل الكنيسة عن الدولة.

أول مَنْ أطلق شعار، «**الدين لله والوطن للجميع**»، المعلّم بطرس البستاني، في النصف الثاني للقرن التاسع عشر، ردّاً على مذابح 1860؛ وأطلق «**فصل السياسة عن الرياسة**»، أي «**فصل السياسة عن السُلطة الدينية**»؛ فغاية الدولة دنيوية محضة.[1]

كان ثمة وعي كبير لدى القيادة العامة للثورة، لحساسية المسألة الدينية في بلادنا، فتمّ رفع هذا الشعار لئلّا تُستَغَلّ المسألة الدينية ضد الثورة، وهذا ما حاولتْ فرنسا فعله. وأكّدت بيانات القيادة العامة حيادية الثورة تجاه السوريين بكافة دياناتهم وطوائفهم، ومفهوم المواطنة، بشكل لا لبس فيه[2]. يقول الأطرش في إحدى رسائله إلى شقيقه زيد، نائب القائد العام: «**حافظوا على المسيحيين وإيّاكم أن تجعلوا أحداً يأتيهم بسوء. أمّنوهم على أنفسهم وحياتهم وأموالهم وامنعوا التعدّيات عنهم، لأننا كلّنا أبناء وطن واحد وكلّنا عرب سوريون على حد سواء**»[3].

في القسم الأول لهذا الشعار (**الدين لله**)، حيادية الثورة واضحة على الصعيد الديني، وهي ضمان لعدم التحيّز: فقد احترمت الأديان وأقصت التعصّب. فيستطيع الإنسان التماهي في الوطن، ليجد نفسه متساوياً مع الآخرين مهما تكن معتقداته الروحية؛ فيتحقّق القسم الثاني، (**الوطن للجميع**). يهدف الشعار للتصدّي بالمقاومة الشريفة لتقسيم بلادنا الشامية لدويلات على أساس طائفي ومذهبي، فرضتْه فرنسا «العَلمانية»؛ فجاءت الثورة لتقف بوجه ذلك، بشعارها وبهدفها: **وحدة البلاد السورية، ساحلها وداخلها والاستقلال التام**.

(1) بطرس البستاني رائداً من رواد النهضة العربية، في جريدة العروبة، حمص، العدد: 12230، [2010].

(2) الأطرش، ريم منصور (تحقيق)، المذكرات الحقيقية لِ سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى: وثائق من أوراقه 1910– 1989، خمسة أجزاء، بيروت، دار أبعاد، 2022، الوثيقة رقم 93.

(3) الأطرش، ريم منصور (تحقيق)، المذكرات الحقيقية لِ سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى...، الوثيقة 100 وأيضاً بالمعنى ذاته، الوثيقة 91.

فيي عام 1954، اختار الرئيس هاشـــم الأتاسي الســـيد فارس الخوري رئيساً لمجلس الوزراء. جاء بعض الوطنيين لســـؤال سلطان عن رأيه، فلمح منهم الاستهجان، فسألهم: «هل ســـيحكمنا الخـــوري والأتـــاسي بالإنجيل أم بالقـــرآن أم بالدســـتور؟»، فأجابوه: «بالدستور»! فقال: «وهو المطلوب. فما همّنا من معتقديْهما إذن!»[1].

العَلمانية عند مؤسّس الحزب السوري القومي الاجتماعي

قارَبَ أنطون سعاده العَلمانية **بوضوح** وأعطاها التعريف المصطَلَح عليه، واعتبرها أهم قضية في حياة الأمة:

«... أهمّ القضايا الاجتماعية – السياســـية للأمّة، نعنـــي قضية فصل الدين عن الدولة وجمع صفوف الشعب في مبدأ القومية الصحيحة، ومنع توليد الأحقاد الدينية بإضرام نار عداوة الأديان...».[2] فالحـــروب ذات الصبغة الدينية والطائفية، رغم أن أهدافها معروفة وكذلك المحرِّض عليها، إلا أنها لم تكن لتقع في بلادنا لولا تدخّل الدين في الحياة السياسية لتحريض الناس!

– «**الـمبدأ الأول** من القسم الإصلاحي يقول: فصل الدين عن الدولة»[3].

– «**الـــمبدأ الثاني** يقول: منع رجال الدين من التدخل في شـــؤون السياســـة والقضاء القوميين»[4].

وقد بيّنَ لنا ســـعاده الطريق العملية لتطبيق العَلمانية، التـــي غايتها تحقيق المواطنة: «إنّ الأحوال القومية الـــمدنية والـحقوق العامة لا يـــمكن أن تستقيم حيث القضاء متعدّد

(1) حادثة حقيقية معروفة ومتداولة بين الناس، ونحن نعرفها أيضاً كوننا من أهل بيته، ورُوِيَتْ أمامنا.

(2) ســـعاده، أنطون، التشريع السوري القومي الاجتماعي في دولة الشام، جريدة الزوبعة، بوينُس آيرس، العدد 86، 1946/ 8/ 2

(3) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، [د. م.]، دار فكر، 1998، المحاضرة السابعة، ص. 113.

(4) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، ... المحاضرة السابعة، ص. 126.

أو متضارب ومقسّم على الـــمذاهب الدينية، الأمر الذي يـمنع وحدة الشرائع الضرورية لوحـــدة النظام. لا بُدّ، للدولة القومية الاجتماعية، من وحدة قضائية وحدة شرعية. وهذه الوحدة، التي تـجعل جميع أعضاء الدولة يحسّون أنهم متساوون أمام القانون الواحد، هي أمر لا غنى عنه»[1].

ونحن اليوم في بلادنا، لدينا قوانين أحوال شخصية خاصة بكل طائفة ومذهب، فكيف ستتحقّق المواطنة فيها بهذه الاختلافات القانونية؟

«كيف يـــمكن أن يكون الشعب واحداً مع أنّ فئة كذا لا يـمكن أن تختلط مع فئة كذا أو كذا؟ أليس هذا إيثاراً للشعور بالفوارق في الأمة؟ وكيف تكون أمة واحدة وأعضاؤها يشـــعرون بالفوارق بين فئة وفئة، بـــين جماعة وجماعة أخرى؟ لا يـــمكن أن يوزع شيء بالتساوي على العموم، بل يقال لهذه الفئة كذا ولتلك الفئة كذا» [2].

لقد فرّق سعاده بوضوح بين قضايا السماء والأرض: «النهضة القومية الاجتماعية تقول: إنّ قضايا السماء تُـــحَلّ في السماء. إنها قضايا بيـــن الفرد والله، لا بيـن جماعة وجماعة، فلا فائدة من اقتتال جماعة وجماعة لأجل السماء ما دام الله هو الديّان الذي يقضي يوم الـحشر، وما دام الناس قد أسلموا لله» [3]. وهو يلتقي بذلك تماماً مع الإمام عبد الرحمن الكواكبي في قوله: «دعونا ندبّر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الأخرى فقط»[4]! وقد أكّد سعاده على أنّ الرسالة المسيحية والإســـلامية هما رسالة واحدة للسوريين: «ليس من سوري إلا وهو مســـلم لرب العالمين. (...). فقد جَمَعَنا الإسلام: منّا مَن أسلَمَ لله بالإنجيل، ومنّا مَن

(1) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، ... المحاضرة السابعة، ص. 126- 127.

(2) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، ... المحاضرة السابعة، ص. 128.

(3) سعاده، أنطون، اقتتالنا على السماء أفقَدَنا الأرض، جريدة كل شيء، بيروت، العدد 108، 1949/ 4/ 22

(4) الكواكبي، عبد الرحمن، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، القاهرة، كلمات عربية، [د. ت.]، ص. 98.

أسلَمَ لله بالقرآن، ومنّا مَن أسلَمَ لله بالحكمة»[1].

كما أكّـد على العدالة الاجتماعيـة عبر اقتصاد منتج، أسـاسيّ لبناء دولـة غير تابعة، يضمن الصالح العام ويمنع الرأسـمالية الأنانية: «لذلك كان الإنتاج مقصداً رئيسـياً من مقاصد التفكير في الدولة القومية. وعلى أساس الإنتاج فقط يـمكن النظر في إيجاد العدل الاجتماعي الـحقوقي بيـن الذين يشتركون في الإنتاج»[2]؛ «إن ثروة الأمة العامة يجب أن تخضع لمصلحة الأمة العامة وضبط الدولة القوميـة»[3]. كما أكّد على حرية الفكر وعلى أنّ الدولة الديمقراطية هي قومية حتماً، وهي تمثّل مصلحة الشعب[4]؛ كما أكّد على أهمية فصل السلطات الثلاث: «فتمثيل الشعب هو مبدأ ديمقراطي قومي (...). والوسيلة التي مكّنت المتّحَد من تحقيق هذا المبدأ الجديد هي التمثيل السياسي الذي مكّنَ من الفصل بين السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية وترجيح كفّة السلطة التشريعية، لأنها تمثّل الشعب...» [5].

العَلمانية عند مؤسّس حزب البعث العربي[6]

يُعطي ميشيل عفلق للدين أهمية حياتية روحية، وينطلق منه إلى العَلمانية، التي لا يذكرها بالاسم، لكنه يعطي معناها في مقولاته: حيادية الحزب أمام العقائد الدينية وتحقيق المواطنة في التأكيد على المساواة، حقوقاً وواجباتٍ؛ فقد كان مؤسس حزب البعث يعتبر: «أنّ الدين

(1) سـعاده، أنطون، رسـالة الزعيم إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السـورية في صدد وضع فلسطين وحالتها الحاضرة وموقف الحزب القومي الاجتماعي، في الشمس، بيروت، العدد301، 12/ 11/ 1947. https: / /www.saadeh.co /view-article-details /subworks /903

(2) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، ... المحاضرة الثامنة، ص. 134.

(3) سعاده، أنطون، المحاضرات العشر 1948، ... المحاضرة الثامنة، ص. 140.

(4) سعاده، أنطون، نشوء الأمم، [بيروت]، [د. ن.]، 1938، ص. 130.

(5) سعاده، أنطون، نشوء الأمم، ...، ص. 131.

(6) في الواقع، هما مؤسّسان: ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار. وهنا تمّ اختيار الأكثر تأثراً في البعثيين الأوائل.

تعبير صادق عن إنسانية الإنســان...».[1]، فيبيّن، هكذا، ما اصطُلِحَ على تسميته بالعَلمانية المؤمنة، التي يقول عنها الكاتب ســامر خير أحمد، بأنها تقوم على ثلاثة مبادئ: فهي فكرة من داخل الثقافة العربية الإســلامية؛ وتعني **فصل رجال الدين عن الدولة**؛ وتســتهدف بناء دولة مدنية تقوم على القانون واحترام التعددية والاختلاف وحرية الفكر، ولا تسعى لأدلجة الدولة [2].

كتب عفلق: «نحن الجيل العربي الجديــد... لا يفهمنا إلا المؤمنون، المؤمنون بالله. قد لا نُــرى نصلّي مع المصلّين، أو نصوم مع الصائمين، ولكننا نؤمن بالله لأننا في حاجة ملحّة وفقر إليه عصيب، فعبؤنا ثقيل وطريقنا وعر وغايتنا بعيدة».[3]

ابتعــد معظم الحزبيين عــن الديمقراطية، وهــي لازمة وضرورية كفضــاء للعَلمانية وتفتّحها. فيما كان البعثيــون الأوائل، في معظمهم، وخاصة المدنيون منهم، علمانيين فكراً وممارسةً: فهموا بعمق دعوة عفلق إلى بناء «الجيل العربي الجديد» المؤمن، إنما الحيادي أمام العقائد الدينية والتنوّعات الإثنية في الدولة العربية العادلة والديمقراطية:

«فنحن عندما ننادي بالمساواة الاقتصادية وبتكافؤ الفرص نعني أننا سلّمنا قضية البلاد لأصحابها الحقيقيين وهم أفراد الشــعب. وهم في حقيقتهم شيء واحد لا فرق بين مسلم ومسيحي وعربي وكردي وبربري... إلخ» [4].

كما فهم البعثيون الأوائل علاقة العروبة بالإســلام: فالعروبة هوية والإسلام، كثورة اجتماعية، روح لها. أوضح عفلق العلاقة بين العروبة والإسلام، قائلاً في «ذكرى الرسول

(1) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول، بغداد، دار الحرية، 1986، ص 125– 126.

(2) خير أحمد، سامر، العَلمانية المؤمِنة: الفهم غير الأيديولوجي للإسلام، [عمّان]، دار ورد، 2012. https://alrai.com/article/526742

(3) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 150.

(4) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 180.

العربي»: «هذه التجربة[1]... هي استعداد دائم في الأمة العربية - إذا فُهِمَ الإسلام على حقيقته- لكي تهبّ في كل وقت تسيطر فيها المادة على الروح، والمظهر على الجوهر، فتنقسم على نفسها لتصل إلى الوحدة العليا والانسجام السليم، وهي تجربة لتقوية أخلاقها كلما لانت...».[2]

كما كتب عن فَهْم المسيحيين من الجيل العربي الجديد للعروبة وعلاقتها بالإسلام: «وسوف يعرف المسيحيون العرب... أن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبّعوا بها حتى يفهموها ويحبّوها...».[3]

وأكّد على إنسانية العروبة باحترامها لحرية الفكر وللتنوّع الإثني في الوطن العربي، والاعتراف بحقوق الإثنيات الثقافية بما يصون الأمن القومي في مواجهة أطماع الإمبريالية والصهيونية.

«لا أحد يمنع الأكراد أن يتعلّموا لغتهم شريطة أن يكونوا خاضعين لقوانين الدولة ولا يشكّلوا خطراً على الدولة... فالعروبة هي إنسانية ونحن نفهم من قوميتنا العربية بأنها الإنسانية الصحيحة وبأنها تقديس لقوميات الآخرين، فنقدّس هذا الشعور عند كل شعب آخر».[4] «فأفراد الشعب من الأكراد ماذا يريدون وأي شيء يطمحون إليه أكثر من أن يعيشوا حياة كريمة سعيدة، وأن يكون لهم ما للجميع وعليهم ما على الجميع باستثناء بعض الزعماء الذين لهم مصالح إقطاعية؟ أفراد الشعب هؤلاء لا يريدون أكثر مما يريده العرب أنفسهم».[5]

(1) التجربة هي الإسلام، ثورةً اجتماعية وأخلاقية وروحية.

(2) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 143.

(3) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 148.

(4) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 182.

(5) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 181-182.

بالنسبة لعفلق، الطائفية «تغلُّب روابط سطحية تافهة على روابط أساسية عميقة»[1]: فاعتبرها حالة طارئة.

هكذا تكون طبيعة العروبة غير إقصائية، فتتمحور حول المشروع النهضوي: الوحدة والمشاركة الديمقراطية الشعبية والاستقلال الوطني والتنمية والعدالة الاجتماعية والتجدّد الحضاري: «لا يمكن لثقافة العروبة إلاّ أن تكون ثقافة حوارية بعيدة عن ثقافة الإقصاء كما يؤمن العروبيون. لذلك لا مكان لأي نوع من التمييز ناهيك عن العنصرية».[2]

في سورية، كانت الجمعية التأسيسية (1950) تناقش وضع دستور جديد، فقامت تظاهرات للتيارات الدينية لفرض الإسلام ديناً على الدولة في الدستور. فأقرّت الجمعية التأسيسية، للأسف، بأنّ «دين رئيس الدولة هو الإسلام»! وهذا لا يزال، في المادة الثالثة للدستور، شرطاً نافياً للمواطنة!

إلا أنّ المؤتمر القومي الرابع لحزب البعث (1960) أقرَّ أنّ «أفضل سبيل لتوضيح فكرتنا القومية، هو شرح وإبراز مفهومها التقدمي العَلماني... وسيكون نضالنا في هذه المرحلة مركَّزاً حول تأكيد عَلمانية حركتنا ومضمونها الاشتراكي، لاستقطاب قاعدة شعبية لا طائفية».[3]

السعي لتحقيق العَلمانية في بلادنا

• عَلمَنة التعليم العام

ترتكز العَلمانية إلى ثلاث ضرورات: حرية المعتقد والمساواة بين الجميع والتطلّع للصالح العام، مبرِّراً وحيداً لوجود الدولة. وأهم وسيلة لذلك علمنة التعليم العام، بدءاً بالمدرسة العامة وصولاً إلى التعليم العالي العام. أما في المدرسة، فيتحقق ذلك بعدم خضوعها لسلطة

(1) عفلق، ميشيل، في سبيل البعث: الكتابات السياسية الكاملة: الجزء الأول...، ص 34.

(2) من رسالة موجَّهة من أمين عام المؤتمر القومي الدكتور زياد حافظ إلى أعضاء المؤتمر، في تشرين الأول 2016.

(3) العيسمي، شبلي، العَلمانية والدولة الدينية، 1986، ص 48.

الدين، كي تصبح بحق مدرسةَ الجميع: هي ليست ضد الدين بل هي غير دينية؛ وبذلك، فهي تنتمي للفضاء العام، وتترك للحيّز الخاص فسحة واسعة للاهتمام بالخِيار الروحي للفرد. أما التعليم، فيجب أن يهتم ببناء القدرة على المحاكمة المتنوِّرة والمتعقِّلة للإنسان. كما يمكن للمدرسة وضع أسس لثقافة مشتركة، أهم اهتماماتها هما العقل والحقيقة. أما منهاجها، فيؤكّد على إعمال التفكير والنقد بحرية مسؤولة، ولا يهتم بالتلقين، ولا يؤكّد مطلقاً على دين معيّن. هذا الفصل بين الدين والتعليم، لا يعطي الحقَ لأنْ تحلَّ أيديولوجيا أخرى محلَّ الدين المفصول عن التعليم.

تحتاج علمنة المدرسة لتربية التلاميذ منذ الصغر، كما تحتاج الديمقراطية لتربيتهم منذ الصغر في البيت والمدرسة. يمكن للدولة، بالتعاون مع المجتمع المدني المؤمن بالعَلمانية، تنظيم ندوات توعية في أماكن العمل والتجمّعات البشرية، إضافة إلى إلغاء تدريس مادة الديانة واستبدالها بتدريس مادة الأخلاق العامة. وهدف تلك الندوات إيضاح فكرة حيادية الدولة تجاه جميع المعتقدات، ومساواة الحقوق والواجبات، في جو من الحرية الفكرية وحرية ممارسة الشعائر الدينية، والتأكيد على أنّ «الحرية حق لكل مواطن ولا توجِب الصدام الدامي...».[1]

• العَلمانية والديمقراطية والمواطنة والعدالة الاجتماعية

لا يمكن فصل العَلمانية عن مفهومَيْ المواطنة والعدالة الاجتماعية؛ وواجب المؤمنين بها التركيز على أهمية الديمقراطية والحريات العامة، التي لا تستقيم العَلمانية دونها. فالمواطنون هم الذين سيعملون على دعم تحقيق المواطنة، عبر العَلمانية، حين يستطيعون التعبير بحرّية عن آرائهم، في جوّ صحي من الديمقراطية. ولتكون الجاهزية الوطنية في أتمّ فاعلية، يجب أن تصون الدولة، بالقانون، كرامة المواطن بالعيش الكريم وبالعدالة

(1) الأطرش، منصور سلطان، الإصلاح في سوريا، تحقيق د. ريم منصور الأطرش، بيروت، دار الفرات، 2012، ص 538.

الاجتماعيــة وبالتوزيع العادل للثروة، وألا تتخلّى عــن واجبها الاجتماعي تجاه مواطنيها، خاصة الفئات الضعيفة اقتصادياً! تتطلّب العَلمانية أناساً ضمائرُهم متحرّرة، وتكون قادرة على سَنِّ قوانين توحّدهم.

إن الأفقَ العَلماني شــعورٌ بالحرية وتصميمٌ على استخدامها جيداً؛ وعلى المرء أن يحترمَ حــقَ الإيمان أو عدمَ الإيمان وحقَ التفكير مادام ذلك يعبّر عن حقٍ أســاسي للفرد. كما أن فضاء العَلمانية هو الديمقراطية، التي لا تتحقق فعلاً إلا بفصل تام وواضح بين السلطات الثلاث: التشريعية والقضائية والتنفيذية. وهذا غير محقَّق، اليوم، في دساتيرنا[1].

• اقتراح على طريق العَلمانية اليوم

بعد أن أصاب اليأسُ الناسَ من الأحزاب القومية، نتيجة لسعيها للسلطة وتمسّكها بها، لم يعدْ ثمة من أمل، في رأينا، إلا بعمل المجتمع المدني، بهدف السعي لحيادية الدولة وتحقيق المواطنة.

ونعتقد أنّ وضع برنامج وطني واضح، نابع من حاجات المجتمع وأولوياته، ومستوحى من عَلمانية سعاده، مفيد للإصلاح الدستوري والقانوني والسياسي والاقتصادي وللنهوض بالتعليم وتطوير مناهجه ودمقرطته. فيتنادى الموافقون على العمل وِفقَه، ضمن **تجمّع عابر للأحــزاب والأيديولوجيات والأديان والطوائف والمذاهب**، لتشــكيل جبهة من المجتمع المدني، تمارس ضغطاً على الســلطة لتحقيق حيادية الدولة والمواطنة والعدالة الاجتماعية. هدف التجمّع تشكيل رأي عام، يحوّل الأكثرية الصامتة لأكثرية ناطقة تعمل على:

* تطوير مناهج المدارس[2] في التربية الوطنية، لإعداد جيل يحيا المواطنة، بتمارين صَفّية

(1) الأطرش، ريم منصور، اقتراحات لتعديلات في الدستور السوري:
http://www.rimalattrache.com/show_details.php?Id=66

(2) يقول كونفوشيوس: إنْ كانت خطّتك لعام، فازرع الأرز؛ وإنْ كانت لعشرة، فاغرس الأشجار؛ وإنْ كانت لقرن، فاهتمّ بتعليم الأطفال.

ولا صَفّيــة. والاهتمام بتدريس الفنون والأخلاق العامــة ونهج الحوار والتدريب عليه وعلى التمثيل الديمقراطي، والاستغناء عن التعليم التلقيني.

* إعداد دراســات لتعديل الدســاتير وإلغاء أي مواد تمييزية فيهــا، وتوحيد قوانين الأحوال الشــخصية وتعديل قوانين الانتخاب، تحقيقاً للمواطنة، وإقرار القوانين الوضعية الموحّدة للمواطنين، وإقرار الزواج المدني الخياري.

* تطويــر حال المرأة، فهو مِحَــكّ اختبارِ درجةِ التحررِ العــام، فحيث ينتشر التعصّبُ الديني بالحقلِ الســياسي، نجد تراجعاً لتحرّر المرأة. فدرجــةُ انعتاقِ المرأة مقياسٌ للتحرّرِ العام. وأعلى درجات التحضّر المديني تتوافق، حسب ابن خلدون، وبلوغ الصبغة الدينية أدنى درجاتها.

* اقتراحات عملية لمشاريعَ صغرى تُنجي المجتمع من العوَز.

* تشكيل لجنة «الحقيقة والمصالحة» للشفاء من ذكريات مآسي الحروب الأهلية.

* لإلغــاء الأقليات والأكثريات، علينــا التمعّن بمقولة الشــهيد ناهض حتّر بأنّه «لم تكن هناك، عشــية القرن العشرين، أقليات وأكثريات دينية أو مذهبية على مستوى المشرق، وإنــما كان هنالك توازن في الأحجام الديموغرافية»[1]. والتمعّن بتأكيد د. صفية أنطون سعادة على أنْ: «لا علمنة إلا بوحدة سوراقيا»؛ «سوراقيا لا تستطيع أن تكون موجودة فعلياً إلا إذا كانت علمانية»[2].

* وها هو منصور سلطان الأطرش، أحد مؤسّسي حزب البعث العربي، يكتب: «وقد تكون الظروف الموضوعية والواقعية مواتيــة لصبّ الجهود على قيام **وحدة الهلال**

(1) حتّر، ناهض، نحــو «البيان المشرقي»: مقدمة للحوار، في **جريدة الأخبــار اللبنانية**، زاوية «**بهدوء**»، الجمعة 13 آذار، 2015.

https: / /al-akhbar.com /Politics /17412

(2) سعادة، صفية أنطون، فكر أنطون سعادة المقاوم، [بيروت]، دار سعادة، 2020، ص. 160.

الخصيب أكثر منها على وادي النيل أو الجزيرة العربية مثلاً. وعلى كل الأحوال ليس هنالــك من ضير في تزامن العمل الوحدوي في إقليمين»[1]؛ كما أنّ «وضع دســتور للوطــن العربي يقوم على الفيدرالية، يســتهدف في المرحلــة الأولى، **وحدة الهلال الخصيب**.»[2].

الخاتمة

اليوم، يثير حالنا، في بلادنا، ســؤالاً: هل ثمة إمكانية لتحقيق العَلمانية؟ للأســف، لا نزال بعيدين... طالما أنّ الحريــات العامة مفقودة، كذلك الفضاء الديمقراطي الضروري لإحلال العَلمانية. لكنّ الناس المؤمنين بها، إنْ تجمّعوا وفق برنامج وطني، يمكنهم التحوّل إلى أغلبية ناطقة وضاغطة لتحقيقها، عاملين على تأكيد حيادية الدولة في الدستور والقوانين وفي المناهج التربوية الضامنة لفصل الدين عن السياســة، وتدريب النشئ على تلك القيم الراعية للعَلمانية: الحرية والديمقراطية والمســاواة، حقوقاً وواجباتٍ. وليكن الهدف، بناء الدولة «**الحيادية**» أمام المعتقدات، ما ســيفتح أبواب الأملِ مجدّداً للجميع بحياة ترعى قيم الحق والخير والجَمال.

فالدول المُتبَنّية للدين، بدســاتيرها، قامِعة للحريات، فيما وضع الحريات العامة، ومنها حرية المعتقد، أفضل في الدول غير المُتبَنّية للدين أو لعقيدة أيديولوجية أو إلحادية! فنموذج الاحترام المتســاوي للأديان من أفضل النماذج لضمان الحريات المدنية للمواطنين بشــتّى عقائدهم.

إذن، حســب سعاده، وحسب شعار الثورة الســورية الكبرى، يمكن للعَلمانية تجسيد الأمل بحياة أفضــل، لتحقيق المواطنة. لكنّ عَلمانية عفلق تحتاج، من أجل فهمها، إلى نموّ

(1) الأطرش، منصور سلطان، الإصلاح في سوريا، تحقيق د. ريم منصور الأطرش، بيروت، دار الفرات، 2012، ص. 81.

(2) الأطرش، منصور سلطان، الإصلاح في سوريا ...، ص.83.

روحيّ عميق؛ وهذا نادر بين الناس اليوم!

كتب نصر حامد أبو زيد: «الديمقراطية وحقوق الإنسان، تلك هي الغايات التي يجب أن نسـعى إليها، ولا وصول إليها إلا من خلال عَلمانية حقيقية لا تنفي الآخر، ولا تحاكم الفكر».[1]

(1) أبو زيد، نصر حامد، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي،1999، ص 309.

المراجع:

- **أبــو زيد، نصر حامد**، دوائر الخوف: قراءة في خطاب المرأة، الــدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 1999.

- **الأطرش، ريم منصور**:

  • اقتراحات لتعديلات في الدستور السوري:

http: / /www.rimalattrache.com /show_details.php?Id=66

  • لماذا هذا الموقع؟ www.sultanalattrache.org

  • المذكرات الحقيقية لِ سلطان باشا الأطرش القائد العام للثورة السورية الكبرى: وثائق من أوراقه 1910– 1989، خمسة أجزاء، بيروت، دار أبعاد، 2022.

- **الأطرش، منصور ســلطان**، الإصلاح في ســوريا، تحقيق د. ريم منصــور الأطرش، بيروت، دار الفرات، 2012.

- **بطرس البستاني** رائداً من رواد النهضة العربية، في جريدة العروبة، حمص، [2010]، العدد: 12230.

- **بينا – رويث، هنري**، ما هي العَلمانية؟، ترجمة د. ريم منصور الأطرش، دمشق، دار الأهالي، 2005، (المؤسسة العربية للتحديث الفكري).

- **حتّر، ناهض**، نحــو «البيان المشرقي»: مقدمة للحوار، في **جريدة الأخبار اللبنانية**، زاوية «**بهدوء**»، الجمعة 13 آذار، 2015.

– https: / /al–akhbar.com /Politics /17412

- **خير أحمد، ســامر**، العَلمانية المؤمِنة: الفهم غير الأيديولوجي للإســلام، [عمّان]، دار ورد، 2012. https: / /alrai.com /article /526742

- **سعاده، أنطون**:

  ● رســالة الزعيم إلى القوميين الاجتماعيين والأمة السورية في صدد وضع فلسطين وحالتها الحــاضرة وموقــف الحزب القومــي الاجتماعي، في الشــمس، بــيروت، العدد301، 12/ 11/ 1947:

https: / /www.saadeh.co /view–article–details /subworks /903

  • المحاضرات العشر 1948، [د. م.]، دار فكر، 1998.

  • نشوء الأمم، [بيروت]، [د. ن.]، 1938، (الآثار الكاملة؛ 5).

- **سعادة، صفية أنطون**، فكر أنطون سعادة المقاوم، [بيروت]، دار سعادة، 2020.

- **عفلق، ميشــيل**، في ســبيل البعث: الكتابات السياســية الكاملة: الجزء الأول، بغداد، دار الحرية، 1986.

- **العيسمي، شبلي**، العَلمانية والدولة الدينية، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة «آفاق عربية»، 1986.

- **الكواكبي، عبد الرحمن**، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، القاهرة، كلمات عربية، 2011.

لنجرؤ على اختراع المستقبل(*)

الأب الياس زحلاوي

السيدات والسادة،

أشكر لكم دعوتي للتحدث إليكم عن سورية، وطني.

نظراً لما بلغت الظروف الراهنة، في سورية والعالم، من التعقيد المحيّر، ارتأيت أن أحاول الإجابة على سؤال واحد فقط، يبدو لي أنه فَرض نفسه عليكم جميعاً، وعلى الكثيرين سواكم، منذ ما يقارب اثنتي عشرة سنة.

والسؤال هو:

كيف تسنّى لبلد صغير مثل سورية، أن يظل واقفاً حتى هذا اليوم الخامس عشر من شهر تشرين الثاني (نوفمبر)، من عام 2022، في وجه تحالف عالمي، بزعامة الولايات المتحدة، يضمّ (140) دولة، ويدعمه مئات الألوف من الجهاديين الإسلاميين المزعومين، الخالين من أي دين وأخلاق، يتدفّقون في موجات متتابعة، عبر جميع الحدود، منذ فترة لا بأس بها، سبقت الخامس عشر من شهر آذار عام 2011، مع العلم أن عدد سكانه لا يتجاوز (24) مليون نسمة، جلّهم من المسلمين؟

وإمعاناً مني في الوضوح، سأمتنع عن أي نقاش أو تحليل آني أو حالي، يتعلق بالشأن السياسي، والسوسيولوجي، والديني والاقتصادي.

بالمقابل، سأدعوكم للغوص في التاريخ الماضي، حيث حدثت اللقاءات الأولى بين الإسلام الفاتح، في بداياته، والمسيحية المشرقية.

(*) كلمة الأب الياس زحلاوي خلال مشاركته في ندوة عبر الإنترنت مع فرنسا – نوفمبر 2022.

ففي هذه الفسحة التاريخية، أجد الفرصة لنمعن التفكير، على نحو يمكّننا جميعاً، أيّاً كنّا، وأنّى كنّا، من اختراع أزمنة على جانب أوفر من الإنسانية، في ضوء ماضٍ قد يبدو لنا بعيداً جداً عنّا.

والحقّ يقال إن هذا الغوص في التاريخ السحيق، سيضعنا أمام حدث فريد حقاً، لم تعرف جميع المراجع التاريخية له مثيلاً. ولقد بلغ من التأثير الفعلي والدائم، ما جعله يخلق تجانساً نسبياً، ولكن حقيقياً، بين جماعات بشرية، بلغت من الاختلافات فيما بينها، بقدر ما كان قائماً حقاً بين جميع مسيحيي المشرق، وهؤلاء البدو الفاتحين، القادمين من شبه الجزيرة العربية.

ويطيب لي أن أذكر لكم أن هذا الحدث قد فجّر تداعيات تاريخية، جادة وحاسمة، انطوت على قدر عظيم من الحيوية، لا سيما على صعيد العلاقات بين المسيحيين والمسلمين واليهود، في مجمل العالم العربي الإسلامي، منذ ذلك الحين حتى معاهدات سايكس- بيكو!

هذا الحدث بعينه، هو الذي أريد التحدث معكم عنه الآن.

وسأختم حديثي هذا بإشارة سريعة إلى اثنتين من التداعيات الكثيرة التي أحدثها، وكلتاهما على قدر كبير من الاستثناء والراهنيّة، على الرغم من الكارثة الإنسانية التي حلّت بسورية وبالمنطقة العربية كلها.

ما هو إذن هذا الحدث؟

عام (635)، حاصرت الجيوش الإسلامية مدينة دمشق، مدة خمسة أشهر، جرت خلالها مفاوضات بين القادة المسلمين والوجهاء المسيحيين في دمشق، وانتهوا منها أخيراً إلى اتفاق.

فتحت دمشق أبوابها أمام القوات الإسلامية، بعد أن تعهّد قادتها باحترام كل إنسان وكل شيء فيها، بدءاً من كاتدرائيّتها الرائعة، المشيّدة باسم القديس يوحنا المعمدان، والتي كانت تقوم في قلب المدينة. وقد تحقّق كلّ ذلك، لقاء ضريبة اتضح أنها كانت دون الضريبة

التي كانت تُدفَع لحكّامها السابقين، مسيحيّي بيزنطة!

كما اتُّفق على أن المسيحيين، من مدنيين وعسكريين، الذين كانوا يريدون مغادرة البلد، مع القوات البيزنطية المنسحبة، يُمنحون جميع الضمانات الضرورية.

وأما الموظفون المسيحيون القائمون في دوائر الدولة، بدءاً من الوجهاء الذين قادوا المفاوضات مع العرب المسلمين، فقد طُلب إليهم بإلحاح أن يظلّوا في مراكزهم. وكان منهم جدّ ووالد من سيصبح بعد سنوات طويلة، القديس يوحنا الدمشقي، وهو الذي كان قد شغل مركزاً بالغ الأهمية، هو مركز وكيل المال في الخلافة الأموية، التي كانت آنذاك اتخذت من دمشق عاصمة لها.

فضلاً عن ذلك، فقد احتُفظ باللغة اليونانية، وبالأختام الرسمية المهورة برسوم الأباطرة البيزنطيين، لغةَ وأختامَ الإدارة الجديدة في الخلافة الأموية، حتى عام (685)، حيث قرّر الخليفة مروان بن عبد الملك، استخدام اللغة والأختام العربية، في دواوين الدولة كلها.

أخيراً، يستوقفني حدث، لم يحدث قط ما يشبهه في جميع حوليات تاريخ الديانات.

قديماً كان كل فاتح منتصر، يسارع إلى تدمير أماكن عبادة خصمه، واستبدالها بمعابد تشاد لآلهته الخاصة والمنتصرة. إلاّ أن المسلمين الفاتحين في دمشق، ومع أن السلطة قد باتت مطلقة في قبضتهم، فقد أبقوا على كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان!

ثم كان أن ذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك. فلمّا لم يكن لهم مسجد، لا في دمشق، ولا في ضواحيها، اتّفقوا مع وجهاء المدينة والسلطات الدينية، على إقامة صلواتهم في الكاتدرائية عينها كل يوم جمعة، وفي أعيادهم المعروفة. وإنّ المؤرّخين ليجمعون على أن الأمور كانت كلّها تجري في الكاتدرائية على خير ما يرام!

ولا بد لي من التأكيد مرة أخرى أن هذا الحدث، لم يتكرّر ما يشبهه في تاريخ العلاقات المسيحية– الإسلامية. كما أنه ليس من الصعب تصوّر مدى ما كان لهذا التعايش الروحاني،

من تأثير عميق على صعيد تدعيم الروابط الروحية والإنسانية، التي كانت تنشأ وتترسّخ بمرور الزمن، على مستوى جميع هؤلاء الناس، وعلى الرغم ممّا كان يفرّق بينهم من معتقدات، وأصول، وعادات، وعقليات، ومسؤوليات مختلفة، وكذلك أيضاً على صعيد مختلف العلاقات بينهم، شخصية كانت، أم عملية، أم عائلية.

وجاء يوم من عام (705)، قرر فيه الخليفة الجديد، وليد بن عبد الملك، الاستيلاء على الكاتدرائية المسيحية، إثر مفاوضات فاشلة مع الوجهاء، وشيّد مكانها ما هو اليوم مسجد بني أمية، وإنما بمساعدة بنّائين مسيحيّين من دمشق ومن بيزنطة. إلا أنه أمر بالاحتفاظ بضريح القديس يوحنا المعمدان، وبجرن المعمودية الكبير. وشَيّد للمسيحيّين بالمقابل، أربع كنائس كبرى في دمشق، ومنها الكاتدرائية الخاصة بكنيسة الروم الأرثوذكس.

يرى بعض المؤرّخين أن هذه السنوات السبعين الأولى، التي عاشها وأبدعها معاً، المسيحيّون والمسلمون في دمشق آنذاك، شكّلت الأساس الحقيقي لهذا التعايش الإنساني أولاً، ومن ثم لاستمراره عبر القرون اللاحقة، بين المسيحيّين والمسلمين واليهود، في جميع البلدان الإسلامية في الشرق عامة، وعلى نحو خاص في سورية. ولقد تواصل عبر القرون، على الرغم من جميع الاضطرابات، الكبيرة أو الصغيرة، التي تخلّلت هذا التاريخ الطويل، والتي كان أخطرها دون شك، الحملات الأولى المسمّاة صليبية...

وأنا أرى، ولا أكفّ عن التصريح، كما فعلت في البرلمان الأوروبي في شهر ديسمبر من عام 2017، أنّ هذا التعايش الإنساني والاجتماعي الاستثنائي، الذي تواصل قروناً وقروناً، إنما هو وحده ما يفسّر المقاومة، التي واجهت بها سورية هذه الحرب المجنونة عليها، طوال سنوات وسنوات، والتي لم يكن أحد ليتوقّعها. وهي هي التي تجعلها حتى اليوم تقف في يقين الخلاص الآتي...

وأتصوّر بالبديهة أن التأمل في هذه الوقائع التاريخية، لا بدّ له من أن يقودنا إلى الاعتقاد بأن السلوك الذي انتهجه المسلمون الفاتحون، منذ اللحظة الأولى، مع سكان دمشق، وسورية المسيحيّين، قد وجد تلقائياً اكتماله، ثم تثبيته، إبان دخول المسلمين إلى القدس

عام (639)، ثمّ إلى مصر عام (641). إلاّ أنه بلغ في الأندلس أوج اكتماله، خلال ما يقارب ثمانمائة عام، أي ما بين عام (718) وعام (1492)!

وهنا، اسمحوا لي على سبيل المقارنة فقط، بتذكيركم بحدث مروّع، هو وكل ما ذكرت، على طرفَي نقيض: إنه اجتياح مدينة القسطنطينية عام (1204)، من قبل جيوش الحملة الصليبية الرابعة القادمة من الغرب، المسمّى مسيحيّاً!

بالطبع، قد يثير الكثير ممّا ذكرت أمامكم، بعض الشكوك، أو التساؤلات، أو حتى الاعتراضات.

وفي مسعى مني للإجابة على كل ذلك، أكتفي بدعوة كل مثقف وباحث، إلى قراءة المؤرّخين اليهود، بل الإسرائيليين فقط، إذ يفترض فيهم أن يكونوا منذ زمان بعيد، أشدّ أعداء العرب عموماً، والسوريين خصوصاً.

وإني لأكتفي بالإشارة إلى ثلاثة منهم فقط. أولهم «آبا إيبان» الذي كان المندوب الدائم الأول لإسرائيل، في هيئة الأمم المتحدة، في كتابه بعنوان «شعبي»، الصادر في باريس عام (1973)، في ترجمته الفرنسية عن دار نشر «بوشيه- شاتل». والثاني هو الحاخام الفرنسي، «جوزي إيزنبرغ»، في كتابه «تاريخ لليهود»، صدر في باريس عام (1970)، في منشورات «كتاب الجيب». والثالث هو «أبرام ليون ساخار»، وهو يهودي أميركي، في كتابه الموسوعي، «تاريخ اليهود»، الصادر في ترجمته الفرنسية، عن دار نشر «فلاماريون»، عام (1973).

ومن منكم سيحمّل نفسه عناء تصفّح هذه الكتب، سيُفاجَأ بصحّة كل ما ذكرت.

آن لي أن أختم حديثي، بما سمّيته التداعيات الاستثنائية الناجمة عن هذا اللقاء الأول والحاسم، بين المسلمين الفاتحين الأوائل، ومسيحيّي المشرق كله آنذاك، ولسوف أكتفي بذكر اثنتين منها فقط.

كانت الأولى إبداعاً آيديولوجياً أُطلق عليه فيما بعد اسم «العروبة». وقد حدث ذلك

بفضل الكتابات الكثيرة والجريئة، التي دأب على إطلاقها في سـورية ولبنان، خلال القرن التاسع عشر، عدد كبير من الكتاب المسيحيين. وهي أيديولوجيا تدعو إلى التمسك باللغة العربية الأمّ، بوصفها الرابطة الأساسـية، الموحِّدة بين جميع الناطقين بها. كما أنها تدعو إلى تجاوز جميع الحدود الجغرافية القائمة بين البلدان العربية، ومن ثم إلى تخطّي جميع الشـؤون الخلافية، دينية كانت أم طائفية، أم اجتماعية أم عرقية... وتدعوا أخيراً إلى السعي من أجل خلق مجتمع متجانس، حرّ ومدني، في احترام تام للضمائر والمعتقدات.

وكانت الثانية، بمثابة ثمرة للأولى، إذ هي أفضت في القرن العشرين، إلى إنشاء أحزاب سياسـية، عديدة وقوية، كان لها شأن كبير في كل من لبنان وسـورية والأردن وفلسطين والعراق، وكان مؤسّسوها كلّهم مسيحيّين!

وفي إطار التداعية الثانية، اسمحوا لي بأن أرسم لكم في ملامحه الكبرى، وجهاً أكثر من مدهش، لزعيم مسيحي في سورية الحديثة هذه، التي يجدر بكم كثيراً أن تعرفوها وتعرّفوا الناس عليها.

إنه «فارس الخوري». وُلِد في جنوب لبنان عام 1877، وتوفّي في دمشق، عام 1962.

تخرّج في العلوم الرياضية من الجامعة الأميركية في بيروت، ثم من جامعة السوربون في باريس، وأصبح نائباً ممثّلاً لدمشق، عام 1908 في البرلمان العثماني، في إسطنبول.

وأصبح وزيراً للمال عام 1920، خلال تشـكيل المملكة السورية، في فترتها الأكثر من سريعة، ومن ثم وزيراً للتعليم عام 1926.

وانتخب نائباً في المجلس التأسـيسي السـوري عام 1928، ثم في البرلمان السوري عام 1932، وأعيد انتخابه عام 1936، ثم أصبح رئيسـاً للبرلمان السـوري عام 1939، وأعيد انتخابه رئيساً للبرلمان السوري من عام 1943 إلى عام 1944. وفي هذه الفترة شغل منصب وزير الأوقاف الإسلامية أيضاً.

وفي شهر تشرين الثاني من عام 1944، عيّن رئيساً لمجلس الوزراء حتى شهر أيلول من

عام 1945، حيث عيّن رئيساً للبرلمان، ثم رئيساً للوفد السوري إلى الأمم المتحدة، وقد ساهم في تأسيسها، وكان أول مندوب دائم لسورية فيها.

وفي 25 تشرين الأول عام 1954، عيّن رئيساً للوزراء، إلاّ أن مسيرته السياسية توقفت بسبب رفضه الاتحاد مع مصر.

في سورية، يشكل فارس الخوري، على نحو دائم، قيمة رمزية.

سيداتي، سادتي،

أختم حديثي هذا برواية حادثة مثيرة، ولكن واقعية بالمطلق.

أنا مقيم في دمشق في كنيسة تُدعى كنيسة سيدة دمشق. وقد دُشّنت عام 1975.

هذه الكنيسة شُيّدت في موقع فيلا كبيرة، كان يملكها وجيه مسلم من دمشق، يُدعى أكرم ميداني. خلال المفاوضات التي جرت بينه وبين بعض وجهاء طائفتنا، والتي أفضت إلى شراء الفيلا منه، علم أنّ كنيسةً ستُشاد محلّ الفيلا، ففاجأ الوفد المفاوض بقوله:

«طالما أنكم تنوون بناء كنيسة، يسرني أن أخفّض ربع الثمن الذي طلبتُه، على أن يُصلّى فيها مستقبلاً، من أجلي ومن أجل أسرتي!»

وهكذا كان.

ويطيب لي، في ختام حديثي هذا. أن أخبركم أنّي أنا الكاهن العربي الكاثوليكي، ملتزم دائماً بهذا الطلب، وبهذه الصلاة!

وصدّقوني إن قلت لكم إنّ أكرم الميداني هذا، يمثّل حقّاً الإسلام في سورية.

شكراً!

دمشق في 15/ 11/ 2022

بطرك الأزمنة
اسطفان الدويهي

مسرحية عن حياة وأعمال وعصر البطريرك الطوباوي

تأليف: أنطوان فرنسيس

لطلب الكتاب، الاتصال:

دار أبعاد للطباعة والنشر

لبنان - بيروت - منطقة الحمرا

شارع عبد المنعم - بناية بلعة وقمند ط 4

ص.ب: 7179 – 113 بيروت – لبنان

00961-71-841086

abaaddar@gmail.com

صراع «الدهاء» بين
معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص

سرور جمعة داود الزيدي(*)

كثيرة هي الكتابات عن معاوية بن أبي سفيان، كما عن عمرو بن العاص. ولكن باعتقادي أنّه ليس هناك من كتابات مستقلّة عن «فنّ الدهاء» عن كل من الشخصيّتين الإسلاميّتين هاتين. مع العلم أن معظم الباحثين والمؤرّخين الذين كتبوا عنهما، كانت صفة «الدهاء» تلتصق بإسميهما، تماماً كالتصاق البؤبؤ بالعين، أو كالتصاق اللون الأسود بالفحم والليل الحالك، أو التصاق الدم بلونه الأحمر القاني.

فمن هو معاوية بن أبي سفيان؟ ومن هو عمرو بن العاص؟ وماذا عن «الفن الدهائي» عند كل منهما؟ وكيف تجلّى هذا «الدهاء» في السياسة والحرب عند كليهما؟

قبل كل شيء، وقبل أن نتناول شخصيّة كل من هذين الرجلين، لا بدّ من الإشارة إلى موضوع «الدهاء» باعتباره فنّاً من فنون السياسة والحرب معاً، ولا سيّما عند كل من معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص، وأين برع كل منهما في هذا الفنّ؟ وأين؟

هذا ما سنعالجه في هذا البحث إن شاء الله.

في الحقيقة، لقد تعدّدت التسميات التي عُرف بها «الدهاء» عبر التاريخ . مرة سُمِّي بـ الخداع / أو الخدعة أو الخديعة ومرة ثانية سمي بـ «المكر والحيلة»، ومرة ثالثة سُمي بـ «الذكاء والشجاعة»، ومرات سمي بـ «المجازفة والمغامرة والمفاجأة والتظليل» إلخ... وكذلك الحال في مسألة تعريفاته التي اختلفت من باحث إلى آخر، أو من استراتيجي إلى آخر، كما في المعاجم أو الموسوعات أو المراجع والمؤلفات الأخرى.

ولكن في كل ذلك، ومهما اختلفت التسميات والتعريفات المتعلقة بصفة «الدهاء»، يبقى

(1) سرور جمعة داود الزيدي طالبة عراقية تحضّر رسالة الماجستير في التاريخ الإسلامي، في جامعة الجنان/ طرابلس/ لبنان.

الجوهر واحداً في النهاية.

فماذا عن هذه المسألة التي لم يتفق المؤرخون والباحثون والاستراتيجيون العسكريون على تسمية موحّدة لها، ولا على تعريف واحد في هذا المجال؟ هذا ما سنجيب عليه في هذا المبحث على المشكل التالي:

في الواقع، إن الحرب والدهاء عاملان ملتحمان ببعضهما البعض التحاماً وثيقاً يصعب الفصل بينهما بسهولة، حيث منذ وُجد الإنسان على سطح الأرض وُجد معه الدهاء والخدعة. بمعنى أن الإنسان والدهاء توأمان. وبما أنّ الإنسان مولّد الحروب والمعارك منذ فجر التاريخ، فلم يخلُ شعب أو حرب أو معركة من الدهاء الذي كان الحاضر الدائم فيها، حيث من الواضح أنه ليس من قائد حقيقي في أي حرب أو معركة من لا يتميّز بميزة الدهاء، إن كان ذلك في الشرق أم في الغرب. وليس من قائد حقيقي من لا يعرف المغامرة والمخاطرة في حياته، حيث «إذا خلا فنّ الحرب من المخاطرة، يصبح المجد في متناول الناس العاديين» – كما قال نابليون بونابرت[1].. وأية حرب لا دهاء فيها، ليست بحرب حقيقية، لأنها تفتقر إلى أحد المكوّنات الأساسيّة والقواعد الرئيسية للحروب وهو: الدهاء ...

ومن هذا المنطلق، يتوضّح أن الدهاء (أو الحيلة أو الخدعة) هو القاسم المشترك بين حروب ما قبل الميلاد وما بعده، حتى يومنا هذا. وكل العصور عرفت حروباً ودهاء، ولكل عصر حروبه ودهاؤه... كما يبقى الإنسان والعقل هما الأساس في الحرب والدهاء ... مع العلم أن النبي الكريم محمدﷺ شرّع الدهاء والحيلة في حربه ضد أعداء الإسلام قائلاً: «الحرب خدعة»[2]... كما أوصى القادة المسلمين باتباع هذا الأسلوب المخادع أو الدهائي في كل حروبهم من أجل انتشار الإسلام وتوسّع رقعته الإيمانية. وقد كان معاوية بن أبي سفيان أحد أكبر «الدهاة» في الإسلام، والعامل بوصيّة النبي الكريم ضد أعدائه الروم، كما في سياسته الداخلية.. وكذلك عمرو بن العاص.

وهكذا شكل الدهاء في الفن الحربي الإسلامي عامل انتصار حاسم في كثير من المعارك، البرية منها والبحرية على السواء...

(1) فرج، سيد، **أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب**، دار الشعب، القاهرة، مصر، 1970، ص 14.

(2) توركماني، حسن، **الدهاء في الحرب**، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص 7.

فالدهاء إذن صفة وسمة للعقل وقدراته غير المحدودة، وهو ليس حكراً على الأعمال العسكرية، بل إنه قد يكون ضرورياً في الكثير من ممارسات الإنسان ونشاطاته ذات الصلة بأعمال الفكر والبحث والسياسة. كما أن الدهاء هو نتيجة لنشاط عقلي لإنسان أو قائد يمتلك عقلاً راجحاً، يجسّده في المعارك والحروب. إلا أن ممارسة الدهاء في العمل العسكري مشوبة بمظاهر الخداع والحيلة، مما يثير لدى بعض الناس فكرة تعارض هذه الممارسات مع الأخلاق، إلا أن البحث والتعمق في تحليل مسألة الدهاء واستخدامها في الحرب يظهر أن ذلك أمراً مشروعاً تماماً[1]، مع العلم أن النبي الكريم محمد (صلى الله عليه وسلّم) استخدم الخداع والدهاء في حربه مع قريش واليهود، لا سيما في معركة الخندق، قائلاً «الحرب خدعة». (كما سبق وذكرنا).

هذا وتعود ولادة وظهور الدهاء إلى أعماق الماضي السحيق امتداداً إلى المجتمع المشاعي البدائي والذي استخدمت فيه الكمائن من أجل صيد الحيوانات المفترسة، كما استخدمت فيه المصائد وأساليب السريّة. وقد انسحب ذلك بشكل كبير على الحروب والمعارك والنزاعات اللاحقة[2]. مع العلم أن الدهاء يتعلّق بدرجة كبيرة بعقل القائد وصفاته الشخصية الأخرى. إذ ليس هناك من حرب أو معركة بدون قائد وبدون مواهب القادة في الابتكار والابداع. ولم نكن لنسمع أو نقرأ عن رجال عظام في أي مجال من المجالات، خصوصاً في مجال فن الحرب. ولم يشذّ الدهاء في الفن الحربي الإسلامي عن ذلك أبداً.

... فالعقل هو «الولّاعة السحرية» التي تقدح شرراً لاهباً عندما يمعن الفكر بالتأمل والتركيز الواعي بهدوء... والعقل هو قمّة قوّة العالم. والقوى العقلية هي المحرّك الفعلي لهذه القوة. والذكاء في رأس قائمة هذه القوى. إذ أن «هناك ثالوثاً يسيطر على ميدان القتال والمعركة أيضاً، وهذا لا يخفى على أحد وهو: الذكاء - والشجاعة - والسلاح»[3]. (كما ذكر جان بيريه سابقاً). مع العلم أن مهنة الحرب والسلاح «هي المهنة الوحيدة التي يكون

(1) توركماني، المرجع نفسه، ص 7 - 8.

(2) المرجع نفسه، ص 13.

(3) الحميميدي، محمد بن علي، **الحرب والذكاء والقيم الفكرية والمعنوية** (طباعة خاصة)، الرياض 2014، ص 3. كما يمكن مراجعة كتاب فرونتينيوس، **خدع حربية**، ترجمة عبد الله فؤاد كحيل، دار الفارابي، بيروت، 1986.

خطر الموت شعارها»[1].

بعد هذه المقدّمة الضروريّة عن «الفن الدهائي» وعلاقته بالحرب، نتساءل عن دهاء معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في هذه المسألة.

شخصيّة معاوية بن أبي سفيان ودهاؤه في سياسته الداخلية

لم تتفق آراء الباحثين والمؤرخين حول شخصية معاوية بن أبي سفيان. بيد أن معظمهم – إن لم يكن كلّهم – اتفقوا على أنــه كان «داهية من دهاة العرب». كما ذهب البعض إلى وصفه بأنه «أدهى دهاة العرب والمســلمين». لذلك، يجدر بنا في البدء أن نعرّف بهذه الشــخصية التي حيّرت الناس فترة طويلة، في سياستها الداخلية والخارجية معاً.

فمن هو معاوية بن أبى سفيان إذن؟

هو معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي القــرشي الأموي، أبو عبد الرحمن خال المؤمنين وكاتب وحي رب العالمين. وأمّه هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف[2].

وُلد بمكّة قبل البعثة بخمســة أعوام، وأســلم يوم فتح مكة. اتخذه النبي ﷺ كاتباً للوحي[3]. روى الحديــث عن أبي بكر وعمر وعثمان، وأخته أم المؤمنين أم حبيبة، وله أحاديث في الصحيحين وفي غيرهما من كتب الحديث. وروى عنه جماعة من الصحابة والتابعين[4].

اشترك معاوية في معركة اليمامة. ولمّا بعث أبو بكر بالجيوش إلى الشام، سار معاوية مع أخيه يزيد. وقد أبلى بلاءً حسناً في فتح المدن الساحلية مثل صيدا وعرقة وجبيل وبيروت وعكا وصور وقيسارية[5].

---

(1) الحميدي، مرجع سابق، ص 206.

(2) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 8، مصدر سابق، ص 20 – 21.

(3) **المصدر نفسه**، ص 21.

(4) العســقلاني، الحافظ شــهاب الدين أبو الفضــل، المعروف بابن حجر، **فتح البــاري بشرح صحيح البخاري**، ج8، مطبعة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1959، ص 105.

(5) البــلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله وعمر أنيس الطباع، دار النشر للجامعيين 1957، ص 173.

واكتسب معاوية ثقة عمر بن الخطاب، فولّاه الأردن كما وّلى أخاه يزيد على بلاد الشام. ولما توفي يزيد في طاعون عمواس، أضاف عمر لمعاوية ما كان لأخيه.[1] ولمّا وُليّ عثمان الخلافة ولّى معاوية بلاد الشام كلّها، ثم استقل بها بعد مقتله.[2] ولمّا بويع علي بالخلافة امتنع معاوية عن مبايعته، واتهمه بإيواء قتلة عثمان في جيشه، وبايعه أهل الشام على المطالبة بدم عثمان، ومحاربة علي[3]. وما زال الخلاف محتدماً بين الرجلين حتى قُتل علي في عام (40 هـ [4]أوائل عام 661 م)، ثم تم الصلح بينه وبين الحسن بن علي الذي آلت إليه الخلافة بعد مقتل والده، لكنّه تنازل بمقتضاه لمعاوية عن الخلافة[5]. فأصبح بعد ذلك معاوية خليفة على المسلمين بعد مبايعته في بيت المقدس من قبل أهالي الشام، ودُعي بأمير المؤمنين.[6]

ويبقى التساؤل الكبير: أين تجلّى دهاء معاوية بن أبي سفيان على صعيد سياسته الداخلية؟ ومن هم أبرز خصومه السياسيين، وكيف تعامل معهم»؟

هذا ما سنوضحه في الصفحات اللاحقة.

في هذا الإطار، يذهب ابن طباطبا (المعروف بابن الطقطقا) إلى القول:

«كان معاوية داهية من دهاة العرب، ومن أوفرهم حظاً بالسياسة، عاقلاً في دنياه، حليماً، قوياً، جيد السياسة، حسن التدبير لأمور الدنيا، حكيماً، فصيحاً، بليغاً، يحلم في موضع الحلم، ويشتدّ في موضع الشدّة، إلا أن الحلم كان الغالب على طبعه، كريماً باذلاً للمال، محباً

(1) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، ج 4، دار المعارف بمصر 1960، ص 62.

(2) ابن كثير، **مصدر سابق**، ج 8، ص 21

(3) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر، **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط1، 1993، ص 86. وكذلك، الطبري، **مصدر سابق**، ج 4، ص 444.

(4) قتل علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) في العشر الأواخر من شهر رمضان عام 40 هـ، وقيل في السابع عشر منه (انظر: ابن خياط، خليفة من خياط، **تاريخ خليفة من خياط**، تحقيق أكرم ضياء العمري، النجف/ العراق، ط 1، 1967، ج1، ص 182.

(5) ابن كثير، **مصدر سابق**، ج 8، ص 16.

(6) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **الإمامة والسياسة**، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ج1، ط3، 1963، ص163.

للرئاسة شـــغوفاً بها[1]. وهو يُفضَّل على أشراف رعيته، فلا يزال أشراف قريش[2] يفدون عليه بدمشـــق فيكرمهم ويقضي حوائجهم، ولا يزالون يحدثونه أغلظ الحديث ويجابهونه أقبـــح مجابهة، وهو يداعبهم تارة، ويتغافل عنهم أخرى، ولا يعيدهم إلا بالجوائز الســـنية والصلات الجمة.[3]

بهذه الصفات استطاع معاوية أن يكبح جماح المسلمين عامّة والخوارج خاصة، وأن يسوس الأمّة الإســـلامية سياسة تدل على الحكمة وحســـن التدبير. فضلاً عن ذلك، كان لمعاوية الفخر في معاصرته للخلفاء الراشدين الأربعة بكل مآثرهم السياسية والعسكرية والدينية، فضلاً عن أنه عاصر أيضاً النبيّ الكريم محمد (ﷺ) وكان كاتب وجيه. وقد اكتسب شهرته كقائد في البرّ، وقائد في البحر، وداهية في السياسة والإدارة بامتياز... وقلّما أنجز قائد مسلم ما أنجزه معاوية على مختلف الصعد والمستويات، في البر والبحر، وقد غدا من خلال ذلك، أمـــيراً في البرّ، وأمير الأمراء في البحر أيضاً... كما عُرف بـ «أبي البحرية الإســـلامية[4] مع العلم أنه كان في عاصمته دمشـــق، التي أصبحت عاصمة الخلافة بعد أن نقلها من الكوفة العراقية، التي اتخذها الإمام علي (رضي الله عنه). عاصمة لخلافته.

وزيادة في إيضاح مســـألة «الدهاء المعاويي»، فقد ذكر بسّـــام العسلي في كتابه عن «معاوية بن أبي ســـفيان» ما يلي: «لقد كان دهاة العرب وذوو الرأي والمكيدة خمسة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وقيس بن سعد، وعبد الله بن بديل الخزاعي، وها هو زياد بن أبي ســـفيان ينضم إليهم، وكلّهم أصبح تحت كنف معاوية وتحت قيادته، خاضعاً له، ومؤتمراً بأمره. فبرهن معاوية بذلـــك أنه أدهى دهاة العرب وأقواهم مكيدة، وأرجحهم رأياً، وأوقدهم ذهناً، وأخصبهم خيـــالاً، وأبعدهم في النظر إلى الأمور. ولقد

(1) ابن طبا طبا محمد بن علي (المعروف بابن الطقطقا)، **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**، دار صادر، بيروت (د. ط)، 1966، ص 104.

(2) أمثـــال: عبد الله بن العباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وأناس من آل أبي طالب. (ابن طبا طبا، **المصدر نفسه**، ص104).

(3) ابن طبا طبا، **المصدر نفسه**، ص 104. وابن كثير، **مصدر سابق**، ج 8، ص 137.

(4) أنظر كلمه أحمد راتب عرموش في تقديمه لكتاب بســـام العســـلي عن «معاوية بن أبي ســـفيان»، دار النفائس، بيروت، ط 8، 2019، في 5.

أخضع معاوية من أخضع بسيفه، وتألّف قلوبَ مَن تألّفهم بدهائه وكرمه، وهيمن على مَن هو عاقلٌ بعقله، وجاء الحظ والصدفة لخدمته، فتجمّعت كل العوامل لسيادته على العالم الإسلامي. وكان عليٌّ يدعى بالعراق أمير المؤمنين، وكان معاوية يدعى بالشام الأمير، فلما قُتل علي دُعي معاوية أمير المؤمنين، وأُطلق على سنة (40 هـ) إسم عام الجماعة». [1] [2]

هذا، ولعلّ في بعض كلمات معاوية نفسه، ما يدل دلالة واضحة على دهائه، ومن بينها بالطبع عبارته الشهيرة القائلة:

«لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت... وإذا مدّوها خلّيتها، وإذا خلّوها مددتها». [3]

وخرج عمر بن الخطاب إلى الشام فرأى معاوية في موكب يتلقاه، فقال له عمر: يا معاوية! تروح في موكب وتغدو في مثله، وبلغني أنّك تصبح في منزلك وذوو الحاجات ببابك»! قال: «يا أمير المؤمنين إن العدوّ بها قريب منّا ولهم عيون وجواسيس، فأردت يا أمير المؤمنين أن يروا للإسلام عزّاً». فقال له عمر: «إن هذا لكيد رجل لبيب، أو خدعة رجل أريب». فقال معاوية «يا أمير المؤمنين! مُرْني بما شئت أصِرْ إليه». قال: ويحك! ما ناظرتك في أمرٍ أعيب عليك فيه إلا تركتني ما أدري آمرك أم أنهاك» [4]. ولهذا أطلق عليه الفاروق عمر لقب «كسرى العرب».

وتحدث بعض الناس في مجلس عمر، عن دهاء كسرى وقيصر، فقال عمر: «تذكرون كسرى وقيصر ودهاءهما، وعندكم معاوية؟» [5]. كما قال فيه ابن طباطبا أيضاً: «كان معاوية مربيّ

(1) العسلي، بسّام، **معاوية بن أبي سفيان** (من سلسلة مشاهير قادة الإسلام – رقم 8)، دار النفائس، بيروت، ط 8، 2019، ص 97 – 8.

(2) سمي بـ «عام الجماعة» لاجتماع الأمّة فيه على خليفة واحد (اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، مصدر سابق، ج 2، ص 123. وابن كثير، **مصدر سابق**، ج 8، ص 16).

(3) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، ج 5، مصدر سابق، ص 330، واليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج2، مصدر سابق، ص 238.

(4) **المصدر نفسه**، ج5، ص 331.

(5) **المصدر نفسه**، ج5، ص 330.

دول وسائس أمم، وراعي ممالك». [1]

وهكذا يبدو أن معاوية كان له منهجيّة سياسية في الحكم، كان «الدهاء» ركيزتها الأساسية.

ولقد انطوت بيعة الحسن لمعاوية على مرحلة هامّة من مراحل التاريخ الإسلامي. إنّها طوت العصر الراشدي وافتتحت العصر الأموي، وأدّت إلى عودة الأسرة الهاشمية إلى موقع المعارضة في السلطة، بعد مراحل طويلة من الصراع، حيث انتهت جولة أخرى لصالح الأمويين. وبدأ بعام الجماعة عهد جديد من عهود الحكم في الدولة الإسلامية، التي استعادت وحدتها السياسية مع اعتلاء معاوية سدة الخلافة في دمشق التي أضحت العاصمة المركزية للدولة الجديدة. [2]

لقد كان معاوية أرحب أفقاً، وأبعد مدى من المحيط الذي حوله. وكانت تطلعاته إلى قيام دولة إسلامية يسودها الرخاء والعدل، وينتهي فيها سيل الدماء إلى الأبد، في رأس اهتماماته، لذلك اجتهد أن يقيم صرح دولته على عدّة أركان لعل أهمها:

1 – التغييرات في بنية النظام السياسي، وتتمحور حول دور الجيش، الذي أنشأه ونظَّمه منذ أن كان والياً على الشام، في تحقيق الاستقرار في الداخل، والتوسع في الخارج.

2 – السياسة الداخلية، وتتناول الإدارة وتحقيق التوازن القبلي وتأمين ولاية العهد، وإخضاع المعارضة.

3 – الإحسان إلى كبار الشخصيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم، خاصة بنو هاشم.

4 – توطيد الأمن في ربوع العالم الإسلامي. فاختار، من أجل ذلك، أكفأ الرجال في الإدارة والسياسة ليساعدوه في إدارة الدولة وتحقيق الاستقرار فيها [3].

---

(1) ابن طب طبا، **مصدر سابق**، ص 106.

(2) بيضون، إبراهيم : **ملامح التيارات السياسية**، في القرن الأول الهجري، دار النهضة العربية، بيروت 1979، ص147.

(3) أمثال: عتبة بن أبي سفيان ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومسلمة بن مخلد وزياد بن أبيه. (انظر: طقوش، **مرجع سابق**، ص 16).

5 – مباشرة أمور الدولة بنفســـه، حيث كرّس كل وقته وجهده من أجل رعاية مصالح المسلمين[1].

6 – السياســـة التوسعية: فقد اعتمد معاوية في تحقيق ذلك على مواهبه السياسية حيث كان على درجة عالية من الذكاء،والمرونة بالإضافة إلى أنه أنشـــأ علاقات اجتماعية اســـتقطبت الحلفاء وأضعفت الخصوم، واضطرته الظروف السياســـية، التي أحاطت بدولته الناشئة، أن يعمل على صعيدين: صعيد التحالف الســـكان الأصليين مع في بلاد الشـــام لا ســـيما المسيحيين منهم، وصعيد التحالف مع أقوى القبائل العربية، وهي القبائل اليمنية[2]، التي ساندته في الوصول إلى الحكم، وقد شكلت ركيزة حكمه. وثبت هذا التحالف زواجه من ميســـون الكلبية، وزواج ولده يزيد بامرأة منهم. ويوضح لنا هذا التحالف الخط السياسي الذي اعتمده في علاقاته العامة.[3]

واســـتناداً إلى منهجيـــة معاوية في السياســـة والحكم، لا بد من الإشـــارة إلى أبرز عملياته الدهائية في تحقيق أهدافه، عبر صراعه مع قوى الداخل من خصومه، والتي تشكل بالتالي دليلاً على نهجه الذي أدى به إلى التحكم برقاب العرب والمسلمين. ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

أولاً: مهـــما قيل في دهـــاء معاوية، ودهاء الثلاثة الآخرين من القادة المســـلمين: عمرو بن العاص، والمغيرة بن شـــعبة، و زياد بن أبيه، فقد تمكّن معاوية من جمعهم تحت عباءته، إن لم يكن بقناعة منهم، فلمصلحة لديهم ولا شـــك لم يجدوها عند غير معاوية. وفي هذا الإطار يقول عباس محمود العقاد ما يلي:

---

(1) المســـعودي، أبو الحسن علي بن الحســـن، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج 3، دار الأندلس، بيروت (د. ت)، ص39 – 41.

(2) من بين السمات التي ميزت المجتمع الجاهلي هي انقسام هذا المجتمع إلى عصبيتين قيسية ويمنية حيث تمثلت القيسية بقبائل نزار وتميم وربيعة ومضر من عرب الشمال، بينما تمثلت اليمنية بقبائل أخرى هاجرت من جنوبي الجزيرة العربية واستوطنت بلاد الشام وغيرها من البلاد المفتوحة منها قبائل الأزد، وتزعمت قبيلة كلب يمنية الشام. (طقوش، مرجع سابق، ص 17).

(3) لقد شكّل زواج معاوية هذا حلفاً سياسياً مع قبيلة كلب التي اعتبر أفرادها أنفسهم أنهم جميعاً أخوال ولي العهد وبالتالي الحماة الطبيعيين للبيت الحاكم.

«إن رواة التاريــخ العربي يحدثوننا كعادتهم في التوصيف والتقســيم، عن دهاتهم في صدر الإسلام فيقولون أنهم أربعة: عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، ومعاوية بن أبي ســفيان، ويقولون أن ابن العاص للبديهة، والمغيرة للمعضلات، وزياد لكل كبيرة وصغيرة، ومعاوية للرويّة». ويضيف العقاد قائلاً:

«وهذا تقســيم صحيح في جملته على الإيجاز، وقد يعرض بعض التعديل عند الإســهاب والتفصيل. ولكن الرأي الذي لاشك فيه أنهم جميعاً الدهاة على اختلاف نوع الدهاء. وإن دهاء الثلاثة الأولين هو الذي قادهم إلى معاوية ولم يكن دهاء معاوية هو الذي قادهم إليه. فقد عرفوا مطالبهم وعرفوا أنهم يجدونها عند معاوية حيث لا يجدونها عند غيره. ولو أنهم استطاعوا أن ينازعوه الخلافة لما سلّموها له طوعاً ولما قنعوا منه بالنصيب الذي ارتضوه في خلافته. ولكن الخلافة كانت مطلباً بعيداً عليهم فلم يضيعوا فيه جهودهم ونظروا إلى غاية المطالب دونه فبلغوه بجهد يسير». [1]

ومن المعروف أن دهاء عمرو بن العاص هو الذي أوصله لحكم ولاية مصر. ودهاء المغيرة بن شــعبة هو الذي أبقاه والياً على الكوفة بعد انفراده بيزيد وإغرائه بفكرة «ولاية العهد» التي عرضها على والده معاوية، فأعجبته وســار بها، ناســفاً لمبدأ «الشورى» في الإسلام. لكــن زياد بن أبيه، كان يختلف عن الإثنين كونه والياً على أقاليم من بلاد فارس ولديه قوة المال والجند، فاستغل معاوية مغمورية نسبه وقرّبه إليه بالنسب، فكسبه إلى جانبه.

ثانياً: بيعة الحسن (رضي الله عنه) لمعاوية كانت عملاً من أعمال الدهاء التي تميز بها الخليفة الأمــوي الجديد. ولولاها لما كان بإمكان معاوية أن يعلن نفســه خليفة وأميراً للمؤمنين. ولكن «لــو لم يكن معاوية على حظ من الدهاء – قلّ أو كثر – لما اســتعصى عليه أن يظفر من الحسن بالمصالحة على شروطه، فضلاً عن المصالحة على الشروط التي أمليت عليه». [2]

ثالثــاً: قبل ذلك، كانت فكرة «التحكيم» إثر معركة صفّين بين الإمام علي ومعاوية. وهذه الفكــرة التحكيمية تفتّقت عن دهاء عمر و بن العــاص (القائد الأموي فيها)، ومفادها: رفــع المصاحف على رؤوس الرماح، فقبل فيها الإمام علي مرغماً، وكان من نتيجته خروج

(1) العقاد، عباس محمود، معاوية بن أبي سفيان، مرجع سابق، ص 31.

(2) العقاد، عباس محمود، المرجع نفسه، ص 38.

جماعة من أنصاره عليه، فسمّوا بـ «الخوارج»، وعلى أيديهم كانت عملية اغتياله عام 40 هـ.

وكانـــت خطة بن العاص في ذلك ما قاله لمعاوية: «نرفـــع المصاحف ثم نقول: لما فيها هذا حكم بيننا وبينكم فإن أبى بعضهـــم أن يقبلها وجدت فيهم من يقول: ينبغي لنا أن نقبل، فتكون فرقة بينهم، وإن قبلوا ما فيها رفعنا القتال عنا إلى أجل». [1] و«يعتبر قبول الإمام علي في التحكيم أول الوهن في مركزه كخليفة للمســـلمين لأن قبوله وإن كان مرغماً بهذا المبدأ هو اعتراف ضمني بخصمه الذي لا يحمل من الحق ما يجعله يقف في وجه الخليفة». [2]

وقد اختار أهل الشـــام كلهم عمرو بن العاص (الداهيـــة المحنّك) بينما اختار أتباع علي أبا موسى الأشـــعري... وكانت «وثيقة التحكيم» بينهما حسب الحكم بكتاب الله وسنّة نبيّه (صلى الله عليه وســـلم)... وجاءت النتيجة كما هو معروف، خدعة ابن العاص للأشعري بتثبيـــت معاوية وخلع علي، بعـــد اتفاقهما على خلع الإثنين معـــاً. [3] وهكذا دخل العرب والمســـلمون في عهد من الحكم الجديد إثر أفول نجم الخلافة الراشدة وبداية النهاية لها في قبول علي بالتحكيـــم، كما بدأت فرقة الخوارج منذ ذلك الحـــين عاملاً جديداً من عوامل تفكك المسلمين والتقريب من نهاية علي بن أبي طالب، وهكذا كان. [4]

رابعـــاً: تميز معاوية بكثرة «أعطياته» التي كان لهـــا «بُعدٌ دهائي»، إذ كان يقول: «إذا لم يكن الأموي مصلحاً لماله، حليماً، لم يشبه من هو منه، وإذا لم يكن الهاشمي سخياً جواداً لم يشبه من هو منه، ولا يقدمك من الهاشـــمي اللسان والسخاء والشجاعة». [5] ولعلّ حادثة عقيل بن أبي طالب تمثل نموذجاً لدهاء معاويـــة، ومفادها: «ذهب عقيل بن أبي طالب إلى أخيه يطلب منه مالاً لسداد ديون عليه فأنظره موعد العطاء له ولسائر أصحاب الأعطية، فتركه

(1) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 3، دار صادر، بيروت 1965 ص 316.

(2) الحرابي، منصور أحمد، **الدولة العربية الإســـلامية نشـــأتها ونظامها السياسي**، منشورات جمعية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط2، 1987، ص 116.

(3) الدينـــوري، أبو حنيفة أحمد بـــن داوود، **الأخبار الطوال**، تحقيق عبد المنعـــم عامر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1960، ص 194 – 196.

(4) الحرابي، منصور أحمد، مرجع سابق، ص 117.

(5) الطبري، مصدر سابق، ج 5، ص 327.

وذهب إلى معاوية فقــضى له جميع ديونه وقال له بعد أيام: أنــا خير لك من أخيك.. قال عقيل: صدقت! إن أخي آثر دينه على دنيــاه، وأنت آثرت دنياك على دينك، فأنت خير لي من أخي وأخي خير لنفسك منك!». [1]

فكل دهاء يذكر لمعاوية فإنما يذكر إلى جانبه عطاء وولاية يستفيد منها من ينصره ولا ينخدع عنها في مبادلة النفع بينه وبينــه. ولا جرم كان العطاء عماد هذا الدهاء، وكان نقش الخاتم الذي تختم به بعد ولايته: «لكل عمل ثواب». [2]

وبالفعل كانت سياســة العطاء (أو الأعطيات) التي اتبعها معاوية وســار عليها، وسيلة كسب من خلالها قلوب الأصدقاء والأعداء، وقوّت مركزه وحكمه.

خامساً: تفنّن معاوية في الأساليب والخطط الدهائية التي اتبعها، حيث كانت له حيلته التي كررها وأتقنها وبرع فيها واستخدمها مع خصومه في الدولة من المسلمين وغير المسلمين، وكان قوام تلك الحيلة العمل الدائم على التفرقة والتخذيل بين خصومه بإلقاء الشــبهات بينهم وإثارة الأحن فيهم، ومنهم من كانوا من أهل بيته وذوي قرباه.

كان لا يطيــق أن يرى رجلين ذوي خطر على وفــاق، وكان التنافس «الفطري» بين ذوي الأخطار مما يعينه على الإيقاع بينهم كما كان يحدث بين المغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص بغير تدبير منه أو بتدبير هين لا تخفى خبيئته على الرجلين.

ودأبه في الوقيعة بين أهل بيته كدأبــه في الوقيعة بين النظراء من أعوانه. فلم يكن يطيق أن يتفق بنو أمية من غير بيت أبي سفيان، ولم يكن ليهدأ ويستريح أو يوقع بين آل عمومته من بني العاص.. [3]

وبلــغ في دهائه أنه فلو اســتطاع أن يجعل من كل رجل في دولتــه حزباً منابذاً لغيره من رجال الدولة كافة لفعل، ولو حاســبه التاريخ حســابه الصحيح لما وصفه بغير مفرّق الجماعات. ولكن العبرة لقــارىء التاريخ فى زنة الأعمال والرجال أن تجد من المؤرخين

(1) العقاد، عباس محمود، مرجع سابق، ص 39.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3) العقاد، المرجع نفسه، ص 41 – 42.

من يسـمّي عامه حين انفرد بالدولة عام الجماعة، لأنه فرق الأمة شيعاً شيعاً فلا تعرف كيف تتفق إذا حاولت الاتفاق، وما لبث أن تركها بعده تختلف في عهد كل خليفة شيعاً شيعاً بين ولاة العهود! [1]

وكانت خطة التفرقة عامة عنده لا يقصرها على الخصوم ليضرب بعضهم ببعض. باعتبار أنه حاول هذا الأسـلوب في التفرقة بين المهاجرين والأنصار، كما بين مكة والمدينة، وبين أهـل مكة وأهـل الطائف ففرق بينهما تفرقـة كبرى. وكانت الطائف عـلى عهد معاوية وخلفائـه كالحرس على أهل مكـة ممن بقي فيها غير الأمويين السـفيانيين، وقد أوقع بين هؤلاء الأمويين كما تقدم فقسـمهم بين بني حرب وبني العاص، وقسـم بني العاص بين بيت سـعيد وبيت مروان. وكذلك كان الحال مع النزاع بين العصبيتين اليمانية والمضرية أو بين الكلبيين والقيسيين وتحريضهم على بعضهم البعض. [2]

سادساً: كما تفنّن معاوية في التفرقة بين الأنصار والخصوم، فقد برع أيضاً في لون من ألوان الدهاء هو «إلقاء الشـبهة» بين خصومه. هكذا هو الحال مع بطارقة الروم الذين استعصا عليه اسـتمالتهم وكذلك مع قيس بن سـعد الذي أوقع الريبة منه في نفس الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه). والمعروف أن قيس بن سـعد أثقـل الناس على معاوية بن أبي سفيان لقربه من الشام، مخافة أن يقبل عليه في أهل مصر، وأن يقبل عليه علي في أهل مصر، فكتب معاوية إلى قيس في محاولة لاسـتمالته، ولكن قيساً امتنع عليه وراوغه، فلجأ معاوية إلى الحيلة، فاختلق كتاباً من قيس بن سعد، فقرأه على أهل الشام، وفيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

للأمير معاوية بن أبي سـفيان من قيس بن سعد. سـلام عليك، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإني لما نظرت رأيت أنه لا يسـعني مظاهرة قوم قتلوا إمامهم مسلماً محرماً براً تقياً، فنسـتغفر الله عزّ وجلّ لذنوبنا، ونسـأله العصمة لديننا ألا وإني قد ألقيت إليكم بالسـلم وإني أجبتك إلى قتال قتلة عثمان، إمام الهدى المظلوم، فعوّل عليَّ فيما أحببت

(1) المرجع نفسه، ص 43.

(2) المرجع نفسه، ص 43 – 44.

من الأموال والرجال أعجل عليك، والسلام».[1] وأشاع معاوية ذلك بين أنصاره، وقال لأهل الشام: «لا تسبوا قيس بن سعد، ولا تدعوا إلى غزوه، فإنه لنا شيعة».

وانتشر ذلك بين أهل الشام والعراق، وسمع به جواسيس عليّ، فلما بلغ ذلك علياً اتهم قيساً.[2]

وهكذا كان قيس بن سعد ضحية هذه الحيلة الدهائية لمعاوية، والتي كانت من أنجح الحيل في سياسته مع خصومه.

سابعاً: لجأ معاوية بن أبي سفيان أيضاً إلى فنّ دهائي تمثّل بـ« وسائل خفيّة»، عبّرت عنها سياسته استخدام سلاح «السم المعسول» في القضاء على ألدّ خصومه، وأشهرهم: الحسن بن علي، والأشتر النخعي، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد. وهذا ما يُعرف في عصرنا الحاضر به «الاغتيال السياسي». مع العلم أن معاوية لم يكن شخصياً من نفّذ عمليات الاغتيال السياسي هذه، لكن أصابع الاتهام تشير إليه باعتباره المستفيد الأول بتدبيرها. وهنا نتساءل: كيف تمّت تصفية هؤلاء؟ وعلى يد من؟ نُقل عن معاوية يومها قوله بعد موت مالك بن الأشتر قوله: «إن لله جنوداً من عسل»[3]، وقد كان موت الأشتر بعد شربة من العسل لم تمهله غير ساعات.

وجاء في أخبار موت مالك بن الأشتر: « خرج الأشتر يتجهز إلى مصر وأتت معاوية عيونه بذلك فعظم عليه وكان قد طمع في مصر. فعلم أن الأشتر إن قدمها كان أشد عليه من محمد بن أبي بكر. فبعث معاوية إلى المقدم على أهل الخراج بالقلزم وقال له: إن الأشتر قد وُلي مصر فإن كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت وبقيت. فخرج الجايسات – وفي رواية الطبري الجايستار – حتى أتى القلزم وأقام به وخرج الأشتر من العراق إلى مصر، فلما انتهى إلى القلزم استقبله ذلك الرجل فعرض عليه النزول فنزل عنده. فأتاه بطعام فلما أكل أتاه بشربة من عسل قد جعل فيه سماً فسقاه إياه فلما شربها مات... وقام معاوية خطيباً ثم قال: «أما بعد... فإنه كانت لعلي يمينان فقطعت إحداهما بصفين –يعني عمار بن ياسر –

(1) العسلي، بسام، معاوية...، مرجع سابق، ص 82.

(2) المرجع نفسه، ص 83.

(3) ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، بيروت، 1959، ص 174.

وقطعت الأخرى اليوم – يعني الأشتر». [1]

أما عن مقتل الحسن بن علي، فقد كانت عملية اغتياله بالسمّ أيضاً عبر إبنة الأشعث (جعدة الكندي) الذي أغراها معاوية بتزويجها من يزيد على أن تسمّم الحسن بن علي. وبعث إليها بمائة ألف درهم فقبلت وسمّمت الحسن، لكنّه لم يزوّجها بيزيد، فنكث بوعده. [2]

كذلك الحال مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد، الذي مات مسموماً أيضاً – حسب الرواية الواحدة لابن الأثير (في كتابه الكامل في التاريخ) والطبري (في تاريخ الرسل والملوك) عن موت عبد الرحمن، حيث أنه كان قد عظم شأنه عند أهل الشام ومالوا إليه لما عندهم من آثار أبيه ولغنائه في بلاد الروم ولشدة بأسه، فخافه معاوية وخشي منه، وأمر ابن آثال النصراني أن يحتال في قتله وضمن له أن يضع خراجه ما عاش وأن يوليه خراج حمص، فلما قدم عبد الرحمن من الروم دسّ له ابن آثال شربة مسمومة مع بعض مماليكه فشربها فمات بحمص فوفى له معاوية بما ضمن له. [3] ويؤكد الطبري بدوره، أن رجلًا يقال له ابن آثال – وكان رئيس الذمّة من النصارى – قد سقى عبد الرحمن بن خالد بن الوليد شربة فيها سم فمات، وأن ذلك بأمر من معاوية. [4]

وممّا لا شك فيه، أن هذه الاغتيالات المسمومة، كان لها أهداف آنية وبعيدة في الوقت نفسه، حيث يتبين أن مالك بن الأشتر قتل في الخلافة الراشدة، أما الحسن بن علي وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد قتلا في الخلافة الأموية. والقاسم المشترك في عمليات القتل هذه هو: السم. وقد تخصص فيه معاوية على ما يبدو بفضل الطبيب السرياني أبن آثال، الشهير بـ

(1) العلوي، هادي، **الاغتيال السياسي في الإسلام**، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ط 4، 2004، ص 52 – 54.

(2) المصدر نفسه، ص 171. وابن كثير، **البداية والنهاية**، حوادث سنة 49 ابن أبي حديد، شرح نهج البلاغة، ج 4، ص 5.

(3) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، مصدر سابق، أحداث سنة 46 هـ.

(4) الطبري، **تاريخ الرسل والملوك**، مصدر سابق، حول موت عبد الرحمن بن خالد بن الوليد عام 46هـ. وابن عساكر، ترجمة خالد بن عبد الرحمن، ج 5، ص 82. وابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، مصدر سابق، ص 174. (حيث يذكر أيضاً ترجمة الطبيب ابن آثال الذي كان يستحضر السموم لمعاوية بن أبي سفيان) راجع: العلوي، هاوي، مرجع سابق، ص 62 – 63.

«إنتاج السموم وتحضيرها».[1]

إذ أن موت الحسن كان قبل بيعة يزيد كي لا يخرج معاوية على شرطه المكتوب للحسن حول مبدأ الشورى والإلتزام به. ومالك بن الأشتر يموت على أبواب مصر، وخوف معاوية من امتلاكها. وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد قتل في حمص بعد إحرازه نجاحات باهرة ضد الروم البيزنطيين أكسبته شهرة واسعة أضيفت إلى شهرة والده بين أهل الشام، من خلال «شربة عسل» مسموم.

وعلى هذا الأساس قلنا في بداية هذا الحديث عن «سلاح السم المعسول»... وأعتقد أنّه يعبّر تغييراً خالصاً عن مخطط «الاغتيال السياسي» المبرمج والمنظم.

خلاصة القول، أنه يمكننا أن نطلق على المرحلة الأولى من حكم الأمويين (لاسيما في عهد معاوية وحكمه في الشام) مرحلة الحرب الأهلية أو مرحلة الصراع على السلطة التي استمرت حتى تنازل الحسن بن علي لمعاوية عن الخلافة سنة 41 هـ. وبعد أن استقرت الأمور لمعاوية انصرف إلى تنظيم شؤون دولته، وأولى القوات المسلحة اهتماماً خاصاً، وتفرّغ لفتوحاته في البرّ و البحر، وساعده في ذلك استمرار مدّة حكمه ما يقارب عشرين سنة (من سنة 41 إلى 60ه / 661 – 680م). كما اعتمد في إدارة دولته وسياسته على «الدهاء»، خصوصاً في اعتماده على الولاة الأكفاء، والدهاة من أمثاله. إذ كفاه زياد بن أبيه خطر الخوارج والشيعة في العراق مثلاً، وذلك بعد أن ألحقه معاوية بنسبه، وعدّه أخاً له من أبيه، وولّاه العراق، كما عهد بإدارة مصر إلى عمرو بن العاص، والإثنان من الصحابة القادة البارزين، والدهاة المعروفين.[2]

الدهاء والخداع عند عمرو بن العاص

كثيرة هي الكتب والمؤلفات، كما الكثير من الكتاب والمؤلفين الذين تناولوا قادة مسلمين بارزين في ميدان القتال، كما في ميدان الدبلوماسية. وكان عمرو بن العاص أحد هؤلاء القادة المسلمين الذين ذكروا في التاريخ، كشخصية مميزة في التاريخ العربي والإسلامي،

(1) المرجع نفسه، ص 63.

(2) للتوسع في ذلك، راجع كتاب: عرموش، أحمد راتب، المؤسسة العسكرية في الإسلام، دار النفائس، بيروت، ط 2، 2019، ص117 – 118.

جمعت صفتي الحرب والدبلوماسية معاً، فضلاً عن اعتباره أحد كبار «الدهاة» في العرب والإسلام. حتى أن البعض عندما كتب عن عمرو بن العاص وصفه بـ «الجندي الدبلوماسي الأريب» و«داهية العرب».[1]

فماذا عن هذه الشخصية التاريخية من مختلف جوانبها؟ وماذا عن صفة «الدهاء» التي تميّزت فيها (حيث عرفت بـ «دبلوماسية الدهاء» و«الدهاء الدبلوماسي) ؟

ولد عمرو بن العاص في مكة سنة 50 قبل الهجرة وتوفي سنة 43هـ. أي أنّه ولد سنة 574 وتوفّي سنة 664 م. أبوه العاص بن وائل بن هاشم السهمي، من قريش: أحد الحكام في الجاهلية، وزعيم بني سهم، وأحد سادات قرش الذين كلّموا أبا طالب (عم النبيّ) في صدّ رسول الله عن دعوته، وأمّه سلمى بنت حرملة[2].

وقد جاء في معجم «الأعلام» للزركلي ما يلي:

«عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، أبو عبد الله، فاتح مصر، وأحد عظماء العرب ودهاتهم وأولي الرأي والحزم والمكيدة فيهم. كان في الجاهلية من الأشدّاء على الإسلام، وأسلم في هدنة الحديبية. وولّاه النبيّ الكريم ﷺ إمرة جيش «ذات السلاسل»، وأمدّه بأبي بكر وعمر. ثم استعمله على عُمان. ثم كان من أمراء الجيوش في الجهاد بالشام زمن الخليفة عمر بن الخطاب. وهو الذي فتح قنسرين، وصالح أهل حلب ومنبج وأنطاكية، وولّاه عمر فلسطين، ثم مصر فافتتحها، وعزله عثمان. ولما كانت الفتنة بين الإمام علي بن أبي طالب ومعاوية، كان بن العاص مع معاوية، فولّاه معاوية مصر سنة 38هـ، وأطلق له خراجها ست سنوات فجمع أموالاً طائلة. ثم توفي في القاهرة...».[3] كما شارك في معركة اليرموك مع باقي الجيوش الإسلامية وذلك عقب وصول خالد بن الوليد من العراق بعد

(1) فرج، سيّد، **أدهى رجال الحرب في الشرق والغرب**، مطبعة الشعب، القاهرة، 1970، ص 83 و85.

(2) الكاتب، سيف الدين، **عمرو بن العاص السهمي**، دار إقرأ، بيروت، 1981، ص 9.

(3) الزركلي، خير الدين، **الأعلام**، قاموس تراجم، الجزء الخامس، دار العلم للملايين، بيروت، ط 13، أيار 1981، ص79.

أن تغلّب على جيوش الفرس[1].

هذا، وبالإضافة إلى ما ذكـــره الزركلي حول صفات عمرو بن العاص، فقد قال فيه محمود شـــيت خطاب أيضاً ما يلي: كان معدوداً بين صناديد قريش وفرســـانها في الجاهلية، وكان إلى ذلك حليماً ذكياً عارفاً بالقراءة والكتابة، بليغاً جيّد الكلام، وله شعر وأمثال ومقالات تشـــهد ببلاغته، ولعلّ كتابه إلى عمر بن الخطاب يصف فيه (مصر) يُعدّ من أبلغ الرسائل ليـــس في العربية فقط بل في لغـــات العالم».[2] كـــما أن الكاتب الفرنـــسي أوكتاف أوزان (Octave Ozan)، قـــد نشر ترجمة نص كتاب عمرو هذا، ووصفه بأنه: «من أكبر آيات البلاغة في كل لغات العالم»[3].

والجدير بالذكر، أن أمهات المصادر العربية ومؤلّفيها تناولوا سيرة عمرو بن العاص، وكان من بينها على ســـبيل المثال لا الحصر: ابن هشام في سيرته النبوية[4]، وابن عبد البّر القرطبي في كتابه «الاستيعاب»[5]، وابن الأثير في كتابه «الكامل في التاريخ»[6]، وابن اسحاق في كتابه «السير والمغازي»[7]. وغيرهم كثيرون.

في هذا الإطار، لا بدّ من الإشارة إلى ميزة «الدهاء» عند عمرو بن العاص، والتي لم تلتصق بشخصية إســـلامية مثلما التصقت به ... كما لم تتركه يدخل قبره كما دخله غيره من القادة، لأن هذه الصفة سبقته إلى القبر، واستقرت فيه مع صاحبها...

فما هي أبرز عمليات «الدهاء» عند عمرو بن العاص؟

كان عمرو من صناديد قريش، وقد اشـــترك في عدّة معارك ضد المســـلمين، فكان الخصم

(1) المنياوي، رمزي، **أشـــهر القادة العســـكرين الذين غيرّوا مجرى التاريخ**، دار الكتاب العربي (دمشق – القاهرة – بيروت)، ط1، 2014، ص 114.

(2) خطاب، محمود شيت، **قادة فتح الشام ومصر**، دار الفتح، بيروت، 1965، ص 154.

(3) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ عمرو بن العاص**، القاهرة، (د.ت.)، ص 169.

(4) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج1، مصدر سابق، ص 277.

(5) ابن عبد البر القرطبي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، دار الفكر، بيروت، ص 508.

(6) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج1، دار صادر، بيروت، 1965، ص 361.

(7) ابن اسحاق، **السير والمغازي**، مصدر سابق، ص 144 و148 و168...

العنيد والعدوّ الماكر، وقد جمع بين شدّة الجندية وحنكة السياسة. وحفل تاريخه بالأحداث والمبتكرات والمفاجآت التي تحدث بما كان عليه عمرو بن العاص من بعد النظر وحسن التقدير والتدبير. وقد أتى بأعمال غير معهودة وأساليب لم يسبقه إليها أحد. وكانت له في الحرب كفاية تضعه في صفّ كبار القادة ليس في وقته فحسب، وإنّما في جميع العصور.

فهو لم يعرف الحرب على أنها قتال فحسب، ولكن الحرب عنده – كجندي موهوب محنّك – جهاد بأساليب متعدّدة وأدوات «شتى» تتناول جميع الأشخاص والأشياء والوسائل. وهو جندي «ميكافللي» – الغاية عنده تبرّر الوسيلة – ولهذا فقد أدخل في الحرب كثيراً من ضروب الحيل والخدع والمكائد[1].

ومن هنا، نجح عمرو بن العاص في إدخال فكرة «المرأة في الحرب» نجاحاً كبيراً.

وعندما بدأت الحرب بين قريش والمسلمين كان عمرو مبعوث قريش لاستنفار العرب وتأليبهم، ففكّر في أمرٍ جريء وهو الاستعانة بالمرأة في الحرب، ورأى في ذلك ما يزيد همم الرجال.

وما يدفع المحبة في الصدور، فتصبح المعركة معركة عن الحمى وعن المعتقدات وعن الأعراض.

ونجحت الفكرة أيّما نجاح، وخرج للقتال مع قريش ثلاثة آلاف رجلاً وخمس عشرة إمرأة يصرخن وينحن، ويشجّعن الرجال ويحرّضنهم على القتال، وكنّ يقمن خلف الصفوف ويضربن الدفوف وينشدن:

نحن بنات طارق　　نمشي على النمارق

أن تقبلوا نعانق　　أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق[2]

يُضاف إلى ذلك، أن عمرو بن العاص فكّر بالقيام بالعمليات الليليّة إمعاناً في التستّر وتجنّباً

(1) فرج، سيد، **أدهى رجال الحرب** ...، مرجع سابق، ص 87.

(2) المرجع نفسه، ص 77 – 78.

للإجهاد وتحضيراً للمفاجأة، وتحويل أنظار العدو وأذهانه عن تحركاته. فصار يكمن نهاراً ويسير ليلاً. ومنع أنصاره من إضرام النار ليلاً كي يصطلوا بها، حتى لا ينكشف أمرهم وعددهم ... ولم يقامر بدخول معركة محفوفة بالمخاطر في ظروف دقيقة تستلزم الحيطة والحذر لأهمية نتائجها ... كما عمل على «توحيد القيادة» بأمرته، لا سيّما بعد أن بعث إليه النبيّ الكريم ﷺ أبا عبيدة بن الجراح وعقد له لواء .... فلمّا لحق بعمرو بن العاص وأراد أبو عبيدة أن يؤمّ بالناس ويتقدم عمرو، قال له عمرو: «انما قدمت مدداً، وليس لك أن تؤمّني وأنا الأمير»... وهكذا فرض وجوده وقيادته في هذه الغزوة (غزوة ذات السلاسل)، وكان النصر فيها للمسلمين بعد أن جعل القيادة كلها في يده...[1].

وكان عمرو أحد القادة العظماء الذين عهد إليهم القضاء على المرتدّين، فبدأ بقتال «قضاعة» – في شمال شبه الجزيرة – وقضى على الردّة فيها، ثم وصلت رسالة من الخليفة الصدّيق يخيّره أن يبقى حيث هو أو أن يسير إلى الشام فكان ردّ عمرو: «إنّي سهم من سهام الإسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها، فانظر أشدّها وأخشاها وأفضلها، فارم بها شيئاً إن جاءك ناحية من النواحي..»[2]. وعندئذ أمّره أبو بكر على فلسطين... ثمّ كان من قادة المعركة الكبرى ضد الروم، قائداً للميمنة في معركة اليرموك الفاصلة التي تمّ بها فتح السام.

وهكذا، قال المؤرخون أن الدهاء السياسي عند عمرو بن العاص، كان يفوق براعته الحربية، لاسيما في سعيه إلى الرياسة أو الإمارة.

هذا، وقد برز دهاء عمرو بن العاص أيضاً في «فتح أجنادين[3]». عام 13هـ، وكانت حصناً للروم في فلسطين، في الوقت الذي كان بن العاص يريد معرفة ما بداخل هذا الموقع الاستراتيجي، كي لا يتورّط في هجوم فاشل.

(1) فرج، سيد، المرجع نفسه، ص 89 – 90.

(2) المرجع نفسه، ص 91.

(3) أجنادين (بصيغة التثنية أو بصيغة الجمع) موضع بالشام من ناحية فلسطين، من الرملة من كورة بيت جبرين... وإحدى القواعد العسكريّة الرئيسيّة للروم في فلسطين. (الحموي، ياقوت، **معجم البلدان**، ج1، ص 103).

وبعــد أن دسّ عيونه داخلها ودفع بعناصر اســتطلاعية نحوها، صمّــم على أن يدخلها كضابط منتدب من قبل القائد العام للتفــاوض. وعندما وافق الأرطبون[1]* دخل عمرو إلى أجنادين متنكراً ومستطلعاً جميع المواقع والنقاط الحصينة فيها.

ولما انكشــف أمره من قبل «الأرطبون»، وصمّم على قتله عبر أحد ضبّاطه وهو في طريق العوده، تفتّقت عبقرية بن العاص ودهاؤه قائلاً للأرطبون: «لقد ســمعت مني وسمعت منك... وأنا واحد من عشرة فأرجع فآتيك بهم الآن»...

وهنا طمع الأرطبون في أن يقتل عشرة أمراء بدلاً من أمير واحد وكلّهم هيئة أركان حرب جيش الإسلام الذي يضرب عليه الحصار، لذلك عدل مؤقتاً عن اغتيال عمرو بن العاص وقال له انطلــق فجيء بأصحابك، فخرج عمــرو، ورأى أن لا يعود لمثلها. وعندما علم الرومــي بأن عمرواً خدعه. قــال: «خدعني الرّجل، هذا أدهى الخلــق»[2]، فبلغت عمر الخطاب. فقال:«غلبه عمرو، لله درّ عمــرو»[3]. وقد عرف الأرطبون الخدعة بعدما رأى جيوش الإسلام تتدفق على أبواب المدينة وأسوارها في هجوم كاسح. وبعدها كانت عبارة الخليفة عمر بن الخطاب الشــهيرة: «رمينا أرطبون الروم بأرطبــون العرب»[4]. إثر فتح أجنادين بالحيلة والدهاء: يعني أن العدو اعترف أيضاً بدهاء «ابن العاص»..

ولعلّ دهاء بن العاص في «قرار التحكيم» في معركة صفين، نموذج آخر بعد أن استشــهد عثمان بن عفان ســار عمرو بن العاص إلى معاوية بن أبي سفيان وشهد معه معركة صفّين. ولما اشتدّت الحرب على معاوية أشار عليه عمرو بن العاص بما عرف عليه من دهاء بطلب التحكيــم ورفعت المصاحف طلباً للهدنة. ولما رضي علي بــن أبي طالب بالتحكيم، وُكّل عمرو بن العاص حَكَماً عن معاوية بن أبي ســفيان كما وُكّل أبو موسى الأشعري حَكَماً عن

(1) * – الأرطبــون هو القائــد الرومي البيزنطي (ثيودور أخ هرقل) الــذي كان معروفاً بدهائه وذكائه. (توركماني، **الدهاء في الحرب**، مرجع سابق، ص 98 – 99)

(2) انظر: الطبري، **تاريخ الرسل الملوك**، دار المعارف بمصر،ج3، 1968، ص 605 – 606.

(3) قالها الرسول الكريم (ص) قبل ذلك.

(4) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج7، مصدر ســابق، ص 54. وكذلك: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج 2، مصدر سابق، ص 347.

علي بن أبي طالب. اتفق الحكمان أن يجتمع من بقي حياً من العشرة المبشّرين بالجنّة ويقرّروا مصير قتلة عثمان، ولم يكن قد بقي منهم إلا سعد بن أبي وقّاص وعلي بن أبي طالب وأسامة بـــن زيد. وهذا القرار لم ينفّذه علي. ثم إن معاوية أرســـله على جيش إلى مصر فأخذها من محمد بن أبي بكر ثم ولّاه معاوية على مصر [1].

والمعروف في ذلك، أن عمرو بن العاصى اســـتخدم دهاءه في هذا القرار، لاســـيما بعد أن اتفق مع أبي موسى الأشعري على خلع معاوية وعلي معاً. ثمّ كانت الحيلة يوم الاجتماع، عندما رفض عمرو أن يتقدمّ على الأشـــعري (الأكبر منه سناً)، فقال الأشعرى، (تنفيذاً للإتفـــاق): إني أخلع علي كما أخلع خاتمي من إصبعي... ثم تقدم ابن العاص ليقول: إنّي أثبّت معاوية كما أثبّت خاتمي في إصبعي... وهكذا انطلت الحيلة على الأشـــعري ونجح دهاء بن العاص في تثبيت معاوية في الحكم... ومن ثم خليفة... في هذا الاطار، وبالنسبة لفتح مـــصر ومنحها لحكم عمرو بـــن العاص، يقول عباس محمود العقـــاد ما يلي: «إن العظمة التي ثبتت لعمرو بن العاص بعـــد فتح مصر لا تقلّ عن عظمة الفاتح الجريء، ولا عظمة القائد الضليع بفنون الخدعة والإقدام. فقد عرف عمرو مصر وهو مقبل على حكمها، كما عرفها وهو مقبل على فتحها، فإذا هو صالح للعمار والقرار صلاحه للهجوم والحصار» [2].

وهكذا دخل عمرو ســـاحة التاريخ الذي وضعه في صف عباقرة الحرب والسياســـة. ولا غرو فقد كان عمرو الجندي الســـياسي الأديب الذي وُصف بحـــق بأنّه «داهية العرب»، والدبلوماسي الداهية، والداهية الدبلوماسي.

(1) المنياوي، رمزي، مرجع سابق، ص 115.

(2) العقاد، عباس محمود، **عمرو بن العاص**، القاهرة، د.ت، ص 74.

أهمية الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم في الدعوة إلى الله

سعد عوّاد بردي الحلبوسي – طالب دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة الجنان - تخصص: التفسير وعلوم القرآن

أبوبكر عزيز سعد آل غازي الرفاعي العاني – طالب دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية / جامعة الجنان - تخصص : التفسير وعلوم القرآن.

الملخص باللغة العربية

هدفت هذه الدراسة للتعرف على مفهوم الإعجاز التأثيري في الدعوة إلى الله، واستخدمت الدراسة المنهج الاستنباطي والاستقرائي. وقد تناولت الدراسة التعرف على مفهوم الإعجاز، وكذلك مفهوم التأثير في القرآن الكريم. وقد بينت الدراسة دور الإعجاز التأثيري في كيفية التأثير في نشر الدعوة إلى الله رب العالمين، وقد خرجت الدراسة بأهم النتائج، وهي:

أن أغلب العلماء وجدوا أن للقرآن الكريم قدرة تأثيرية في نفوس المستمعين لتلاوته مهما كانت معرفتهم في اللغة العربية، وحتى على غير الناطقين للغة العربية، وكذلك له تأثير في غير العرب، وفي نفوس البشرية عند سماعه، وحيث إن الاستماع لتلاوة القرآن الكريم عامل مؤثر وأساسي في دخول الناس قديماً وحديثاً في هذا الدين، وقد خرجت الدراسة بأهم التوصيات أن يعملوا جاهدين على إظهار جميع وجوه الإعجاز الأخرى المتعلقة الدعوة إلى الله التي أشار إليها بعض علمائنا الأفاضل من الأقدمين بأسلوب واضح وسهل مؤيد بالأدلة النقلية والعقلية.

الكلمات الدلالية: الإعجاز، التأثير، الدعوة، الإعجاز التأثيري

Abstract

The aim of this study is to identify the concept of the influential miracle in the Invitation to Allah and the study used the method of inference and inductive. The study dealt with the concept of miracles as well as the concept of influence in the Holy Quran. The study showed the role of the influential miracle in how to influence the dissemination of the Invitation to Allah the Lord of the Worlds. The study came out with the most important results, namely that most scholars found that the Qur'an has an influential ability in listeners to recite it, regardless of their knowledge in Arabic, and even on non - Arabic language. Speakers of the Arabic language, as well as has an impact on non - Arabs and in the souls of humanity when hearing it, and since listening to the recitation of the Holy Quran is an influential and essential factor in the entry of people old and new in this religion, the study came out with the most important recommendations to work hard to show all other miracles related to the Invitation to Allah referred to by some of our distinguished scholars of the oldest In a clear and easy way supported by transport and mental evidence

Key words:: Miracles, influence, invitation , affective miracles

المقدمة:

الحمـــد لله رب العالمين، حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم ســـلطانه، أنزل رســـالته بالعلم المســـتبين، وجعل كتابه رحمة للعالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل على عبـــده القرآن هدى للناس، فأزال معالم الوثنيّة والضـــلال، وأعلى منار التوحيد والإيمان، وأشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

أما بعد:

إن القــرآن الكريم بحر لأي مكان وزمان، وجعله دليلاً لصدق رســالتهّ، وأودع فيه من الحكــم والأسرار، ما يقضي المرء في تدبّرها الليل والنهار، وقد ســعد المســلمون الأوائل بتمســكهم بتعاليمه، والسير على نهجه وطريقه، لذا ســادوا العالم، وعاشوا حياة هنيئة في الدنيا، مع ما ينتظرهم من الثواب الجزيل في الآخرة.

لقد كثرت الدراســات والأبحاث حول الموضوعات القرآنية، وتخصصت مجموعة منها في إعجاز القرآن الكريم، خدمة له، ومحاولة لكشــف مكنوناته، واستخراج دُرره. ويعتبر الإعجاز التأثيري أحد هذه الأوجه التي تكشف عظمة هذا الكتاب. ولذلك جاء اختياري لموضوع الإعجاز التأثيري ليكون مجال كتابتي في هذا البحث، وسميته: (الإعجاز التأثيري وأهميته في الدعوة إلى الله)، والله أسأل أن ينفع به، ويجعله خالصا لوجه الكريم.

– مشكلة الدراسة وتساؤلاتها:

إن معجزة القرآن أكثر بروزا في العصر الحالي مما كانت عليه في الأزمنة السابقة التي سادها الجهل والخمول. هذا وقد ثبت في نماذج عديدة وجود عدة وجوه للإعجاز القرآني، ولكن هناك إعجاز لم يقف عنده كثير من الباحثين ألا وهو تأثيره في النفس الإنســانية وسلطانه العجيب على القلوب فإن الســامع للقــرآن الكريم تجده إذا اســتمع إليه ينجذب نحوه بخشوع وخشية قد تصل إلى القشــعريرة والبكاء. ولهذا أرى أن أقف على سر هذا التأثير القرآني والذي قد أشــار إليه الإمام الخطابي في رسالته. يتبين للباحث في موضوع الاعجاز القرآني أنه يتوجه نحو موضوعين هما الإعجاز البياني وهو ما يتحدث عن أسلوب القرآن الكريم وبلاغتــه وفصاحته مع نظمه و الآخر الإعجــاز الموضوعي وهو ما يتحدث عن موضوعات القرآن المطروحة مثل التشريعــات والحقائق العلمية الكريم وبما أن تأثيره في الغير يعتبر من تلــك الموضوعات فلذلك كان اختياري لهــذا الموضوع دون غيره في هذا البحــث، وبناء عليه فقد تمتع القرأن بتأثير عجيب إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ففيه خبر ما قبلنا ونبأ ما بعدنا، لقد باتت المعجزات الحســية لا تناســب التطور العلمي كما يناسبه القرآن، فالقرآن يخاطب في الإنســان القلب والروح والنفس؛ لذلك كان تأثيره في الناس أكثر، وعليه فقد جاءت مشكلة الدراسة واضحة في أهمية التأثير الوارد بالإعجاز القرآني، وكيف أثر بالدعوة في ســبيل الله تعالى وعليه فقد **تمثلت مشكلة الدراسة من خلال بعض**

التساؤلات وأما السؤال الرئيس فكان حسب الاتي :

– ما هي أهمية الإعجاز التأثيري في الدعوة إلى الله تعالى؟

ومن خلال السؤال الرئيس انبثقت الأسئلة الآتية:

السؤال الأول: ما المقصود بمفهوم الإعجاز لغة وإصطلاحاً؟

السؤال الثاني: ما المقصود بالتأثير لغة وإصطلاحاً؟

السؤال الثالث: ما هي الأهمية التي جاء بها الإعجاز التأثيري في الدعوة لدين الله؟

السؤال الرابع: ماهي العبر المستخلصة والمستقاة من الأثر الناجم من الإعجاز التأثيري في الدعوة الإسلامية؟

أهمية الدراسة: تمثلت أهمية الدراسة في أهم النقاط الآتية:

1. إن الإعجـــاز التشريعي يتضمن التشريعات المختلفة في العبادات، والمعـــاملات، والأخـلاق، وأنه نظام شامل لجميع أمور الحياة، ومناسب لكل زمان ومكان.
2. الإعجاز التأثيري هو وجه مســـتقل قائم بذاته من خـــلال بيانه للقدرة التأثيرية في الدعوة إلى الله على جميع مستويات الناس الثقافية والعقلية والاجتماعية.
3. ما من أحد يســـتمع إلى القرآن إلا ويتأثر به وتحدثه نفســـه بأنه الحق من عند الله وأن ما جاء به من أحكام وشرائع هي الحق يجب أن تطبق على صعيد الفرد والمجتمع بأسره.
4. إضافة دراسات للمكتبة الإسلامية تبحث في علوم الإعجاز ومدى تأثيرها على الناس.
5. الأجر والثواب المتحصل تصديقاً لحديث الرسول إذا مات ابن ادم انقطع عمله من ثلاث ومنه علم ينتفع منه..
6. خدمة كتاب الله تعالى وإصلاح الناس بالدعوة لدينه تعالى وتبين الحق وإحقاقه.

منهج البحث :

– استقراء المعلومات المتعلقة بالإعجاز التأثيري للقرآن من الكتب القديمة والحديثة، والتحليل والاستنباط لكل ما هو مفيد من خلال الاستقراء.

- الدقــة والأمانة في طــرح آراء العلماء حول هذه القضية، مــع ترجيح الراجح منها بالأدلة السمعية والعقلية.

- الرجوع إلى المصادر الرئيسة وأمهات الكتب الأساسية، بالإضافة إلى الكتب الحديثة المتعلقة بموضوع البحث.

- بيان الآيات القرآنية في سورها وتخريج الأحاديث النبوية الشريفة وتوثيق المعلومات المتعلقة بالبحث من مصادرها الأساسية.

الإطار النظري

1.الإعجاز والتأثير بين المفهوم والنشأة

1,1 مفهوم الإعجاز

1,1,1 - الإعجاز لغةً معنى الإعجاز هو الفوت والســبق، يقال: أعجزنـــي فلان أي فاتني، والتعجيـــز هو التثبيط، ومنه قـول االله تعالى (والذين سعوا في آياتنا معاجزين)[1]، بمعـنى أي ظـانين أنهــم يعجزوننــا لأنهم ظنوا أنهم لا يبعثون، وأنه أي لا إنس ولا جن.

1,1,1 - الاعجاز اصطلاحاً: تنــاول مفهوم الإعجاز حيث نذكر منها:[2]إعجاز القرآن كونه أمراً خارقاً للعاد[3]، وقال تعالى: ﴿ ولقد آتينا موســى تســع آيات بينات﴾[4]، فالآية والآيات هــي التي عبر عنها بالمعجــزات فيما بعد، ويغلب الظــن أن مصطلح الإعجاز والمعجزة لم يظهر قبل القرن الثاني الهجري، ولقد نشأ في بيئة المتكلمين الذين كانوا يـدافعون عـن القرآن الكريم، ويردون أباطيل الملاحدة والزنادقة وأهل الزيغ والأهواء[5].

(1) سورة سبأ أية رقم (5).

(2) نعيم الحمصي فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، ص ٩، مؤسسة الرسالة.

(3) مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن الكريم والبلاغة النبوية، ص 139، دار الكتاب العربي، بيروت.

(4) سوره الإسراء: 101.

(5) مصطفى صادق الرافعي، مصدر سبق ذكره ص ٢٨.

2 ,1 ,1 التأأثير لغة وإصطلاحاً

أولاً: التأثير لغة

أما التأثير هو أثر بالشئ أي أوجد علامة وما دل عليه، فهو مركّب إسنادي من أثر الشيء: أي حصول ما يدلّ عــلى وجوده، يقال: أثر الشيء وأثر، والجميع آثار، يقول الله تعالى: {ثم قفينا على آثارهم برســلنا}[1]، ويقول {وآثاراً في الأرض}[2]ويقول {فانظروا إلى آثار رحمة الله}[3]. ومن هذا يقال للطريق المســتدل من تقــدّم آثار {فهم على آثارهم يهرعــون}[4] ويقول {هم أولاء عــلى أثري} وأثرت البعير: جعلت على خفّه أثره، أي علامة تؤثّر في الأرض ليســتدلّ بهــا على أثره، وأثرت العلم: رويته، أثراً، وإثاره، وأثره، وأصله: تتبعت أثره فالتأثير في اللغة مأخــوذ من الأثر والنتيجــة، والمحصلة الدالّة على وجود مؤثّر ســواء أكان المؤثر حيّاً كما في قولهم (أثرت البعير) أم معنويّاً كما في قول الله تعالى: {فانظروا إلى آثار رحمة الله}[5] والآثار هي اللوازم المعلّقة بالشيء[6]، أو جملة الأمور التي تنتج عن الشيء المسبب لها.

ثانياً: التأثير إصطلاحاً

الإعجاز التأثيري: هو (وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم أشار إليه السابقون، ويتمثّل فيما يتركه القرآن الكريم من أثر ظاهر أو باطن على سامعه أو قارئه ولا يستطيع هذا السامع أو القــارئ مقاومته ودفعه ولا يقتصر ذلك على المؤمنين به).26 أو هو تأثير القرآن الكريم في النفس الإنسانية عندما تسمعه، وتفاعلها معه حتى لو كانت نفساً كافرة.

1 ,2 الدعوة لغة واصطلاحاً

1 ,1 ,2 أما الدعوة: لغة كلمة تطلق ويراد بها عدة معان.

(1) سورة الحديد اية رقم 27.

(2) سورة غافر ايةرقم 22.

(3) سورة الروم اية رقم (50).

(4) سورة الصافات اية رقم 70.

(5) سورة الروم آية 50.

(6) محمد أحمد أبو موسى، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية، مكتبة وهبة ط1 – 1984.

2 , 1 , 2 النداء يقال دعا فــلان فلاناً إذا ناداه وكما جاء في قوله تعالى: (ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ)[1] والسؤال كما في قوله تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ [2].وتعني العبادة كما في قوله تعالى: (وَأَدْعُو رَبِّي عَسَــى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَــقِيًّا) [3] أو هي النســب قال تعالى: (أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) [4].أو هي الدعوة إلى قضية يراد إثباتها أو الدفاع عنها سواء كانت حقاً أو باطلاً فمن الحق قوله تعالى: (والله يدعو إلى دارر السلام ويهدي من يشــاء إلى صراط مستقيم)[5] ومن الباطل حكمة القرآن عن يوسف عليه الســلام في قوله: (قال رب السجن احب الي مما يدعونني اليه)[6] أو هي المحاولة القولية أو الفعلية والعملية «لا مالة الناس إلى مذهب أوملة.[7]

2 , 1 , 2 – الدعوة في الاصطلاح :وردت فيها عدة تعاريف نذكر منها:

هــي القيام العلماء والمســتنيرين في الديــن بتعليم الجمهور من العامــة بتبصيرهم بأمور دينهم ودنياهم على قدر الطاقة [8]. وهي رســالة الســماء إلى الأرض، وهي هداية الخالق إلى المخلوق، وهي دين الله القويم وطريقه المســتقيم، وقــد اختارها الله وجعلها الطريق الموصل إليه ســبحانه: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهَّ الْإسلام) [9].ثم اختارها لعباده وفرضها عليهم، ولم يرضى بغيرها بديلاً عنها (وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإسلام دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِين [10].وهي هدم الجاهلية بكل أطوارها وأشــكالها، سواء كانت جاهلية أفكار، أم

(1) سورة الروم آية 25.

(2) سورة البقرة آية رقم 186.

(3) سورة مريم – آية (48).

(4) سورة مريم – آية (19).

(5) سورة يونس آية 27.

(6) سورة يوسف آية 33.

(7) ابن قدامة موفق الدين أبي محمد عبد الله بن حمد بن محمد (ت 620 هـ/ 1223 م) لمصباح المنير (بيروت مكتبة لبنان، دون طبعة ولا تاريخ ص27.

(8) الدعوة إلى الإسلام د/ أبو بكر ذكرى، ص .7

(9) سورة آل عمران – آية (19).

(10) الدعوة والدعاة للشيخ محمد الصواف، ص 22.

جاهلية نظم وشرائع، ومن ثم بناء المجتمع المسلم على قواعد الإسلام في شكله ومحتواه، في مظهره وجوهره، في تطلعه العقدي للكون والإنسان، والحياة[1]. وهذه تعاريف ثلاثة للدعوة وكلها تلتقي حول مضمون مهم جداً هو أن الدعوة ليست مقصورة على مجرد التعريف والبلاغ، بل قد تتعدى ذلك إلى البناء والتكوين وحين نقول الدعوة الإسلامية فإنما نقصد بها الرسالة الخاتمة التي نزلت على النبي محمد صلى الله عليه وسلم وحياً من عند الله في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بكلامه المعجز المكتوب في المصاحف المنقول عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر والتعبد بتلاوته.

1. الإعجاز بين النشأة والتكوين

1,0 – الإعجاز التأثيري النشأة والتاريخ:

تتمثل نشأة هذا الوجه الإعجازي للقرآن الكريم بنزول القرآن نفسه اتصالاً مباشراً وذلك لما يلي:

1,1. أولاً: مرحلة النشأة

أولاً: أمر الله تعالى في كتابه الحرص على إسماع المشركين القرآن الكريم ليكون ذلك عوناً على دعوتهم للإسلام. قال ابن حجر (ولا خلاف بين العقلاء أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته بعد تحدّيهم بذلك، قال الله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه}[2] فلولا أن سماعه حجّة عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجّة إلّا وهو معجز.[3] والمعجزة لا بد لها من أثر في من تعجزه إما تصديقاً أو تكذيباً.

ثانياً: ما ورد في كتب السيرة والتفسير وأغلب الكتب التي تتناول قضية الإعجاز عن لجوء رسول الله صلى الله عليه وسلم لإعجاز القرآن التأثيري كوسيلة أساسية من أسس الدعوة للإسلام وظهور أثر هذه الوسيلة الفعّال في كل من استعملت معه.

(1) – فتحي يكن، الإسلام فكرة حركة انقلاب – ص 39.

(2) سورة التوبة آية: 6.

(3) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – مطبعة المشهد الحسني –، 341، 342 ص، ط2 – 1951.

إما قبولاً واعتناقاً للإسلام أو نفوراً وإعراضاً عنه أو إقراراً لإعجاز القرآن في حاله.

ثالثـاً: إن الاعجاز التأثيري في هذه المرحلة وهي مرحلة النشـأة الأولى يتمثّل في الممارسـة والسّـلوك العمليّ للإعجاز نفسه دون التّأليف فيه أو وضع قواعد أو أصول له، وإنما تدلّ الشواهد الكثيرة على ممارسته في حياة المسـلمين. وبعد قرنين من الزمان وفي أوائل القرن الثالث الهجري أشـار الجاحظ من خلال حديثه عن الإعجاز البلاغي للقرآن إشـارات خاطفة للإعجاز التأثيري [1] وكذلك فعل الرماني في منتصف القرن الرابع.

1, 2 المرحلة الثانية: مرحلة التأهيل العلمي للإعجاز التأثيري:

كثير من علماء التفسـير والقرآن والبلاغة في القديم والحديث لاحظوا تأثير القرآن الكريم في القلـوب وأثره في النفوس فاعتبروا ذلك التأثير من وجـوه إعجاز القرآن وعبّروا عنه بعبارات متفاوتة وسأقف مع عدد من العلماء في القديم والحديث ممّن تحدّثوا عن الإعجاز التأثيري.

الخطابي أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي – ت 388هـ.[2]

يقول في كتابـه (الفوائد)[3] (إذا أردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسـماعه وألق سـمعك، واحضر حضور من يخاطبه به من تكلم به سبحانه منه إليه فإنه خطاب منه لك على لسـان رسـوله قال الله تعالى {إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد})[4]

وذلـك أن تمام التأثير لما كان له موقوفاً عـلى مؤثر مقتفى ومحل قابل وشرط لحصول الأثر وانتفاء المانع الذي يمنع منه.

تضمّنـت الآية بيان ذلك كلّـه بأوجز لفظ وأبينـه وأدلّة على المراد بقولـه {إن في ذلك

(1) البيان في إعجاز القرآن د. صلاح الخالدي – دار عمّار ط3، ج1، ص273، – 1993.

(2) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – مطبعة المشهد الحسني، 350 ص – ط2 – 1951.

(3) الإتقان في علوم القرآن – السيوطي – مطبعة المشهد الحسني –، 1413 ص، ط2 – 1951.

(4) سورة ق آية: 37.

لذكرى}[1] إشـــارة إلى ما تقدّم من أوّل الســـورة إلى هاهنا وهذا هو المؤثّر، وقوله {من كان لـــه قلب} [2] فهذا هو المحل القابل والمراد بـــه القلب الحي الذي يعقل عن الله، كما قال الله ســـبحانه وتعالى: {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيّاً}[3] أي حيّ القلب وقوله تعالى {أو ألقى الســـمع وهو شهيد} أي وجه ســـمعه وأصغى حاسّة سمعه إلى ما يقال له، وهذا شرط التّأثير بالكلام وقوله (وهو شـــهيد) أي شاهد القلب حاضراً غير غائب، أي استمع إلى كتاب الله وهو شاهد القلب والفهم، وليس بغافلٍ ولا ساه، وهو إشارة إلى المانع من حصول التّأثير وهو سهو القلب وغيبته عن تعقّل عن ما يقال له والنظر في تأمّله.

فـــإذا حصل المؤثّر وهـــو القرآن، والمحـــلّ المقابل وهو القلب الحـــيّ ووجد الشرط وهو الإصغاء وانتفى المانع وهو اشـــتغال القلب وذهوله عن معنى الخطاب وانصرافه عنه إلى شيء آخر حصل الأثر وهو الانتفـــاء بالذكر لوجه الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك، عندما أخذ يبيّن مزايا هذا الوجه دون سواه فهذا الوجه يمتاز عن سائر وجوه الإعجاز بأنّه:

1 – المعجزة القائمة في كل حين.

2 – أنها تسع الناس جميعاً عالمهم وجاهلهم.

3 – أنها تسع لكل لغاتهم عربيهم وعجميهم.

4 – أنها لا تقتصر على الإنس وحدهم بل وتسع الجن أيضاً.

ونرى أن الإعجاز التأثيري يتداخل في عدة أوجه ويرى فيه أن إعجاز القرآن يبرز في وجوه أربعة (الإعجاز النفسي، الإعجاز العلمي، الإعجاز البياني، الإعجاز التأثيري كما استشف ذلك الباحث) ومن خلال حديثه عن الإعجاز النفسي التأثيري نراه يتمثّل في نقاط أربع:

1 – مكانة الإعجاز التأثيري.

2 – تأثير القرآن في المؤمن والكافر.

(1) نفس المصدر السابق أعلاه.

(2) سورة ق آية رقم 37.

(3) سورة يس آية رقم 69.

3 – من وسائل تأثير القرآن: تقديم الدليل المفحم على كل شبهة، تعريف الأمثال.

4 – مواضع التأثّر بالقرآن.

تلك هي مكانة الإعجاز التأثيري عند الشيخ فإن كان للقرآن الكريم وجوه إعجاز أخرى غير أنها لا تصل في قدرها وأهميّتها إلى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم في نفس الإنسان ولكن هل يتأثّر كل إنسان بالقرآن؟ أم يقتصر هذا التأثير على المؤمنين به؟ ويرد أمامنا على هذا التساؤل بما يؤكد مكانة الإعجاز التأثيري بين وجوه الإعجاز، وعدم اقتصاره على نفس إنسانية دون أخرى فيقول: (فما أظن امرءاً سليم الفكر والضمير يتلو القرآن ويستمع إليه ثم يزعم أنه لم يتأثر به، قد تقول: ولم يتأثر به ؟ والجواب: أنه ما من هاجس يعرض للنفس الإنسانية من ناحية الحقائق الدينية إلا ويعرض له القرآن بالهداية وسداد التوجيه، ما أكثر ما يعزّ المرء من نفسه، وما أكثر الذين يمضون في سبل الحياة هائمين على وجوههم، ما تمسكهم بالدنيا إلا ضرورات المادة فحسب.

إن القرآن الكريم بأسلوبه الفريد يردّ الصواب إلى أولئك جميعاً وكأنه عرف ضائقة كل ذي ضيق وزلّة كل ذي زلل ثم تكفّل بإزاحتها كلّها، كما يعرف الراعي آية تاهت خرافه، فهو يجمعها من هنا وهناك لا يغيب عن بصره ولا عن عطفه واحدة منهم، وذلك سر التعميم في قوله تعالى {ولقد صرفنا في هذا القرآن من كلّ مثل}[(1)] حتى الذين يكذبون بالقرآن ويرفضون الاعتراف بأنه من عند الله أنهم يقضون منه مثلما يقف الماجن أمام أب ثاكل، قد لا ينخلع من مجونه الغالب عليه ولكنّه يؤخذ فترة ما يصدّ من العاطفة الباكية أو مثلما يقف الخلي أما خطيب يهدر بالصدق ويحدث العميان عن اليقين الذي يريد ولا يرون أنه قد يرجع مستهزئاً، ولكنه يرجع بغير النفس التي جاء بها.

والمنكرون من هذا النوع لا يطمعون في التأثير النفساني للقرآن الكريم، كما أن العميان لا يطعنون في قيمة الأشعة ولذا يقول الله عز وجل: {الله نزّل أحسن الحديث}[(2)]

وبذلك يكون الشيخ رحمه الله قد تناول النقطة الثانية التي يتأكّد من خلالها إعجاز القرآن التأثيري في المؤمنين والكافرين به على حد سواء، وفي النقطة الثالثة يبرز الشيخ في بعض

(1) سورة الكهف آية رقم 54.

(2) سورة الزمر أية رقم 23.

أسرار التأثير القرآني في الإنسان فيقول: (إن القرآن يملك على الإنسان نفسه بالوسيلة الوحيدة التي تقهر تفوّقه في الجدل أي بتقديم الدليل المفحم لكلّ شبهة، وتسليط البرهان القاهر على كل حجّة، فالنكوص عن الإيمان بعد قراءة القرآن يكون كفراً عن تجاهل لا عن جهل ومن تقصير لا عن قصور، والجدل آفّة نفسيّة وعقليّة معاً، فالنشاط الذهنيّ للمجادل يمدّه حراك نفسي خفيّ، فلما يهدأ بسهولة.... ويستكمل الشيخ بيانه عن وسائل القرآن التي تسبّب التأثير في النفس الإنسانية فيقول: (إن طبيعة هذا القرآن لا تلبث أن تعتبر برودة الإلف وطول المعرفة فتتعرى أمام النفوس، وتنسلخ من ثكلتها وتصنّعها، وتنزعج من ذهولها وركودها وتجد نفسها أمام الله – جل شأنه – يحيطها ويناقشها، ويعلمها ويؤدّبها فما تستطيع أمام صوت الحق المستعلن العميق إلّا أن تخشع وتصيخ.[1]

ثم يقول وكما قهر القرآن نوازع الجدل في الإنسان وسكن لجاجته، تغلب على مشاعر الملل فيه وأمدّه بنشاط لا ينفذ والجدل غير الملل، هذا تحرّك ذهني قد يجد الأوهام ويحوّلها إلى حقائق وهذا موات عاطفي قد يجمّد المشاعر فما تكاد تتأثّر بأخطر الحقائق وكثير من الناس يصلون في حياتهم العادية إلى هذه المنزلة من الركود العاطفي فنجد لديهم برود غريباً بإزاء المثيرات العاصفة، لا عن ثبات وجلادة بل عن موت قلوبهم وشلل حواسّهم، والقرآن الكريم في تحدّثه للنفس الإنسانية – حارب هذا الملل وأقصاه عنها إقصاء وعمل على تجديد حياتهم بين الحين والحين، حتى أنهم ليمكنها أن تستقبل[2] في كل يوم ميلاداً جديداً (وكذلك أنزلناه قرآناً عربيّاً وصرفنا فيه من الوعيد لعلّهم يتّقون أو يحدث لهم ذكراً).[3]

ومن وسائل القرآن التأثيرية: الترغيب والترهيب، حيث يقول الشيخ (والشعور بالرغبة والرهبة والرقّة تعمرك وأنت تستمع إلى قصص الأولين والآخرين تروى بلسان الحق ثم يتبعها فيض من المواعظ والحكم والعبر تقشعرّ منه الجلود [[4]].

ويتبيّن لنا أنّه تناول الإعجاز التأثيري من جوانب أربعة ولعلّ أهمّها جميعاً هو بيان ما في

(1) عبد العزيز هاشم الغزولي – بالقرآن أسلم هؤلاء، دار القلم ط1 – 2001، ص19.

(2) – د.فهد عبد الرحمن الرومي، دراسات في علوم القرآن– ط4 2003.

(3) سورة طه آية رقم (113).

(4) نبيه زكريا عبد ربه – كيف نحيا بالقرآن – دار الحرمين – ط1 1983.

القرآن من وسائل تأثيريّة والتي أورد فيها تفصيلاً وتعليلاً لم نره عند كثير من السابقين.

فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفســه وكذلك الغني والفقير إذا سمع القرآن اهتز في داخل نفســه وزادت سعادته والمثقف وغير المتعلم إذا سمع القرآن تفاعل وجدانه مع القرآن وتأثر بأسلوبه، ومصداقاً لما وصفناه من أمر القرآن الكريم قوله تعالى: (لو أنزلنا هذا القران على جبل لرايته خاشــعا متصدعاً من خشية الله) [1]. حتى إن جلود السامعين للقرآن بتدبر تقشــعر وقلوبهم تلين لهذا الذكر الحكيم قال تعالى: (الله أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشــعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله ذلك هددى االله يهدي به من يشاء) [2].

فعندما يتلى القرآن الكريم على مسامع الناس في المساجد أو البيوت ليلاً أو نهاراً ويستمعون إليه فإنه يهز مشاعرهــم ويؤثر في عواطفهم باستجاشتها نحو الآيات التي تتلى فلا يتمالك الواحد نفسه فتنهمر الدموع من عينيه حباً للقرآن وتأثراً بأسلوبه المحبب إلى النفوس على اختلاف البيئـة والحالـة النفسـية والاجتماعية [3].

ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى الإعجاز التأثيري للقرآن الكريم عندما نسأل أحد المستمعين للقرآن ما الذي أعجبك في القرآن؟ غالباً لا يســتطيع أن يعطيك جواباً شافياً وإنما سيجيبك كل واحد بجواب يختلف عن الآخر، وهذا يبرهن على أن الاعجاز قد وصل إلى قلوبهم جميعاً وتغلغل في نفوسهم بما لا يستطيع أن يصفه الواحد منهم الوصف الكامل.

وهــذا يبرهن على أن منهم من شــعر بالإعجــاز البياني وآخر بالغيبــي وآخر بالإعجاز التأثيري، أي أن أسلوب القرآن أثر عليه.

ويجيب الشيخ الشعراوي عن سر ذلك التأثر وهو الذي ترتاح إليه النفس، أن الله سبحانه يخاطب في النفس البشرية ملكات هو خالقها، وأن هذه الملكات تتأثر بكلام الله ســبحانه وتهتز له دون فارق من فوارق الدنيا [4].

(1) سورة الحشر آية: 21.

(2) سورة الزمر آية: 23.

(3) سورة الإسراء آية: 107 – 109.

(4) معجزة القرآن، الكتاب الأول ص 37، ط مكتبة التراث الإسلامي.

وكان أول الناس تأثراً بهذا القرآن هو رسول الله / صلى الله عليه وسلم/ ومن ثم الصحابة رضوان الله عليهم ثم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون رجالاً ونساءً حتى أن الكافرين تأثروا بهذا القرآن فقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون فمنهم من تأثر بالقرآن فاستجاب ومنهم من أعرض وتولى نتيجة لعيشه في الجاهلية مدة طويلة فأخذته الحياة الدنيا بزخرفها ولهوها.

1.3 تأثر الرسول /صلى الله عليه وسلم/ الدعوة إلى الله

إن رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ هو من أكثر الناس تأثراً الدعوة إلى الله، فكان إحساسه بالقرآن إحساساً مميزاً لا يصل إليه إحساس أحدٍ من الخلق، وذلك أن مهبط الوحي كان على رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ بهذا القرآن وهو ثقيل قال تعالى: (إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً)[1].

وكان لثقل الوحي وثقل القرآن الأثر البالغ على نفسه / **صلى الله عليه وسلم**/ حتى تكاد تزهق نفسه ويحمر وجهُهُ ويعرق جسدُه، حتى يتفصد العرق من جبينه في الليلة الشاتية ويثقل جسمه، حتى لتكاد الناقة التي يركبها تبرك، وإذا جاءت فخذه على فخذ إنسان تكاد ترضُّها، وربما يسمع له غطيط كغطيط النائم فإذا ما ذهب عنه وجد نفسه واعياً لكل ما سمع من الوحي فيبلغه إلى الناس كما سمعه[2].

لقد تأثر رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ هذا التأثر المميز لأنه المخاطب بالقرآن خطاباً مباشراً في الكثير من السور القرآنية، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[3]، وقال تعالى: (**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ**)[4]، وقال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[5]، ثم أوضح الحق تبارك وتعالى أنه الأسوة الحسنة للمؤمنين جميعاً، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ

(1) سورة المزمل آية: 5.

(2) انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم ص 57، وانظر: مباحث في علوم القرآن للقطان ص 39، 40.

(3) سورة القلم آية: 4.

(4) سورة الأنبياء آية: 107.

(5) سورة الأعراف آية: 199.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) [1].

ولِمَ لا يتأثر / **صلى الله عليه وسلم**/ هذا التأثر الخاص؟ وهو يخبر بخبر السماء فيراه وقد تحقق مثل فلق الصبح فقد رأى أنه سيدخل المسجد الحرام ويؤدي عمرة القضاء وفعلاً تحقق ذلك، قال تعالى: (لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً) [2]. وأطلعه الله تبارك وتعالى على كثير من غيب المستقبل عن طريق الوحي وتحقق ذلك، كالبشرى بانتصار المسلمين على جمع المشركين وكان ذلك في مكة المكرمة والدعوة مستضعفة، قال تعالى: (أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ)[3].

ومجمل ما يمكن أن نقوله عن تأثر النبي / **صلى الله عليه وسلم**/ بالقرآن يعجز الوصف عنه، وسأقتصر على بعض الأمثلة من هذا التأثير للقرآن على خير البرية عليه الصلاة والسلام مستمداً ذلك من كتب التفسير والسيرة والحديث.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي/ **صلى الله عليه وسلم**/ : «اقرأ عليّ» قلت: يا رسول الله، أأقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: نعم، فقرأت سورة النساء حتى أتيتُ إلى هذه الآية: **(فكيف اذا جئنا من كل امة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)** قال: «حسبك الآن»، فالتفت فإذا عيناه تذرفان» [4].

ومن تأثره / **صلى الله عليه وسلم**/ بالقرآن كان محافظاً على قيام الليل وكان يطيل في قيامه حتى تتورم قدماه من شدة القيام، فقد جاء في الحديث الشريف عن عائشة رضي الله عنها قالت : «كان النبي / **صلى الله عليه وسلم**/ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقلت له: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً» [5].

(1) سورة الأحزاب آية: 21.

(2) سورة الفتح آية: 27.

(3) سورة القمر آية: 44، 45.

(4) فتح الباري مجلد 8، ك: التفسير باب «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد» ص: (98، 99) حديث رقم 4582.

(5) فتح الباري مجلد 8، كتاب: التفسير باب «ليغفر الله لك ما تقدم» حديث رقم 4837، ص 448.

ولقد التزم / **صلى الله عليه وسلم**/ القرآن خلقاً وعملاً وسلوكاً في الحياة وكان شغله الشاغل فإذا حزبه أمر كان يقدم قول الله تبارك وتعالى حتى أصبح / **صلى الله عليه وسلم**/ في سائر أعماله الترجمة الحية لتعاليم القرآن فقد جاء عن سعد بن هشام قال: انطلقت إلى عائشة فقلت: يا أم المؤمنين، أنبئيني عن خلق رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ ؟ قالت: ألست تقرأ القرآن؟ قلت: بلى، قالت: فإن خلق رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ كان القرآن [1].

1, 4 – الإعجاز التأثيري للقرآن على الصحابة الكرام

لقد كان للقرآن الكريم الأثر البالغ على الصحابة الكرام لأنهم عاصروا فترة الوحي، فترة نزول القرآن على قلب الحبيب المصطفى / **صلى الله عليه وسلم**/ ، فيشاهدون تغيراً في وجهه / **صلى الله عليه وسلم**/ ويسمعون أصواتاً كصلصلة الجرس أو كدوي النحل ويحسون بثقل في جسمه، فقد جاء عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنزل على رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ وفخذه على فخذي، فكادت ترضُّ فخذي [2].

وكانوا ينظرون إلى النبي عليه السلام بصعوبة عند نزول الوحي عليه بهذا القرآن، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ إذا أوحي إليه، لم يستطع أحد منا أن يرفع طرفه إليه حتى ينقضي وحيه»[3].

وكيف لا يتأثرون بهذا القرآن وهم يرتقبون في كل ليلة أن يتنزل عليهم من الله وحي يحدثهم بما في نفوسهم، ويعالج ما يستجد لديهم من مشكلات، وكان القرآن يتنزل على حسب الأحداث التي تواجه الأفراد أو الأمة بأسرها فيضع الحلول والعلاج الرباني لما يعتور الأمة من أمور، قال تعالى: **(قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي الى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)**.

قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ

(1) صحيح مسلم مجلد 1، حديث رقم 746، ك: صلاة المسافرين وقصرها باب «جامع صلاة الليل» ص: 513.

(2) فتح الباري مجلد: 8، باب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين)، ص: 108، حديث رقم 4592 بنحوه.

(3) صحيح مسلم، ك (الجهاد والسير)، باب (فتح مكة)، ص: 1406، حديث رقم 1780.

بَصِـيرٌ) [1]. نزلت هذه الآية في خولة حينما ظاهرهـا زوجها فأصبحت لا هي حل له ولا هي مطلقة منه، فجاءت تشتكي هذه الفعلة السيئة إلى رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ ، وجاء عن أم المؤمنين عائشـة رضي الله عنها قولها: تبارك الذي وسـع سمعه كل شيءٍ أني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله / **صلى الله عليه وسـلم**/ وهي تقول يا رسول الله أبلي شـبابي ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني وانقطع ولدي ظاهر مني اللهم إني أشـكو إليك قالت: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات، يعني التي في صدر سورة المجادلة [2].

وحينما قال أهل الإفك ما قالوه عن أم المؤمنين، وبات الناس في المجتمع الإسـلامي بين مصدق ومكذب بهذه الشـائعة، ومرضت عائشـة حتى التزمت فراشـها عندما شعرت بإعراض الرسول / **صلى الله عليه وسـلم**/ حيث تقول كنت أنظر إلى شفتي رسول الله / **صلى الله عليه وسـلم**/ عندما يدخل عليّ البيت هل تتحرك شفتاه برد السلام، ورسول الله / **صلى الله عليه وسـلم**/ يقول لها: إن كنت بريئة فسيبرئك الله وبعد شهر من اندلاع هذه الشـائعة نزلت براءة أم المؤمنين من السموات العلا، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لا تَحْسَـبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَـبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [3].

وحينما حاول يهود إحداث الفتنة بين الأوس والخزرج بعدما أسلموا وتناسوا ما كان بينهم في الجاهلية مـن ثارات وأحقاد وعقدوا بينهم الأخوة والمـودة والتراحم غاظ ذلك يهود فدسوا عليهم شـاباً من يهود يذكرهم بما كانوا عليه في الجاهلية، فتحركت فيهم النعرات الجاهلية القديمة حتى حميت نفوسهم وتصايحوا يا للخزرج ويا للأوس حتى بلغ الخبر إلى النبي / **صلى الله عليه وسـلم**/ فخرج إليهم مسرعاً وهو يقول: «الله الله يا معشر الأنصار أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم دعوها فإنها نتنة» فعلموا أنها نزعة من الشيطان ومكر من يهود وألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضـاً وبسبب تلـك الحادثة نزل القرآن معالجاً

(1) سورة المجادلة آية: 1.

(2) أسباب النزول للواحدي النيسابوري ص 228 – 229.

(3) سورة النور آية: 11.

لهذه الحادثة[1]، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ، وكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) [2]

وحينما انتقل الرسول / **صلى الله عليه وسلم**/ إلى الرفيق الأعلى وانقطع الوحي، انقطع اتصال الأرض بالسماء بكى الصحابة رضوان الله عليهم هذا الانقطاع وانتهاء خبر الوحي لأنهم يدركون حلاوته.

عن أنس رضي الله عنه قال : قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بعد وفاة رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ : انطلق بنا إلى أمِّ أيمن رضي الله عنها نزورها كما كان رسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ يزورها، فلما أتيا إليها بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ ؟ قالت: بلى إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ ، ولكن أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء، فجعلا يبكيان معها» [3].

وظل تأثير القرآن على النفس البشرية من تلك اللحظة التي نزل فيها وإلى هذه اللحظة وإلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها.

وسأذكر النماذج من تأثر الصحابة رضوان الله عليهم بهذا القرآن الكريم وهي كالتالي:

1, 4 أولاً : لقد كان أبو بكر رضي الله عنه رجلاً أسيفاً – أي رقيق القلب – إذا قرأ القرآن بكى لأنه يشعر بحلاوة وعذوبة ولذة القرآن فلم يتمالك نفسه فيجهش بالبكاء عند قيامه بالقرآن، فعندما همَّ أبو بكر الصديق بالهجرة إلى الحبشة لقاه ابن الدُّغنَّة، فقال: إلى أين يا أبا بكر قال: مهاجرٌ في سبيل الله. قال: والله ما مثلك يخرج من هذه الديار لأنك تعين على نوائب الحق وتصل الرحم وتقري الضيف وترعى حقوق الجار فارجع فأنت في جواري، فرجع أبو بكر في جوار ابن الدُّغنَّة وأخذ يقرأ القرآن، ويجتمع إليه أبناء الكفار وفيهم الصبيان والنسوة يستمعون إليه مما غاظ أسيادهم، فطلبوا من ابن الدُّغنَّة رد جواره أو

(1) انظر: أسباب النزول للواحدي ص 67، 68، وانظر: تفسير أبي السعود، الجزء الثاني، ص: 64.

(2) سورة آل عمران آية: 100، 101.

(3) أخرجه مسلم، باب فضائل أم أيمن رضي الله عنها حديث رقم 2454.

منعه من قراءة القرآن خشية أن يؤثر القرآن على غلمانهم ونسائهم، وأصرَّ أبو بكر على قراءة القرآن وقَبِلَ بجوار الله ورد إلى ذلك المشرك جواره [1].

وكان أبو بكـــر رضي الله عنه معروفاً بكثرة البكاء عند قراءة القـــرآن نتيجة لتأثره بألفاظ القرآن الكريم ويؤيد ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال : لما اشـــتد برســـول الله / **صلى الله عليه وسلم**/ وجعه قيل له في الصلاة، قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس» فقالت عائشـــة رضي الله عنها: إن أبا بكـــر رجل رقيق القلب إذا قرأ القـــرآن غلبه البكاء، فقال: «مروه فليصل» [2].

1.5 تأثر أولياء الله بالقرآن

لقد كان للقرآن الكريم أثر عظيم في النفوس المؤمنة وهيمنة ظاهرة في حياتهم قديماً وحديثاً مما أدى إلى تحويل المفاهيم والسلوك باتجاه الإسلام ودســـتوره الخالد القرآن الكريم فأخذ الناس يتحولـــون من حياتهم الضيقة الجاهلية إلى حياة الإســـلام الرحبة الواســـعة، تحولوا من حبهم للعادات السيئة إلى حب القرآن الكريـــم فكـــان شغلهم الشاغل حتى شمل جميع حياتهم عملاً وتطبيقاً، قال تعالى: **(والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وان الله لمع المحسنين)** [3].

وهكذا انشـــغل الناس بالقرآن وأصبح للناس مقاييس يقيسون بها الأمور والأشخاص، وكلما كان الإنســـان قريباً من الله ملتزماً الدعوة إلى الله كلما زاد قدره وارتفع شأنه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (لم يأن للذين آمنوا أن تخشـــع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذيـــن أوتوا الكتاب من قبـــل فطال عليهم الأمد فقســـت قلوبهم وكثير منهم فاســـقون). [4] وقال تعـــالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـــعوبا

(1) صحيح البخاري، مجلد 2، باب: «جـوار أبي بكر في عهد النبي / صلى الله عليه وسلم/ وعقده، حديث رقم 2175، ص: 804 مختلف الألفاظ، وانظـر: السـيرة النبويـة «دراسـة تحليلية في ضوء القرآن والسنة» ص: (269، 270).

(2) صحيح مسلم، جزء 1، باب «استخلاف الإمام إذا عرض له عذر في مرض أو سفر» ص 316، حديث رقم 420.

(3) سورة العنكبوت آية: 69.

(4) سورة الحديد آية: 16.

وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) [1].

2.2 الإعجاز وتوظيفه في الدعوة إلى الله تعالى

إن عناية علماء الإسلام ودعاته بآيات الله في الكون وإعجازها الباهر، ومحاولة لفت أنظار المدعوين إليها، والتأثير عليهم بها لسلوك المنهج الحق وقبول دعوة الإسلام هو في حقيقته منهج عظيم من مناهج الدعوة إلى الله التي سلكها القرآن في التعريف بالله والدعوة إلى الإيمان به، وآيات الإعجاز في القرآن الكريم الداعية إلى النظر في آيات الله وتأملها كثيرة متعددة متنوعة مما جعل علماء الدعوة إلى الله يجعلون من مناهج الدعوة إلى الله تعالى: المنهج الحسي أو التجريبي الذي يعرفونه بأنه: النظام الدعوي الذي يرتكز على الحواس ويعتمد على المشاهدات والتجارب [2].

ولعل من أعظم الآيات في ذلك – وكل كلام الله عظيم – قوله تعالى: « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ» [3]ولاشك أن هذا المنهج المتمثل بالأمور المشاهدة المحسوسة له أثره في النفوس البشرية، وسرعة تأثيره عليها، كما أنه يشمل الناس جميعا، إذ الكل يدرك هذه المحسوسات، ويشعر بها لا يختلف عن ذلك كبير ولا صغير ولا عالم ولا جاهل [4]، ولأجل ذلك أيد الله أنبياءه ورسله بالآيات الباهرات والمعجزات التي ألجمت الخصوم، وأذعن لها طالب الحق والبيا وعلى الرغم من ذلك كله لابد من أن يؤخذ هذا الأمر بعناية، ويتناول بحرص وتؤده وذلك لأمور:

أولها: أن كلا طرفي قصد الأمور ذميم، فإغفال هذا المنهج وتجاوزه أمر مذموم، وتجاهل لأمر بالغ الأهمية؛ انتهجه الأنبياء.والرسل – عليهم الصلاة والسلام – في دعوتهم لأقوامهم، كما أن المبالغة فيه واعتقاد أنه لم يعد منهج يمكن دعوة الناس به إلى الحق إلا هو؛ وأن بقية المناهج أصبحت في هذا العصر لا تكفي(29)، بل ذهب البعض إلى أنه لم يبق أمام أهل

(1) سورة الحجرات آية: 13.

(2) محمد أبو الفتح البيانوني، المدخل إلى علم الدعوة، (ط1. 1412هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت) ص (214).

(3) سورة فصلت آية رقم 53.

(4) محمد االبيانوني، المصدر سبق ذكره، ص218.

عصرنا من وسيلة مقنعة بالدين الإســلامي الحنيف قدر إقناع الإعجاز العلمي في كتاب الله وســنة رسوله (صلى الله عليه وسلم) [1]. وأنه يجب الاعتماد عليه؛ كل هذا دفع البعض إلى طــرح المبالغات في هذا الجانب من محاولة إخضاع آيات القرآن الكريم للمكتشــفات العلميــة الحديثة، ولي أعناق الآيات لأجل أن توافق شــيئاً منها، مما يثبت بعد فترة وجيزة أن ذلك المكتشــف كان مجرد فرض أو نظرية؛ جاءت بعدها نظرية أخرى كشفت عدم دقة ســابقتها؛ مما يجعل لبعض الجاهلين مطاعن على دين الإسلام بغض النظر عن خطأ القائل بها، فالمتربصون يكيدون للدين مستغلين جهل أبنائه أو تعجلهم في مثل هذه الأمور.

الأمر الثاني: هو أننا نتفق أن إدراك هذه قضايا – أعني قضايا الإعجاز العلمي – لا يدركها كل الدعاة؛ لتطور المكتشــفات وتتابعها، كما أنها تحتاج إلى خبرة واختصاص في الكشــف عنها وبيانها للناس، وهذا أمر لا يحسنه جميع الدعاة، لاسيما إذا كانت الدعوة لطبقة العلماء المتخصصين في العلوم التطبيقية، إذ الأمر يحتاج إلى معرفة عميقة مبنية على دراســة متأنية قد تمتد لعدد ســنين، لا يغني عنها مجرد قراءة مقال أو بحــث أو كتاب، وهذا الأمر يجعل استخدام مسائل الإعجاز الدقيقة التي تمثلها الكشوفات العلمية الحديثة وموافقتها لما جاء في كتاب الله تعالى أمراً فيه شيء من الصعوبة، ولا يدخل في هذا الإشارة والتنبيه إلى الآيات العامة والمعجزات الظاهرة في هذا الكون كالشمس والقمر والنجوم والبحار وعظمتها مما أشار القرآن الكريم إليه في آياته وسوره؛ فهذا أمر يدركه الجميع وهو متاح محسوس.

وأمــر ثالث بالغ الأهمية: وهــو أن منهج الأنبياء – عليهم الصلاة والســلام – لم يكن يعتمد بشــكل كبير على هذا المنهــج – المنهج الحسي – فكل نبي ممن كان لــه معجزة – إذ بعضهم لم يكــن له معجزة – برز بمعجزة واحدة في الغالب، ولعل لذلــك حكم بالغة عظيمة منها: أن المعرض عنها بعد ظهور الآيات المحسوسات يعرض نفسه لخطر عظيم، إذ هو يثبت على نفسه أنه معاند مصر عــلى باطله، غير قابل للحق رغم ظهوره، ومثل هذا متوعد بالعذاب والنكال، يقول تعالى: « قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منــك وارزقنا وأنت خير الرازقين» [2] فتأمل تضمن الآيات الوعيد الشــديد في

(1) محمد كامل عبد الصمد، الإعجاز العلمي في الإسلام، ص(10).

(2) سورة المائدة: آية رقم 114:115.

إجابة الله لطلب عيسى (عليه السلام) وهو ليس وعيداً معتاداً، بل أفظع وعيد ما نزل به وحي الله(31) «فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ العَالَمِينَ »، وأي عذاب أشـد من طمس البصيرة حيث يرى الحق ظاهراً شـاهراً فلا يحرك فيه سـاكنا ولا يؤثر فيه البتةً فكأنه لم يرَ شـيئاً، الآية الباهرة والمعجزة القاهرة لا تعني لصاحب العقل المطموس والبصيرة الخاملة شيئاً بذكر الأمر الذي يسوقه إلى عذاب الله تعالى وسخطه في الدنيا والآخرة.

الأمر الرابع: أن المتأمل لدعوة الإسـلام يجدها تتميز بالسهولة والقرب من القلوب، فهي تعتمد على الفطر السليمة، إذ هي مغروسة أصلا في فطر البشر وفي الحديث المشهور ((كل مولود يولد على الفطرة))، كما أن الاسـتفادة من العلوم المادية والاكتشافات العلمية أمر محمود يسير وفق منهج القرآن الكريم بلا شك؛ لكن المحظور هو الإغراق في ذلك وتحويل الدعوة إلى الإسـلام من صفتها العامـة الروحية إلى صبغة ماديةً تعتمـد على نتاج العلم المادي، والاختراعات والكشـوف العلمية المبنية على المادة مما يفقد هذه الدعوة الإسلامية روحانيتها، وعبقها الإيماني المتميز وينحو بها إلى المادية التي قد لا تكون محمودة بكل حال.

الأمر الخامس: لا شـك في أهمية الاستفادة من الكشـوفات العلمية، و الاعجاز العلمي في دعوة الناس وإرشـادهم إلى خالقهم وخالق الكون؛ لكن المتأمل لواقع المهتدين الجدد للإسلام من مختلف أصقاع المعمورة؛ يدرك أن هداية أغلب هؤلاء كانت بسبب ما تضمنته مبادئ الإسـلام من موافقـة للفطرة والعقل الذي لا يزال يبحث عن إجابة لتسـاؤلات تعـرض له لا يجد أجوبتهـا المقنعة إلا فيما تضمنته مبادئ الإسـلام، وهـذا الأمر ظاهر ومعلوم، وإذا كان العلماء المتخصصون في العلوم التطبيقية بشتى تخصصاتها يستفيدون من مثـل هذا المنهج فهذا لا يعني بالضرورة عناية غيرهم به، إضافة إلى أن الأعم الأغلب من المدعويـن هم من العوام أو المتعلمين الذين لا يصلون إلى درجة أولئك المتخصصين، وقد لا يكون لديهم عناية بمسائل الإعجاز مما قد يضعف تأثرهم بها.

الخاتمة

الحمد الله الـذي أعانني على كتابة البحث، وصولاً لخاتمة تليق بالجهد العلمي، وعليه فإن إعجاز القرآن الكريم لا يمكن حصره، ولا يستطيع أحد جمع أركانه كما في الأثر (لا تشبع منه العلماء ولا يخلف عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه) وكيف أثـر القرآن على الكافرين

بمجرد السماع، وكان سبباً في دخولهم في هذا الدين ودوه في الدعوة إلى الله تعالى، فما أن استمع بعضهم إلى آيات القرآن تتلى في الصلاة أو من مذياع فشعر بعذوبة ونعمة هذا القرآن فحدثته نفسه بالبحث عن الإسلام والتوجه إلى المسجد لإعلان إسلامه، وفي الختام نسأل الله التوفيق.

النتائج والتوصيات:

أولاً: النتائج:

خرج الباحث بمجموعة من النتائج ذات الصلة بموضوع الدراسة وهي حسب الآتي:

1 – تعدد وجوه إعجاز القرآن الكريم وتجدّدها مع مرور الأيام على الدوام.

2 – إنّ كثيراً من أوجه الاعجاز في القرآن تحتاج إلى مزيد من تفكّر وبحث وجد في استخراجها.

3 – إعجاز القرآن الكريم فيه مجال خصب للدعوة إلى الله تعالى – وخاصّة في زماننا هذا وما يليه من أزمنة حيث يعجّ العالم كلّه بالعلم والتطوّر في الاكتشافات العلمية الحقّة فلذلك أدعى لأن يعرفوا أن الدين الذي لا يتعارض مع العلم تنزيل من رب العلم والخلق جميعاً فيذعنوا له ويأتوا إليه مسلمين.

4 – والقرآن الكريم رسالة الله الخالدة التي لن تزول ولن تتغيّر، ومن ثم فهو في حاجة إلى الجهود البشريّة المستثمرة لاستخراج درره ومن ثمّ تبليغه للنّاس جميعاً في كل عصر، وحصر وقد اختار الله أمّة الإسلام لتكون حاملة لرسالة القرآن ومبلّغة له.

5 – وكلّ جهد يبذل في تلاوة القرآن أو حفظه أو تعلّمه أو العمل به تدبّره أو الدعوة إليه عبادة ينال فاعلها من الله الثّواب الجزيل.

6 – للبحث مع كتاب الله مذاق جميل، لا يطعمه إلّا من اقترب من حياضه، وعاش بين أجزائه وسوره وآياته، ومنّ الله عليه بتوفيقه، وأحاطه بعنايته ورعايته، ولم يحرمه التوفيق فيما يبحث فيه، والوصول إلى المبتغى الّذي نريده، والبحث في وجوه إعجاز القرآن، وبخاصّة (الإعجاز التأثيري) أمر له صعوبته وخطورته.

ثانياً: التوصيات:

وقد أوصت الدراسة بعدة توصيات وهي حسب ما يلي:

1 – أوصي المهتمين بكتاب الله الغيورين على دين الإسلام أن يعملوا جاهدين على إظهار جميع وجوه الإعجاز الأخرى المتعلقة الدعوة إلى الله – التي أشار إليها بعض علمائنا الأفاضل من الأقدمين – بأسلوب واضح وسهل مؤيد بالأدلة النقلية والعقلية، لكي يستطيع كافة الناس التعرف على وجوه الإعجاز المتعددة في القرآن الكريم، وبالتالي يقودهم هذا إلى الإيمان الراسخ بكتاب الله تبارك وتعالى.

2 – إن هذا البحث المتواضع المسمى «الإعجاز التأثيري في الدعوة إلى الله « توجد له مادة علمية غزيرة بين كتب الأقدمين والمحدثين تجعل منه كتاباً علمياً مفيداً لطلبة العلم وعامة الدارسين حول القرآن الكريم.

3 – أوصي المهتمين بكتاب الله الغيورين على دين الإسلام أن يعملوا جاهدين على إظهار جميع وجوه الإعجاز الأخرى المتعلقة الدعوة إلى الله – التي أشار إليها بعض علمائنا الأفاضل من الأقدمين – بأسلوب واضح وسهل مؤيد بالأدلة النقلية والعقلية، لكي يستطيع كافة الناس التعرف على وجوه الإعجاز المتعددة في القرآن الكريم، وبالتالي يقودهم هذا إلى الإيمان الراسخ بكتاب الله تبارك وتعالى.

«والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون» (يوسف،21).

– المصادر والمراجع:

أولاً: القرأن الكريم

ثانياً: المصادر باللغة العربية

1. ابن قدامة، موفق الدين أبي محمد عبد الله بن حمد بن محمد،،المصباح المنير، بيروت مكتبة لبنان
2. ابن منظور، لسان العرب، ج 3، دار صادر، بيروت، 1330هـ.
3. الأصفهاني، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1412هـ.
4. الأصفهاني، أبي فرج، المفردات في غريب القرآن، دار المعرفة، بيروت.
5. البيانوني، محمد أبو الفتح، المدخل إلى علم الدعوة، ط1. مؤسسة الرسالةٱبيروت،1412هـ.
6. البيهقي، أبو بكر، الأسماء والصفات للبيهقي، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي، ج1، حديث رقم (137) الناشر: مكتبة السوادي، جدة – المملكة العربية السعودية الطبعة: الأولى، 1413 هـ – 1993م
7. الحسني، محمد بن علوي بن عباس المالكي، – في رحاب البيت الحرام، ط الثالثة، 1405 هـ.
8. الحمصي، نعيم فكرة إعجاز القرآن من البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، مؤسسة الرسالة،1980م.
9. الخالدي، صلاح، البيان في إعجاز القرآن – دار عمّار ط3، ج1، 1993.
10. ذكرى، أبوبكر، الدعوة إلى الإسلام، مكتبة دار العروبة،1962م.
11. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن الكريم و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي.
12. الرافعي، مصطفى صادق، إعجاز القرآن الكريم و البلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1973م
13. الرومي، فهد عبد الرحمن، دراسات في علوم القرآن، ط4، 2003.
14. السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، مطبعة المشهد الحسيني، ط2، 1951.
15. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، باب النقول في أسباب النزولدار البيان الحديثة، ط الأولى، 1423 هـ.
16. الشافعي، تقي الدين أبى بكر بن محمد الحسيني الحصنى الدمشقي، كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، دار الفكر، بيروت، 2016م.
17. الشافعي، محمد بن إدريس، كتاب الأم تحقيق وتخريج رفعت فوزي عبد المطلب، دار الوفاء، ط الأولى، 1422 هـ.

18. الشعراوي، محمد متولي، معجزة القرآن، الكتاب الأول، ط مكتبة التراث الإسلامي، 2004م.

19. الصمد، محمد كامل عبد، الإعجاز العلمي في الإسلام، دار الكتب الحديثة، 1993.

20. الصواف، محمد، من القرآن وإلى القران : الدعوة والدعاة، دار الاعتصام، القاهرة، 1995م.

21. الطبراني، سليمان بن احمد، المعجم الكبير، ج9، رقم الحديث (852)، مكتبة ابن تيمة،ط2، القاهرة، 1415هـ.

22. عبد ربه، فهد عبد الرحمن، كيف نحيا بالقرآن، دار الحرمين، ط، 1983.

23. العسقلاني، ابن حجر، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل، تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، ط الأولى، ج12، 1984م.

24. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري: التفسير باب «فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد مجلد 8، حديث رقم 4582، ناشر: دار المعرفة – بيروت، 1379.

25. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مجلد: 8، باب: لا يستوي القاعدون من المؤمنين)، حديث رقم 4592 بنحوه. بيروت، 1379.

26. العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، مجلد 8، كتاب: التفسير باب «ليغفر الله لك ما تقدم» حديث رقم 4837، بيروت، 1379.

27. الغزولي، عبد العزيز هاشم، بالقرآن أسلم هؤلاء، دار القلم ط1، 2001.

28. فتحي يكن، الإسلام فكرة حركة انقلاب، بيروت، لبنان،ط13، مؤسسة الرسالة،1411هـ.

29. القرطبي، أبي عبد االله محمد بن أحمد الأنصاري، الجامع لأحكام القرآن، ج 1 دار إحياء التراث العرب، بيروت، لبنان، ط: الأولى – 1995 م.

30. القطان، مناع، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف، ط3، 1421هـ.

31. مسلم، صحيح مسلم، مجلد 1، صلاة المسافرين وقصرها باب «جامع صلاة الليل»، حديث رقم 746، دار ابن كثير،2002م.

32. مسلم، صحيح مسلم، الجمعة، من كتاب الجمعة، تخفيف الصلاة والخطبة، ج2، ص 592، حديث رقم: (867)، دار ابن كثير،2002م.

33. مسلم، صحيح مسلم، «صلاة المسافرين وقصرها باب «استحباب تطويل القراءة». مجلد 1، حديث رقم 772، دار ابن كثير،2002م.

34. المنذري، صحيح مسلم،الجهاد والسير، باب (فتح مكة)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم 1780. المكتبة الشاملة، 1954م.

35. موسى، محمد أحمد أبو محمد أحمد، الإعجاز البلاغي دراسة تحليلية، مكتبة وهبة ط1 – 1984.

36. النسائي، أحمد، سنن النسائي: صلاة العيدين، باب: كيفية الخطبة، حديث رقم: (1589).

37. النيسابوري، للإمام أبي الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم، صحيح مسلم، تحقيق. محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، 1980.

38. النيسابوري، أسباب النزول للواحدي، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان ناشر الكتاب دار الإصلاح – الدمام.

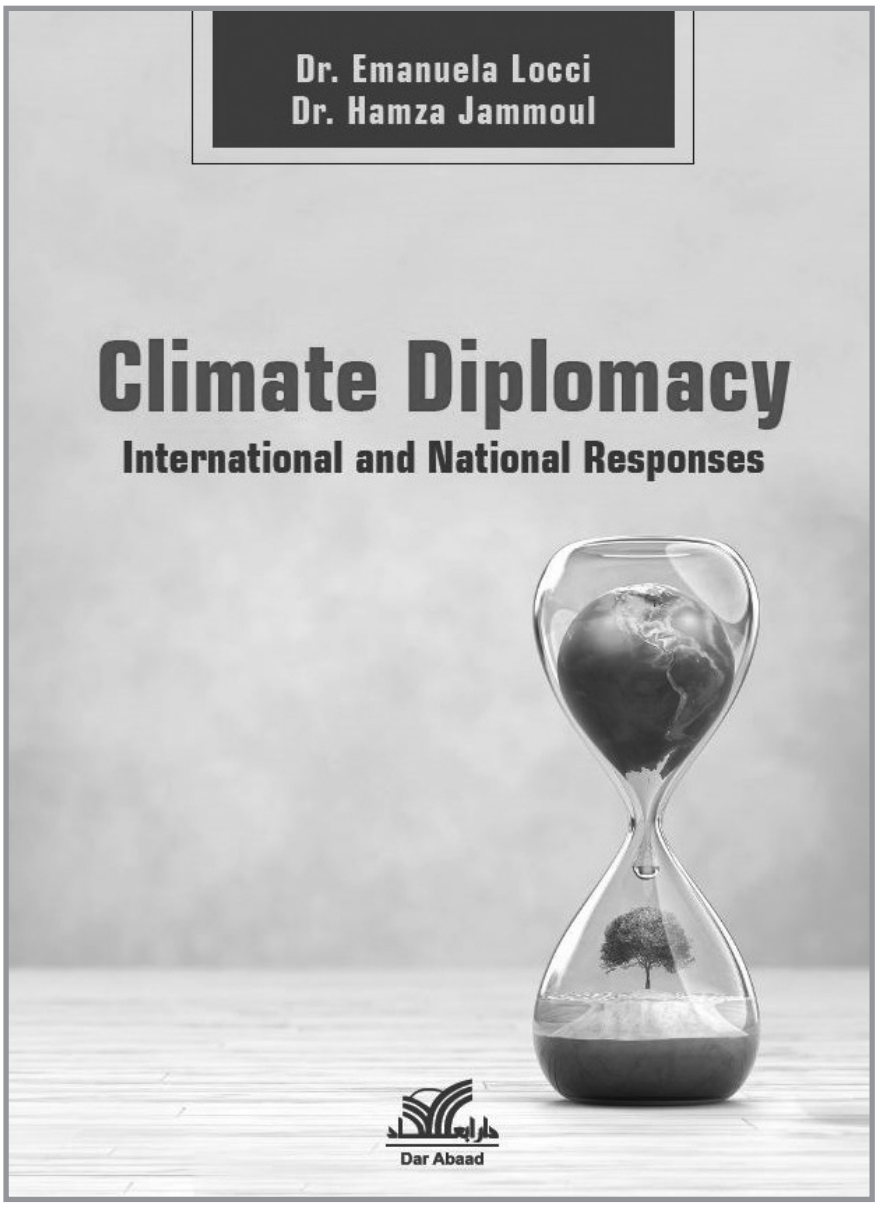

لطلب الكتاب، الاتصال:

دار أبعاد للطباعة والنشر

لبنان - بيروت - منطقة الحمرا

شارع عبد المنعم - بناية بلعة وقمند ط 4

ص.ب: 7179 – 113 بيروت – لبنان

00961-71-841086

abaaddar@gmail.com

خفايا وأبعاد الهجوم الاستشراقي على القرآن الكريم

شيماء عليوي عبيد السعيدي

شـــهدت شبه الجزيرة العربية في القرن الســـادس الميلادي، وتحديداً سنة 570م، ولادة طفل في قبيلة قريش إســـمه محمد بن عبدالله. ولكن لم يكن أحـــدٌ يتوقع يومذاك، ماذا يخبّئ المستقبل لهذا الإنسان، الذي ولد في مجتمع جاهليّ قبلي يعبد الصنم والوثن والآلهة المتعدّدة. إلا أن القرن الســـابع الميلادي شـــهد ولادة جديدة لنبيّ جديد اسمه هو ذاته محمد بن عبدالله. فكانت ولادة النبيّ (صلعم) هذه بشارة لولادة أمّة. بأمر الله سبحانه وتعالى وفدت الروح التي سوف تلهم النفوس تقواها وتوحيدها وقوة إيمانها، لتكمل البداية على ألســـن الرسل النبيّين عليهم الصلاة والسلام أجمعين، بالرسالة الجليلة التي غيّرت العالم القديم، وفتحت أبواباً إلى الحضارة والعقل والنور. روحٌ قوّضت بالتوحيد والإيمان عروش الإلحاد وأصنام الجاهلية[1].

إنها ولادة الأمل والبشارة والنور، ورسالة الرسول النذير، خاتم الأنبياء، وقارئ وحي الله والناطق بالحق، كما قال الله تعالى في كتابه المجيد «يا أيها النبيّ إنّا أرســـلناك شـــاهداً ومبشّراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»[3].

وهكذا كانت ولادة النبيّ الكريم (صلعم) وولادة الدعوة الإسلامية كدين جديد، في

(1) زهر الدين، صالح، الحركات والأحزاب الإسلامية وفهم الآخر، دار الساقي، بيروت، ط1، 2012، ص 7.

(2) طالبة عراقية تعمل على تحضير شـــهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، في جامعة الجنان- طرابلس. وهي نائب في البرلمان العراقي.

(3) سورة الأحزاب، الآيتان 45 -46.

جزيرة العرب – دليلاً على الارتباط الوثيــق بين الزمان والمكان، وصلة الوصل بينهما وهو الإنسان. وكان الإسلام بحق، كدين جديد، توحيداً في الدين، ونظاماً في الدولة.

وعلى هذا الأســاس، لم يكن من السهل على الدين الإلهي الجديد أن يلغي أديانـاً بشرية بتماثيلها وأصنامها وأوثانها. كما لم يكن سهلاً أيضاً على النبيّ الجديد والرسول الجديد، أن بلغــى عقولاً كانت تؤمن بالصنم والوثن كإله يقرّبها مما تعبد... «وإزاء هذا الواقع، كان لا بــدّ من صراع مرير وصدام أمرّ بين ديــن الله وأديان الناس وأصنامها، وبالتالي بين عقليتين دينيتين متضادتين، ومؤمنــين كلٌ بإيمانه الذي يصعب على أيّ منه زعزعة أسســه وبنيانه ووجوده. وكان هذا بمثابة انقــلاب جذري لم تعرفه جزيرة العرب ولا محيطها من قبل، مثلما عرفته جرّاء هذا الحدث التاريخي الذي دخل التاريخ وخرج من الجغرافيا، قوّة هائلة يصعب على أيّة جغرافيــا أن تحدّ من قوّتها، ولا على أيّ تاريخ أن يتجاهلها»[1].

لذلك، لم يتعرّض دين في التاريخ إلى حملات مشــوّهة لجوهره ومبادئه، مثلما تعرّض لها الدين الإســلامي. كما لم تتعرّض شــخصيّة في التاريخ أيضاً لهجومات حاقدة، منظّمة ومبرمجة بدقّة، مثلما تعرّضت لها شخصيّة النبيّ الكريم محمّد بن عبدالله (صلى الله عليه وســلّم)... وكذلك الحال مع القرآن الكريم، حيث لم يعرف كتابٌ في التاريخ هجوماً شرساً عليه، مثلما عرفه القرآن الكريم، على مختلف الصعد والمستويات، كما من جهات وفئات وقوى مســيحيّة ويهوديّة واســتشراقيّة، كانت تتبارى – بإرادتها أم دون إرادة أو تنسيق بينها– في الحطّ من شأنه، وتشــويه ما جاء فيه من أفكار ومبادئ وقيم، وفق سياسة وأهداف، بعيدة كل البعد عن المصداقيّة والمنطق وتحكيم العقل...[2].

(1) زهر الدين، صالح، مرجع سابق، ص 7–8.

(2) غريب، أيمن، في دراســته المنشــورة في مجلة «تحولات مشرقية» (اللبنانية)، العدد 29، شــهر تشرين الأول 2022، ص 97 (بعنوان: التحامل اليهودي – الاإستشراقي ضد النبي الكريم محمد (ص).

ولعلّ الدكتور مصطفى الرافعي كان صادقاً في قوله أنه «لم يواجه دينٌ من الأديان، ولا عقيدة من العقائد، ولا نظام من النظم، مثلما واجه الإسلام من مشكلات مستترة حيناً وظاهرة أحياناً»[1].

لقد شكّل الإسلام منذ وجوده، في الواقع، «سلطاناً» يختلف عن كل السلاطين التي عرفها البشر. كما مثّل القرآن الكريم «سلاح» ذلك السلطان، الذي هُزمت بفضله جميع الأسلحة الأخرى. إذ أن الدعوة الإسلامية «من تنزيل رب العالمين.. والقرآن الكريم دستور الدعوة وكتابها، وسجلّها الأمين، ومرجعها الثابت الصادق، وكله بيان لحقيقة الدعوة ووسائلها...».[2] من هنا نرى بأن «نفاسة الإسلام في ذاته، لا في دعاته»[3]، حيث أنه «وضع للناس الأسس الفكرية لكل ما يمكن أن يقوموا به في بناء الحضارة، وصنع التقدم»[4].

ونظراً لأن المستشرقين المغرضين وأسيادهم الاستعماريين والصهاينة، لا يريدون قيام حضارة عربية أو إسلامية تُبنى على أساس القرآن، ولا أن يصنع تقدم عربي أو إسلامي على هذا الأساس، فقد كانت محاولاتهم المستميتة لتشويه القرآن واستئصال فعاليته، النفسية والاجتماعية والحضارية، من نفوس أبنائه وقلوبهم وعقولهم، كمقدمة ضرورية لتحطيم «سلاح السلطان»، وصولاً لتحطيم «السلطان» نفسه بعد تجريده من سلاحه.

إذ أن ظهور الإسلام في الحقيقة «هو أعظم حادث تاريخي في العالم كله»[5]. لقد كان حاجة وضرورة في الوقت ذاته؛ وكما عبّر عنه الدكتور حسين مروّة صاحب «النزعات

(1) الرافعي، د. مصطفى، الإسلام ومشكلات العصر، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1987، ص17.

(2) غملوش، د. أحمد، الدعوة الإسلامية، أصولها ووسائلها، الشركة العالمية للكتاب، بيروت 1987، ص4.

(3) الرافعي، د. مصطفى، «الإسلام ومشكلات العصر»، مرجع سبق ذكره، ص 8.

(4) خلف الله، د. محمد أحمد، مفاهيم قرآنية، (سلسلة عالم المعرفة رقم 79)، الكويت 1984، ص 217.

(5) الجندي، أنور، «الإسلام والغرب»، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت، الطبعة الأولى 1982، ص 7.

المادية في الفلسفة الإسلامية» بقوله: لقد «جاء العالم في وقته المحتوم... ذلك هو – بدقة – ما يتميز به الحادث الكوني التاريخي العظيم»[1].

هذا وقد مثّل القرآن الكريم – بلا شك – نقطة البيكار المركزية في هذا الإطار، باعتباره الوحي المنزل من عند الله على رسـوله محمد بن عبد الله، خاتم النبيّين، المنقول عنه نقلاً متواتراً نظماً ومعنى، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً. كما هو بحق معجزة محمد (ص). ولقد بدأ نزول القرآن بمكة، عندما كان الرسـول الكريم يتعبّد وحده في غار حراء.. وتوالى نزول القرآن على حسب الحوادث، حتى تَمَّ نزوله في ثلاث وعشرين سنة تقريباً.

ويشتمل القرآن على سور؛ والسـورة هي قطعة من القرآن مستقلة، تشتمل على ثلاث آيات فأكثر. وسـور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، لكل منها إسم خاص. وقد وقع لبعضها إسمان فأكثر، من ذلك فاتحة الكتاب وتسمى أم القرآن والسبع المثاني.[2]

وسـور القرآن قسمان: فما نزل قبل الهجرة يقال له: المكي، وما نزل بعد الهجرة يقال له: المدني.

لم يجمـع القرآن في مصحف واحد إبان عهد النبـي (ص)؛ بل تمّ ذلك في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد زيد بن ثابت والنفر القرشـيين (الثلاثة الذين اشتهروا بالحفظ والضبط وجمع القرآن)[3].

(1) مروّة، د. حسين، «دراسات في الإسلام»، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الرابعة 1987، ص 10.

(2) زهر الدين، صالح، الإسلام والإستشراق، دار الندوة الجديدة، بيروت، ط1، 1991، ص 15.

(3) للتوسـع في ذلك، انظر: طبـارة، عفيف عبد الفتاح «روح الدين الإسـلامي»، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة السـابعة والعشرون، حزيـران / يونيو 1988، ص 18 – 28 (حيـث يذكر أنه كان من الصحابة في العهد النبوي من جمع القرآن حفظاً عن ظهر قلب، كعبد الله بن مسعود، وسالم بن معقل مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأبيّ بن كعب وزيد بن ثابت. كما كان رسـول الله قد اتخذ له كتّاباً يكتبون ما ينزل من القرآن أشهرهم: الخلفاء الأربعة: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. كذلك زيد بن ثابت وأبي بن كعب، ومعاوية، وثابت بن قيس، وخالد بن الوليد...).

وانطلاقاً من أن القرآن الكريم – باعتراف المسلمين جميعاً – هو المصدر الأول للإسلام: عقيـدة وشريعة، وهذا يعني أن حكـم القرآن في أية قضية مـن القضايا يكون ملزماً للمسـلمين جميعاً، فإنه يمثل الوثيقة التاريخية الأصيلـة في مثل هذا الموضوع. الوثيقة التي تكشـف عن الجذور التاريخية لهذه القضية، والتي تملي على العقل البشري الحكم المنطقي الملزم إلزاماً عقلياً في مثل هذه القضية؛ كما أنّه النص المتواتر الذي وصلنا سليماً من غير تحريف أو تبديل.[1]

ومجمل القول، أن القرآن الكريم أظهر ببلاغته وفصاحته وأسـلوبه ومعجزاته، قزميّة كل الفصاحات والبلاغات التي عرفتها العصور؛ ورغم مرور الزمن حتى اليوم، بقي مارداً جباراً أمام مسلسل من الأقزام لا ينتهي؛ خصوصاً أن القرآن أفحم أهله العرب وتحدّاهم أن يأتوا بمثله، بل ببعض السور المشابهة لسوره وآياته، فعجزوا رغم شهرتهم الفائقـة بالبلاغة والفصاحة في هذا الإطـار... وإذا كان القرآن قد أفحم أهله، فكيف بغير أهله من الغربيين؟ لذلك كان استشراسـهم في الردّ عـلى هذا الإفحام بمختلف السبل والوسائل.

والجديـر بالذكر، أنه عندما قرّر المسـتشرقون أن «يسـتشرقوا»، أو بالأحرى، عندما انخرطوا في «مهنة» الاسـتشراق، بدت معالم الطريق أمامهـم واضحة، حيث كانت الإشـارات المحدّدة بدقة، قد رُسمت مسـبقاً من قبل الدوائر الاختصاصية والخبراء، ليس في مجـال الطوبوغرافيا فقط، وإنما في مختلف مجـالات الحياة الأخرى. بمعنى أن أرباب النزعة الاسـتعلائية في الغرب، وبعد الهزائم التي مُنّوا بها على أيدي الشرقيين – ومنهم العرب والمسـلمين خصوصاً – (حيث تأتي حركة الاستشراق كامتداد للصراع الإسـلامي – الصليبي)، لمسـوا مدى حاجتهم إلى اسـتخلاص العبر والدروس من

(1) زهر الدين، صالح، الإسلام والإستشراق، مرجع سابق، ص 16.

تجربتهـــم وتجربة غيرهم، فلجؤوا إلى عملية تقويمية في هـــذا الإطار، بغية النفاذ إلى ما يضمن لهم عملية تأبيد (من مؤبد) ســـيطرتهم، واستمرارية تكبيل هذا الشرق وتقييده بسلسلة محكمة الحلقات الخانقة يصعب الخلاص منها.

وهكذا، أمام قوة الإســـلام واندفاعه، إحتل دير كلوني (CLUNY) في فرنســـا المرتبة الأولى في هـــذا الإطار، وبنوع أخصّ في التطلّع إلى معرفـــة كتاب القرآن الكريم الذي يعتبر «سرّ قوة المسلمين وجامع شـــملهم». وهذا الدير هو نفسه الذي عرف في القرن العاشر الميلادي حركة الإصلاح الدينية، التي عرفت باســـم «الحركة الكلونية»، والتي تطوّرت فيما بعد واتسعت حتى أصبح هدفها يتمحور حول الحرص على التخلّص من سيطرة السلطات الزمنية، وجعل البابا زعيماً للعالم المسيحي؛ ثم تعدّت ذلك إلى فرض الســـيطرة الروحية والزمنية للبابوية على العالم. وكانت الحروب التي عرفت بالصليبية فيما بعد- في أواخر القرن الحادي عـــشر- إحدى الإفرازات الأولى والأكثر أهمية لهذه المطامح»[1].

وعندما واجه الغرب المســـلمين العرب لأوَّل مرّة في التاريخ على أرض فلســـطين بعد ظهور الإســـلام، تطلّع علماء المســـيحية إلى معرفة الكتاب (القرآن الكريم) واستعانوا باليهود والنصارى من أهل الشـــام وفلســـطين؛ وأعلن بطرس المحـــترم (أو المبجّل) (Pierre le vénèrable) رئيـــس ديـــر كلـــوني، أن «نقطة البداية في حرب الإســـلام هـــي القرآن الكريم»[2]. وهـــذا المبدأ ذاته هو الذي دفع بوزير المســـتعمرات البريطاني

(1) للتوســـع في ذلك، أنظر: باركر، أرنســـت «الحروب الصليبية»، تعريب د. الســـيد الباز العريني، دار النهضـــة العربية، بـــيروت، الطبعة الثانية، دون تاريـــخ، ص 5. كذلك: فيشر، هربـــرت «تاريخ أوروبا للعصور الوســـطى»، ترجمة زيادة والعريني، الجزء الأول. دار المعارف بمصر. ص 143 – 146. رنسيان، ستيفن «تاريخ الحروب الصليبية»، ترجمة الســـيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، المجلد الأول، ط1، 1969، ص 99.

(2) شلبي، د. عبد الجليل عبده «صور اســـتشراقية» منشورات المكتبة العصرية. صيدا – بيروت، كانون

«غلادستون» (Gladston) عام 1895، أن يعلن بين زملائه في مجلس العموم البريطاني، وقد أمسك القرآن بيده، قائلاً: «لن تحقق بريطانيا من غاياتها في العرب والمسلمين إلا إذا سلبتهم سلطان هذا الكتاب أولاً. أخرجوا سرّ الكتاب من بينهم تتحطّم أمامكم جميع السدود»[1]. وبنوع من العهر الاستعماري العريق، يضيف غلادستون قائلًا: «لن تستقر أقدام الإنكليز في الشرق الأوسط ما دام القرآن يُتلى بين الشرقيين»[2].

على هذا الأساس، أوفد بطرس المحترم رئيس صومعة الرهبان في كلوني، عدداً من الرهبان إلى الشام ليتلقوا العبرية واللغة العربية. فقضى الراهب هرمان (Hermann) من كبار المسؤولين في دلماسيا (Dalmatia) ثلاث عشرة سنة عاكفاً على دراسة النحو والصرف، وعشر سنوات أخرى في دراسة اللغة العربية، ورجع إلى الأندلس مدرّساً للغة العربية في مدرسة الآباء المسيحيين في ريتينا (Retina).[3]

ومجمل القول، إن القرآن الكريم، شكّل بالفعل، – وكما أعلن بطرس المحترم – «النقطة الأولى في حرب الإسلام». ومن خلاله تعرّض النبي الكريم (ص) لحملة جنونية من الإتهامات والافتراءات، تبارى فيها الكتّاب والمستشرقون ووصفوا الوحي الذي كان ينزل عليه بأنه نوع من الهستيريا. مع العلم أن جميع هذه الافتراءات كانت لا تقوم ولا ترتكز على أي أساس علمي أو واقعي.. من ناحية أخرى، تؤكد بأن التعصّب الديني

الثاني/ يناير 1978، ص 26.

(1) البوطي، محمد سعيد رمضان، «من روائع القرآن»، مكتبة الفارابي، دمشق 1977، ص6.

(2) شلبي، د. عبد الجليل عبده. مرجع سبق ذكره. ص 28. وأيضاً: زهر الدين، صالح، «الإسلام والاستشراق، مرجع سبق ذكره، ص 21 و 282.

(3) الندوي، عبد الله عباس «ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند العرب» جدة – دار الفتح، مكتبة الإرشاد 1972، ص 26–27.
كذلك: المسلاتي، مصطفى نصر «الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين»، دار إقرأ، الجماهيرية الليبية، الطبعة الأولى 1986، ص 87.

الأعمى، والحقد الخبيث، لا يمكن لها أن يؤدّيا إلى الحقيقة؛ وسيكون الدس والتشويه والتحريف بمثابة العمود الفقري لكل بحث يستند إليها.

ومن هذا المنطلق أيضاً كانت «وصية الملك الفرنسي لويس التاسع»، التي تعتبر أخطر وصيّة بحق المسلمين منذ الحروب الصليبية حتى اليوم. فماذا عن نصّ هذه الوصية وفحواها ومخاطرها؟

تُعدّ وصية الملك الفرنسي لويس التاسع أخطر وثيقة في اتجاه المسلمين، حيث فتحت الباب واسعاً أمام عملية التبشير والاستشراق، وهي لاتزال محفوظة، في دار الوثائق القومية في باريس، حيث جاء فيها ما يلي، وهو يخاطب الغربيين قائلاً:

«إذا أردتم أن تهزموا المسلمين فلا تقاتلوهم بالسلاح وحده. فقد هُزمتم أمامهم في معركة السلاح. ولكن حاربوهم في عقيدتهم فهي مكمن القوة فيهم».[1]

هذه هي وصيّة الملك لويس التاسع ملك فرنسا وقائد الحملة الصليبية على مصر (1249 – 1250 م) سُجن بين جدران دار إبن لقمان التي اعتقل داخلها لمدة شهر كامل بجزيرة الورد الشهيرة. تقع بجوار المسجد الموافي وسط مدينة المنصورة فافتدى نفسه وبقية جنده بفدية كبيرة قدرت بعشرة ملايين من الفرنكات كما قيل. إنه رحل من دمياط في يوم 7 مايو/ أيار عام 1250م بصحبة زوجته «مارجريت» وطفله الذي ولد أثناء المعركة، وأطلقت عليه الملكة اسم «جان تريستان» أي وليد الأحزان ليصبح الشاهد الثاني على الهزيمة بعد دار «ابن لقمان».[2]

إن خِلوة لويس في معتقله بالمنصورة أتاحت له فرصة هادئة ليفكّر بعمق في السياسة

(1) انظر كتاب: عبدالله، محمد سويفي، بريجنسكي وشيطنة سياسات أمريكا في الشرق الأوسط، دار الكتاب العربي، دمشق – القاهرة، ط1، 2012، ص 13.

(2) المرجع نفسه، ص 14.

التـــي كان أجدر بالغرب أن يتبعها إزاء المســـلمين. ومنذ ذلـــك التاريخ لم يهدأ الغرب في محاربة الإسلام والمســـلمين، وعلى الأخصّ، في محاربة عقيدتهم وقرآنهم الذي يعتبر حجر الأساس، والمدماك الأهم في البناء الإسلامي، كما في دليل النبوّة أيضاً.

وهذا ما يعبّر عنه المستشرق هينز جروتسفيلد بقوله: «إن من بين دلائل الإعجاز في نبوّة الرســـول محمد، القرآن، الذي يجسّد بمعانيه علامة لم يسبق أن تطرّق إليها مؤلف كتب في هذا الموضوع، بل لقد انصرفوا عن الحيثيّات وسلّموا بواجب التأويل».[1]

هذا وقد ذكر ابن وَبَن أنـــه لقد «تبيّن له أن ما من كتاب، منذ بداية العالم، أُلّف من قبل عربي، فارسي، هندي أو يوناني كالقرآن، يهدي ويعلّم ويدلّ على الواحد الأحد». إلى أن يقول: «فلو أنّ أحداً وافانا بكتاب له مثل هذه الصفات، ويزاول نفس التأثير والسحر على قلوب البشر... وأن الذي بُعث به كان أمّياً، فلا شك أن في هذا دليل نبوّة أكيد».[2]

بعد هذا العرض، نتســـاءل: ماذا عن الإفتراءات الاســـتشراقية فيـــما يتعلق بطبعات وترجمات القرآن الكريم؟ والافتراءات حـــول الوحي القرآني؟ وحول مصادر القرآن الكريم... إلخ؟ هذا ما سنتطرق إليه في الصفحات اللاحقة كما يلي:

الجدير بالذكر أن القرآن الكريم طُبع في أوروبا إثنتي عشرة مرّة[3]، جاءت على الشـــكل التالي:

1- إن أوّل طبعـــة للقرآن في نصّه العربي هي تلك التي تمّت في البندقية في وقت غير محدد بالدقة، لكن المرجّح هو أن تاريخها هو سنة 1530 تقريباً. لكن جميع النسخ

(1) العالم، عمر لطفي، المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط1، 1991، ص 177.

(2) المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

(3) بدوي، عبد الرحمن، موســـوعة المســـتشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط 1، 1984، ص 302 – 305. كذلك: الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقية وأثرها على الدراسات الإسلامية، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا، ط 1، 1991، ص 309 – 318.

التي طبعت أحرقت. وكانت طبعة كاملة لكل القرآن.

2- تم طبع توما أرينيوس «سـورة يوسف» بنصها العربي مع ثلاث ترجمات لاتينية وشروح.. (تمت في مطبعة أرپنيوس - ليدن 1617).

3- طبعة يوهان زيشـندروف لبعض السـور، بدون تاريخ. طبعت في رسالتين في سينيا (Cygnea)، بحروف عربية منحوتة في الخشب.

4- وطبع في أمستردام 1646، كرسيتانوس رافيوس من برلين السور الثلاث عشرة الأولى من القرآن الكريم بحروف لاتينية، وفي مقابلها ترجمة لاتينية.

5- طبعة يوهانس جورج نسليوس (Nisselius) للسورة الرابعة عشرة، والخامسة عشرة بالنص العربي والحروف العربية، مع ثلاث ترجمات لاتينية وذلك في ليدن 1655 مطبعة يو. ألزافير (Jo. Elsevier) وهي التي اشـترت مطبعة أرينيوس بحروفها العربية.

6- طـبعة ماتيـاس فريدريـك بكيـوس (Beckius) عـام 1688، وذلك في Augustae vin deli corum.

7- أما أول طبعة للنص الكامل للقرآن وبحروف عربية، وانتشرت ولا يزال توجد منها نسـخ في بعض مكتبات أوروبا، فهي تلك التي قام بهـا أبراهام هنكلمان Abraham Hinckelmann(1652 - 1695) في مدينـة هامبورغ بألمانيا سـنة 1694، وتقع في 560 صفحة.

8 - وأجود منها وهي التي حظيت بالشـهرة والذيوع، طبعة كاملة للقرآن، قام بها «لودوفكو مرتشي (Ludovico Marracci) الراهب المنتسب إلى «جمعية رهبان أم الله»، وكان معرفاً للبابا أنوسـنت الحادي عشر. وتـمّ الطبع في مدينة بتافيا (Pattavia) سنة 1698 في مطبعة السمينارين..

9- وفي برلين سنة 1701 نشرت مختارات من القرآن بالعربية والفارسية والتركية واللاتينية قام بنشرها أندريا أكولوثوس (Anderia coluthos) اللاهوتي وأستاذ الدراسات واللغات الشرقية في براتسلافا.

10- طبعة كاملة للقرآن في نصه العربي، تمت في بطرسبرج سنة 1787 في 477 صفحة. وقد نشرت برعاية امبراطورة روسيا كاترين الثانية «ليستفيد منها رعاياها المسلمون». وقد أشرف على الطبع مُلا عثمان إسماعيل[1].. وقد أعيدت هذه الطبعة سنة 1790، وسنة 1793، دون أي تعديل.

11- وطبع النص العربي الكامل للقرآن مرتين في قازان سنة 1803. وقد أشرف على هذه الطبعة «عبد العزيز توقطمش بن علي».

12- لكن يفوق تلك الطبعات جميعها، كما ستصبح عمدة الطبعات الأوروبية، والمرجع للباحثين جميعاً في أوروبا، الطبعة التي قام بها جوستاف فلوجل سنة 1834 في ليبتزك، عند الناشر كارل تاوخنتس الشهير. (ثم أعيد الطبع مرة ثانية في ليبتزك عام 1841، وطبعة ثالثة مصحّحة عند نفس الناشر سنة 1858، وكذلك طبعة رابعة 1870، وخامسة 1881، وسادسة 1893...).

13- أما على صعيد ترجمات القرآن الكريم الأولى إلى اللغات الأوروبية، فإن أوّل وأقدم ترجمة كاملة للقرآن - كمحاولة لتعريف الغرب بمحتواه كانت في فترة 1096 - 1270 (أي منذ بداية الحروب المعروفة بالصليبية حتى نهايتها تقريباً) - هي تلك التي دعا إليها ورعاها بطرس المحترم أو المبجل (رئيس دير كلوني)، وتولّاها بطرس الطليطلي وهرمن الدماشي وروبرت كينت، وراجع

(1) بينما يذكر المستشرق السوفياتي بيوتر غرباز نيفيتش أن الذي أشرف على هذا الطبع هو الملاّ عثمان إبراهيم. (راجع: حولية «نحن والعرب» 1988، دار التقدم، موسكو 1988، ص 170).

الترجمـــة اللاتينية بيير دي بواتييـــه (Pierre de Poitiers) وتمت هذه الترجمة في سنة 1143، حيث بقيت في صومعة بطرس المذكور طيلة أربعة قرون، حتى كان ظهور المطابع، فتولى تيودور ببلياندر (Theodor Bibliander) طبعها في مدينة بازل، بسويسرا، عام 1543.[1] بينما يذكر البعض أن طبعها في بازل كان قد تم في سنة 1553، مضيفاً بأن هناك رواية تقول: أن رهبان إيطاليا أحرقوا هذه الترجمة خوفاً من تأثيرها على الناشئة، وكذلك على الرهبان أنفسهم[2].

والواقع أن هذه الترجمة التي أمر بها بطرس المبجل كانت أقرب إلى التلخيص الموســع (Paraphrase) منهـــا إلى الترجمة؛ فهي لا تلتزم بالنص دقة وحرفية. ولا تلتزم بترتيب الجملة في الأصل العربي، وإنما هي تســتخلص المعنى العام في أجزاء السورة الواحدة، ثم تعبر عن هذا بترتيب من عنــد المترجم. ورغم هذا العيب العام، والأخطاء الجزئية في فهـــم بعض الآيات، فإن هذه الترجمة «بوصفها أوَّل ترجمة للقرآن إلى لغة أجنبية تعد إنجازاً مهماً كما قال هوك»[3].

وحقيقة الأمر، أن هـــذا «العيب العام الذي يعتبر إنجازاً مهماً في نظر الأجانب، إلا أننا لا نســتطيع اعتباره نحن العرب والمســلمين، إلا «فضيحة» بكل ما تعنيه الكلمة من معنى، لأنها تحمـــل أبعاداً لا تخفى مخاطرها على أحد، خاصة، وأنها تتناول قدســاً من مقدساتنا وتمس وجودنا من الأساس.. ومن خلال ذلك يعتبرها الأوروبيون – على ما يبدو – إنجازاً مهماً.

(1) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 306. كذلك: الندوي، عبد الله عباس، ترجمات معاني القرآن، مرجع سابق، ص 28 –29.

(2) المسلاتي، مصطفى نصر، الاســتشراق السياسي، مرجع سابق، ص 87 – 88، نقلًا عن الندوي، عبد الله عباس، مرجع سابق، ص 28–29.

(3) بدوي، عبد الرحمن، موسوعة المستشرقين، مرجع سابق، ص 307 –308.

• وعـــن هذه الترجمـــة اللاتينية – المشـــوّهة – تمّت أول ترجمـــة إيطالية، حيث قام أريفابيني (Arrivabene) في سنة 1547 بترجمة القرآن إلى الإيطالية.

• وعن هذه الترجمة الإيطالية تمّت الترجمة الألمانية التي قام بها ســـالومون أشـــقجر (Salomon Schweigger)– في ســـنة 1616، وطبعت طبعة ثانية في نورنبرج ســـنة 1623.. وهذا يعني أن التشويه كان قاسماً مشتركاً بين الغربيين بشأن هذه المسألة.

ولم يضع حداً لاستعمال أو لانتشار الترجمة اللاتينية التي أمر بها بطرس المحترم إلا الترجمة اللاتينية الجيدة التي قام بها لويجي مرتشي (Luigi Marracci) الإيطالي، وطبعت سنة 1868 في بادوا (Badua)، حيث كان له رســـالة في تعريف الإسلام ورسوله. وتأكيداً لدور مرتشي فقد ذكر الســـير «أدوارد دونسون روز» (Edward Denson Rose) في مقدمته لترجمة معـــاني القرآن: أنه لا توجد ترجمة لمعاني القـــرآن في اللغة الأوروبية إلا وهي مدينة لفضل مرتشي. حيـــث أن مقدمته لترجمة القرآن تجمع ما عرفه أهل أوروبا عن الإسلام ومحمد والقرآن آنذاك[1].

• يضـــاف إلى ذلك أنه عن الترجمة الألمانية، تمّت ترجمة القرآن إلى اللغة الهولندية ســـنة 1641.

• كما أن أول ترجمة للقرآن الكريم إلى الفرنســـية هي التي قام بها قنصل فرنسا في مصر «أندرياس دي رير (Andreas du Ryer) وذلك سنة 1647، وكان يتقن اللغة العربية واللغة التركية! لكن في ترجمته هـــذه كثيراً من المواضع الغامضة[2]. وقد أعيد طبعها في هولندة سنة 1649. ويذكر المستشرق السوفياتي الشهير بيوترغيازنيفيتش في مقاله عن

(1) المسلاتي، مرجع سابق، ص 88. كذلك: بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 308.

(2) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 309.

«القرآن في روسيا» أن الترجمة الفرنسية للقنصل دي ريير (Du Ryer) كانت بعيدة جداً عن النص العربي الأصلي. وقد استند إليها المترجم بيوتر بوسنيكوف، حيث لم يكتف بتكرار التشويه الذي يشاهد بنسبة كبيرة في ترجمة «دي ريير» بل أضاف إليه أخطاءه المرتبطة بعدم استيعابه الكامل للغة الفرنسية، وسوء معرفته لأسس الإسلام.. ورغم ذلك فقد أثارت ترجمة بوسنيكوف اهتمام العلماء الروس لدراسة القرآن[1].

والجدير بالذكر أنه عن هذه الترجمة الفرنسية (المشوّهة) تمّت عدة ترجمات إلى: الإنجليزية والهولندية والألمانية والروسية. كما ظهرت ثاني ترجمة فرنسية للقرآن بعد ذلك ب،136 سنة، إذ طبعت في باريس سنة 1783 وقام بها سافاري (M. Savary).

ومما لا شك فيه أن بريطانيا لم تكن بعيدة عن الاهتمام بالشرق، وبالمسلمين وبالقرآن على الأخص فقد بدأت طباعتها مجزأة، وصدرت عن مطبعة ليونورسل عام 1648 إلى عام 1688 بواسطة الكسندر روز (Alexander Rose) وسمّاها «قرآن محمد» وطبعت الترجمة بكاملها عام 1718 في لندن. ثم تلتها ترجمة جورج سيل (G. Sale) الشهيرة سنة 1734، والتي تعتبر أقدم ترجمة إنجليزية للقرآن عن العربية مباشرة، وحظيت منذ ظهورها في لندن بانتشار واسع حتى اليوم؛ وقد أعيد طبعها باستمرار. ولم يكن «جورج سيل» أقل حقداً على الإسلام من بني جلدته، المستشرقين، غير أنّه لم يكف عن توجيه شتائمه المباشرة وأحقاده، وكان يقلّل من معنوية القرآن ورسالة الإسلام، فضلاً تحريف الآيات وتشويه مضامينها، وصولاً لحكم مسبق في ذهنه، يخدم مصالحه وأهدافه البعيدة عن جادة الحق والصواب[2]، مجارياً في ذلك كبار الكتّاب الأجانب الذين بالغوا في تحليلاتهم وفي افتراءاتهم الكثيرة، حتى أصبح عملهم هذا بمثابة «اتجاه عام» أو «نهج»

(1) خولية، «نحن العرب»، مرجع سابق، ص 171. كذلك: زهر الدين، صالح، الإسلام والاستشراق، مرجع سابق، ص 24.

(2) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 309 –310، والمسلاتي، مرجع سابق، ص 88–90.

قائم بذاته؛ وهذا ما دفع «السير أدوارد دونسون روز» (Edward Denson Rose) إلى مهاجمة هذا النهج بقوله: «إن المعرفة التي يملكها أغلبية الأوروبيين تجاه الإسلام مبنية كلياً على التقارير المشبوهة التي أعدّها المتعصّبون من النصارى عن الإسلام، وقد أدّت هذه التقارير إلى انتشار عدد كبير من الافتراءات الفادحة، وكل ما وجدوه في الإسلام من خير تجاهلوه، وكل ما هو غير طيب في عين أوروبا كبّروه، وبالغوا فيه أو حرّفوه[1].

وبقـــدوم العام 1886، نشرت الطبعة الأولى لترجمة.ج. رادويل (Radwell) وقد كتب مقدمتها المســـتشرق اليهودي المعروف جورج مرجليوث (Margolioth). ولعلّ أبرز ما أثاره رادويل في ترجمته هو ترتيبه للقرآن ترتيباً زمنياً حسب نزول السور.

كذلك كانـــت ترجمة البروفســـور «أدوارد هنـــري بالمـــر» (E.H.Palmar)، وقد جاء عمله بطلب من المســـتشرق الألماني «ميكســـو» رئيس قسم الدراسات الشرقية بأكســـفورد. وظهرت ترجمة البروفســـور «بالمر» لمعاني القرآن وقوبلت باستحسان المستشرقين من ناحية الأسلوب الأدبي[2]، إلا أنه كسابقيه لم يتحرّر كلياً من المؤثرات والتقليـــد، وخصوصاً أفكار رادويل المتطرّفة... وعلى هذا الطريق، حذا حذوه جميع الذين اعتمدوا نفس المنهج، وصولاً للهدف ذاته المتمثل بالعداء للإســـلام والحقد عليه.

أما في ألمانيـــا، فكانت أقدم ترجمة ألمانيـــة عن النص العربي مبـــاشرة، هي ترجمة دافيد فريدرش، ميجرلن، الأســـتاذ في جامعة فرنكفورت، وقد ظهرت ســـنة 1772... وفي الســـنة التالية، أي في عام 1773، ظهرت ترجمة أخرى عن الأصل العربي مباشرة، وقد قام بها فريدرش أبرهرد بويزن[3].

(1) الندوي، عبد الله عباس، مرجع سابق، ص 31 وما بعدها.

(2) الندوي، مرجع سابق، ص 46. والمسلاتي، مرجع سابق، ص 91.

(3) بدوي، عبد الرحمن، مرجع سابق، ص 310.

ومن الطبيعي، أن روسيا لم تكن بعيدة عن هذا الجو مطلقاً، بل كانت في صلبه؛ إذ أننا نجد القرآن الكريم في عشر لفافات كاملة من الرق في لينغراد، يرجع تاريخ أقدمها إلى عام 1010.[1]

وفي نهاية القرن السابع عشر، ظهر أول مؤلّف مكرَّس خصيصاً للقرآن باللغة الروسية. وجرى وضع هذا الكتاب من أجل الأمير بطرس الذي أصبح فيما بعد امبراطور روسيا، ولأخيه إيفان ؛ وكانت من نتائج ذلك فكرة بطرس الأول حول الترجمة الكاملة للقرآن إلى اللغة الروسية سنة 1716 في بطرسبرج.

هذا، ويعود شرف نشر أوّل ترجمة للقرآن من العربية إلى «سابلوكوف» (Sablokov)، ويشغل اسمه مكانة مرموقة في تاريخ الاستشراق الروسي، خاصة وأنّه كرّس حياته للعمل من أجل ترجمة القرآن. وعندما أنجز ذلك كان قد بلغ من العمر 74 سنة. وقد قيّض لترجمة سابلوكوف إرضاء حاجات العلم والمتطلبات المتنوّعة للمجتمع الروسي خلال حوالي مائة عام، كما يقول بيوتر غريازنيفيتش.

هذا، ومن ضمن الأعمال العديدة عن القرآن التي ظهرت بعد «ثورة أكتوبر/ آب 1917، في روسيا، تجدر الإشارة إلى أعمال المستشرق الأكاديمي «بارتولد»، كذلك بحوث المستعربة الموسكوفية «ك. كاشتالوفا»، ومقالات البروفسور «ي. فينيكوف»، وغيرهم..

كما تجدر الإشارة أيضاً، إلى أنه بعد انتصار ثورة أكتوبر الاشتراكية بقيادة فلاديمير ايليتش لينين في روسيا (1917)، تأسّست في بطرسبرج «الشورى الإسلامية المحلية»، وهي التي كلّفت بالاهتمام بمصير المصحف الشهير بـ «مصحف عثمان» الذي يقال بأنه سُلب من مسجد علي بن أبي طالب بالبصرة، ونقل الى سمرقند، ومنها الى روسيا

(1) بوريس يزييف ومحمد خان ميرزا محمدوف «كنوز العبقرية البشرية، التراث الثقافي الإسلامي في الإتحاد السوفياتي». دار نشر وكالة نوفوستي. موسكو 1985، ص 24.

في مكتبة بطرسبرغ الملكية»[1].

وفي خريف العام 1963، أصدرت دار نشر الآداب الشرقية في موسكو الترجمة الروسية للقرآن التي قام بها المستشرق الكبير «أغناطيوس كراتشكوفسكي» الذي أظهر منذ أمد بعيد اهتمامه بالقرآن، وفكرة أن تستبدل بترجمة سابلوكوف ترجمة جديدة قادرة على تلبية المتطلبات العصرية للعلم. وقد بدأ عمله في هذه الترجمة في خريف العام 1921 لمدة 9 سنوات، وأنهى نسخة العمل الأولية في خريف العام 1930.. وكان الحكم على هذه الترجمة أنه بدقتها وأسلوب دراستها للنص، تتفوق على جميع الترجمات الأخرى، لا الروسية فحسب، بل وحتى العديد من الترجمات الأوروبية[2].

ومجمل القول إن القرآن الكريم، شكل بالفعل، – وكما أعلن بطرس المحترم – «النقطة الأولى في حرب الإسلام» ومن خلاله تعرّض النبي الكريم (ص) لحملة جنونية من الإتهامات والافتراءات، تبارى فيها الكتّاب والمستشرقون ووصفوا الوحي الذي كان ينزل عليه بأنه نوع من الهستيريا، مع العلم أن جميع هذه الافتراءات كانت لا تقوم ولا ترتكز على أي أساس علمي أو واقعي.. (كما سبق وذكرنا).

هذا، وقد كثرت شبهات المستشرقين حول مصدر الوحي والقرآن، «فكانت كلماتهم لا تخرج عن كون القرآن من صنع النبيّ الكريم»[3]. وهم يوردون عدّة مصادر محتملة لأخذ النص القرآني والانطلاق من ذلك لإنكار المصدر الإلهي، ومنها على سبيل المثال لا الحصر:

(1) زهر الدين، صالح، الإسلام والاستشراق، مرجع سابق، ص 28–29.

(2) حولية «نحن والعرب»، مرجع سابق، 169 – 176. كذلك مجلة «الفكر العربي»، العدد 31، معهد الإنماء العربي، بيروت 1983، ص 266 – 291.

(3) الأعرجي، ستار جبر، والدروغي، إيناس جاسم محمد، في دراستهما المنشورة في مجلة «دراسات استشراقية» (العتبة العباسية المقدسة)، العراق، العدد 4، ربيع 2015، ص19.

أولاً: اليهودية والنصرانية.

ثانياً: مصدر الوحي: الاضطرابات النفسية.

ثالثاً: مصدر الوحي: الحنيفية.

رابعاً : مصدر الوحي: الشيطان.

خامساً: مصدر الوحي: الحالة المرضية والهستيرية.

سادساً: مصدر الوحي: البيئة المكية ومظاهر الجاهليّة...[1].

مع العلم «أن المسلمين يؤمنون إيماناً مطلقاً بأن مصدر القرآن هو الله سبحانه وتعالى، الذي أنزل على النبي مدّة البعثة. وهذا الإيمان من الأمور التعبّدية الاعتقادية التي لا مجال للشك فيها»[2].

أما عندما نستعرض لائحة بعض المستشرقين الذي افتروا على الإسلام والمسلمين وشكّكوا بقداسة القرآن ومصدره ونبيّه، فإننا نستطيع الإشارة إلى أهمهم، وهم: المستشرق المجري (اليهودي) جولدزيهر، ومونتغومري وات (الإنجليزي)، والفرنسي ريجي بلا شير، وكذلك كليمان هيوار، والأب هنري لامنس اليسوعي... إلخ، ودافيد صمويل مرغليوث، وغوستاف فون غرونباوم، وألفرد غليوم البريطاني.. إلخ، وغيرهم كثيرون، حيث كان معظمهم يهوداً صهاينة، أو صهيونيين من غير اليهود...

وفي ختام هذا البحث، نستطيع القول أنه بعد هذا العرض – شبه التفصيلي – يمكننا تسجيل النقاط التالية:

أولاً: لو اقتصر تأثير القرآن الكريم على البلاد العربية وحدها، لربما كنا لم نشهد ما

(1) المرجع نفسه، ص 19 – 35.

(2) الحاج، ساسي سالم، الظاهرة الاستشراقية، مرجع سابق، ص 319–350.

شهدناه من هجمة استشراقية بهذا الحجم، عنصرية حقودة، من قبل الغربيين واليهود على مختلف مستوياتهم ومشاربهم. لكن «إنسانية» الإسلام وانتصاراته الفائقة على الغرب، و«عالمية» كتابه الكريم، هي التي دفعت بهؤلاء إلى الاستماتة في هجمتهم للحطّ من شأنه أولاً، وتقليص فاعليته الكونية ثانياً، وزرع الشكوك واليأس في نفوس أبنائه ثالثاً، وحقن العرب والمسلمين بحقن مورفينية غربية سامة رابعاً (فكرياً وسياسياً واجتماعياً ونفسياً) وصولاً إلى حالة «الطلاق» بين الإنسان المسلم من جهة وبين كتابه ودينه من جهة أخرى، ليصبح في حالة ضياع وبلبلة فكرية وأخلاقية ودينية يسهل من خلالها السيطرة عليه والتحكّم به وتجنيده لخدمة أهداف لا تمّت إلى الإسلام والمسلمين بصلة. وبدلاً من أن يكون عاملاً إيجابياً في تطوير مجتمعه وأمته، يصبح عالة عليهما، إن لم نقل خطراً وكارثة. وهذا هو الهدف الأرقى الذي يبتغيه أعداء العرب والإسلام، باعتبار أن «تخريب الداخل» أهم وأجدى وأفعل من التخريب الآتي من الخارج؛ بمعنى خلخلة الشخصية وزعزعتها.[1]

ثانياً: لقد نجح اليهود في كثير من الأحيان في تأسيس «مدارس يهودية» في الإسلام، تخرّج جنوداً يعتنقون الإسلام، لكنهم يعملون على تقويض أسسه ودعائمه من الداخل باسم الحفاظ عليه والدفاع عنه. وما أكثر «المتهوّدين» اليوم في إسلامنا، مع العلم أن فرقة «الدونمة» من اليهود الأتراك هي خير شاهد على ذلك في القرن العشرين، حيث ارتكبت من المجازر والمذابح بحق العرب والأرمن، ما لا ينسى حتى اليوم.

ثالثاً: لقد نجح الاستشراق في أن يكون فاعلاً ومؤثراً ضد العرب والإسلام. ولم

(1) زهر الدين، صالح، في دراسته المنشورة في كتاب «القرآن الكريم، علوم وآفاق»، المستشارية الثقافية الإيرانية في دمشق، 1992، (بعنوان: القرآن الكريم والمستشرقون)، ص 215.

تكن دولة الإحتلال الصهيوني على أرض فلسطين العربية الإسلامية سوى إحدى ثمراته، ومن أهم إفرازاته. وقد قامت بدورها ووظيفتها على أكمل وجه – وبدعم غربي – في زرع الفتن وبثّ الأحقاد والعنصريات والتفرقة بين العرب والإسلام. كما عملت بدأب على نشر الفساد والإفساد بجميع صوره – ولا زالت – وتشجيع فتح الحانات وبيوت الدعارة، وتهريب المخدرات في الأوساط الإسلامية، بعد أن كانت قد روّجت – ولا زالت –موجة «المخدرات الفكرية والثقافية والإعلامية»[1]..

رابعاً: إن ما يعيشه اليوم بعض العرب والمسلمين من هزائم، لا تعني أبداً هزيمة الإسلام وكتابه الكريم.. فالإسلام والقرآن هزما كل العصور ولم – ولن – ينهزما، وانتصرا على كل العصور ولن ينكسرا.. لذلك كانت نكهة الانتصارات كلها «قرآنية» (بينما كانت الهزائم بأجمعها لا تحمل أية نكهة من هذا القبيل، لانعدام الإيمان بالإيمان القرآني وروحه الجهادية) تماماً كانتصارات رجال المقاومة الوطنيّة الإسلامية في جنوب لبنان ضد العدو الصهيوني وحلفائه، في هذه الأيام..

خامساً: إن خير ما نختم به كلمتنا هو ما يلي: يجب أن يكون المسلمون يداً واحدة ويتّحدوا ويتوحّدوا، لا ينفصل بعضهم عن البعض الآخر، ولا يجعلوا الحدود فواصل بين القلوب..

ففي الفرقة تمزّق وهزيمة، وفي الوحدة انتصار.. فلنتوحّد.[2]

(1) زهر الدين، صالح، المرجع نفسه، ص 216.

(2) المرجع السابق نفسه، ص 217.

دفاعاً عن رسول الرحمة محمد ﷺ في غزوة بني قريظة الأسباب والأحداث ورأي دفاعي

بلسم بهجت بوشقرا[1]

مقدمة

الإنسان الشريف إذا قطع وأعلن عهداً، التزم به سواءً مع نفسه أو مع الآخرين، أما نقضه فليس من شيم وأخلاق المؤمنين بالله عز وجل والمقرين بالقيم الإنسانية والمجتمعية في أيّ زمان ومكان.[1]

قال الله تعالى:

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾[2]

فعدم الوفاء بالعهد نهى عنه الله عز وجل ووصف فاعله بالفاسق، والفسق معناه في اللغة هو الخروج عن الطاعة[3] قال **الأصبهاني**[4]: الفسق أعم من الكفر، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخلّ بجميع أحكامه، أو ببعضها.

وقد حرم الله على المؤمنين نقض العهود، وأوجب عليهم الوفاء بها فقال عز وجل:

(1) طالب دكتوراه في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الجنان، تخصص: تاريخ إسلامي.

(2) **القرآن الكريم**، سورة الأعراف، آية 102.

(3) الرازي أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني،1399(ه – 1979 م ،**مقاييس اللغة**، دار الفكر، دمشق المحقق: هارون عبد السلام محمد،الجزء الرابع، صفحة 502.

(4) **الأصبهاني** أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران، الإمام الحافظ، الثقة العلامة، شيخ الإسلام، أبو نعيم، المهراني، الصوفي، الأحول، صاحب " الحلية " . ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة ه .سيرأعلام النبلاء، جزء 17أ صفحة 454.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1]

أي الذي تعاهدوا عليــه الناس والعقود التي يتعاملون بها، فــإن العهد والعقد كل منهما يسأل صاحبه عنه وقال عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾[2]

وقد حذر **الرسول** ﷺ من ذلك أشد التحذير فقال:

أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًــا خَالِصًا، ومَن كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ منهنَّ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّــى يَدَعَهَا: إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وإذَا حَدَّثَ كَــذَبَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَر.[3]

بل عَدّ **رسول الله** ﷺ من التصق بهذه الصفة السيّئة فقال:

لا إيمانَ لمن لا أمانةَ له، ولا دينَ لمن لا عهدَ له[4].

وعُــدَّ النكث بالعهود من الكبائر من قبل العديد من العلماء، منهم الإمام **الذهبي**[5] حيث قال: الكبيرة الخامسة والأربعون: الغدر وعدم الوفاء بالعهد.

واقتداءً بالتعاليم رأينا العديد من الأمثلة الصالحة في حفظ العهود منها، ما روي عن عمرو

(1) **القرآن الكريم**، سورة الاسراء، أية .34

(2) **القرآن الكريم**، سورة المائدة، آية رقم .1

(3) الراوي: عبــدالله بن عمرو، المحدث: البخاري، المصدر: صحيح البخاري، الصفحة أو الرقم : 34، خلاصة حكم المحدث: [صحيح]، التخريج : أخرجه البخاري 2459)، ومسلم 58).

(4) الــراوي : أنس بن مالك، المحــدث : المنذري، المصدر : الترغيب والترهيــب، الصفحة أو الرقم : 4/ 77، خلاصــة حكم المحدث : [إســناده صحيح أو حســن أو ما قاربهما]، التخريــج: أخرجه أحمد 12567)، والبزار 7196)، وأبو يعلى 2863).

(5) **شــمس الدّيــن الذَّهَبِيّ** 673 هـ – 748 هــ/ 1274م – 1348م) هو محُــدث وإمام حافظ. جمع بين ميزتين لم يجتمعا إلا للأفذاذ القلائل في تاريخنا، فهو يجمع إلى جانب الإحاطة الواسعة بالتاريخ الإسلامي حوادث ورجالاً، المعرفة الواسعة بقواعد الجرح والتعديل للرجال، فكان وحده مدرسة قائمة بذاتها، عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة .2023

بن عبسة[1] حين وثق رجوع معاوية[2] عن المسير في بلاد الروم إلى انقضاء مهلة الأمد والمهادنة.

إن لنقض العهود كما أشير عواقب وخيمة في الإسلام وسائر المجتمعات، وذلك كان السبب الرئيسي في غزوة رسول الله ﷺ لبني قريظة[3] وما تبعها من نتائج وأحداث.

الأسباب

لقد نقض أفراد **لبني قريظة** عهدهم مع **رسول الله** ﷺ، وتآمروا عليه في أحرج المواقف؛ فقد كشفوا ظهور المسلمين للأحزاب، هي غزوة وقعت في شهر شوال من العام الخامس من الهجرة الموافق مارس 627م) بين المسلمين بقيادة الرسول ﷺ، والأحزاب الذين هم مجموعة من القبائل العربية

المختلفة، كقبيلة قريش وحلفائها: كنانة الأحابيش)، وقبيلة غطفان فزارة وبنو مرة وأشجع) وحلفاؤها بنو أسد وسليم وغيرُها، وقد سُمّوا بالأحزاب، التي اجتمعت لغزو المدينة المنورة والقضاء على المسلمين والدولة الإسلامية، بعدما نجح ساسة اليهود وقادتهم في تأليب أحزاب الكفر على النبي ﷺ ودعوته. وكانت ذراري المسلمين بمقربة من هؤلاء الغادرين في غير منعة ولا حفظ. وقاموا بعمليات حرب ضد المسلمين، وطافوا بالحصون التي كانت فيها نساء المسلمين وذراريهم، حتى أخذت صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ عموداً فضربت أحد أفراد بني قريظة حتى قتل.[4]

---

(1) الصحابي **عمرو بن عبسة السلمي** أسلم بمكة قديما، وهو من السابقين الأولين في الإسلام عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة . 2023

(2) **أبو عبد الرحمن معاوية** بن أبي سفيان الأموي القرشي،608 م – 15 ق ه/ 680 م 60 ه) من أصحاب الرسول محمد ﷺ وأحد كتّاب الوحي. سادس الخلفاء في الإسلام ومؤسس الدولة الأموية في الشام وأوّل خلفائها. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة .2023

(3) **بنو قريظة**. هي قبيلة يهودية عاشت في شبة الجزيرة العربية حتى القرن السابع، في يثرب. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة .2023

(4) الهلالي سليم بن عيد، 1419 ه – 1999 م)، **غزوة بني قريظة**، دار إبن الجوزي، الدمام، السعودية، ص 6.

ثم أتى الأمر الإلهي بعدم إلقاء السلاح بعد اندحار الأحزاب، قبل الاقتصاص من خونة بني قريظة. قال محمد بن إسحاق[1] رحمه الله: ولما أصبح رسول الله ﷺ انصرف عن الخندق راجعاً إلى المدينة والمسلمين، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ، كما حدثني الزهري معتجراً بعمامة من استبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله؟

قال: «نعم» فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم.[2]

الأحداث

قال الله عز وجل:

﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾.[3]

في تفسير البغوي[4] قوله عز وجل: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ أي: من فوق الوادي من قبل المشرق، وهم أسد، وغطفان، وعليهم مالك بن عوف النصري وعيينة بن حصن الفزاري في ألف من غطفان، ومعهم طليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وحُيَي بن أخطب في يهود بني قريظة ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يعني: من بطن الوادي، من قبل المغرب، وهم قريش وكنانة، عليهم أبو سفيان بن حرب في قريش ومن تبعه، وأبو الأعور عمرو

(1) محمد بن إسحاق بن يسار المدني 699 / 769م): حافظ، محدث، نسابة، ومن قدماء مؤرخي العرب، وحفاظ الحديث، له السيرة النبوية)،عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع: الشهر السابع في سنة 2023.

(2) ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، ت 774 هـ – 1372 م) **البداية والنهاية**، الناشر: مطبعة السعادة – القاهرة، الجزء الرابع، ص116.

(3) **القرآن الكريم** – سورة الأحزاب – أية رقم .10

(4) الحافظ البغوي هو إمام حافظ وفقيه، م 1122 – (1044 واسمه الكامل "أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي"، ويلقب أيضاً بركن الدين ومحي السنة. أحد العلماء الذين خدموا القرآن والسنة النبوية الإسلامية، دراسة وتدريساً، وتأليفاً. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة 2023.

بن سفيان السلمي من قبل الخندق.

أرسل الله عز وجل ريحاً قويةً تعصف بمعسكر المشركين، فاقتَلَعت خيامهم، وقَلَبت قدورهم، وأطفأت نارهم، لتكون هذه الريح أحد الأسباب التي دفعت المشركين لفك الحصار الذي دام شهراً كاملاً على المدينة المنورة، والتراجع والانسحاب دون قتال ومواجهة. هذا التراجع أدى إلى توفير الوقت لمحاسبة بني قريظة لخيانتهم العهد والميثاق، الفعل المستنكر من جميع الأديان والأعراف الاجتماعية.

لقد أسفر هذا الحصار عن عدد قليل من الشهداء المسلمين ومن المعتدين المشركين.

الأوس وهم: سعد بن معاذ وأنس بن أوس وعبد الله بن سهيل وثلاث من الخزرج وهم: الطفيل بن النعمان وثعلبة ابن غنمة، وكعب بن زيد. خسائر المشركين في الغزوة ثلاثة: عمرو بن عبد ود العامري، نوفل بن عبد الله المخزومي، حسل بن عمرو بن عبد ود العامري. [1]

ولا بد من الإشارة إلى أن تراجع المشركين فيه دلالان: أولهما أن المشركين لن يتجمعوا مرةً أخرى لمواجهة المسلمين، وثانيهما أن عجز المشركين وهم متجمعون ومتّحدون على هزيمة المسلمين والقضاء عليهم يدل على عجزهم عن ذلك وهم منفردون. [2] وأنهم في نفس الوقت نكثوا باتفاقهم مع بني قريظة بمساندتهم دون مبالاة أو تأنيب ضمير، مما أجبرهم إلى التراجع أيضاً إلى قلاعهم، والدفاع من ورائها موقنون مصير الخائن.

نادى صلّى الله عليه وسلم في المسلمين تنفيذاً لرسالة **جبريل** عليه السلام.

«ألا لا يصلّين أحد العصر إلا في بني قريظة، فسار الناس، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلّي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلّي، ولم يرد منا ذلك.

(1) العواجي محمد، 1425هـ – 2004م)، **مرويات الإمام الزهري في المغازي**، الطبعة 1)، ج1،ص.514

(2) خطاب محمود شيت، 1422 هـ – 2001 م)، **الرسول القائد**، بيروت: دار الفكر، الطبعة السادسة) ص 239.

فذكروا ذلك للنبي صلّى الله عليه وسلم، فلم يعنف أحداً منهم». [1]

وحاصر رسول الله صلّى الله عليه وسلم بني قريظة وهم متحصّنون في حصونهم) خمساً وعشرين ليلة وقيل خمسة عشر يوماً حتى جهدهم الحصار وقذف الله في قلوبهم الرعب. [2]

بعد حصار بني قريظة بدأوا يتباحثون الأمر فيما بينهم، فقال لهم كعب بن أسد: يا معشر اليهود إن الأمر الآن كما ترون، وإنني أعرض عليكم خيارات ثلاث فخذوا منها ما شئتم: إما نتبع هذا الرجل ونصدقه فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وبالوصف الذي كنتم تعرفونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، فرفضوا الدخول في دينه وترك دينهم. ثم عرض عليهم أن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ويخرجون للقاء المسلمين بالسيوف، فإن غلبوهم وجدوا بعدها نساء وأولادًا غيرهم. وإن غُلبوا لا يخشون شيئًا بعدهم، فرفضوا قتل نسائهم وأبنائهم لأنهم لا ذنب لهم. ثم عرض عليهم الثالثة وهي الغدر بهم في يوم السبت ظنًا منهم أن رسول الله لن يقاتلهم فيه لعلمه بحرمة يوم السبت لديهم، فرفضوا ذلك لكي لا ينالهم ما نال غيرهم من المسخ. [3] ثم طلبوا إلى رسول الله ﷺ أن يحكم بهم رجل من الأوس لموالاتهم لهم في الجاهلية فوقع الاختيار على سعد بن معاذ رضي الله عنه [4].

كان حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه في بني قريظة معروفًا، فهو الذي قال لما أُصيب في غزوة الخندق: "اللهم لا تميتني حتى تقر عيني في بني قريظة". [5]

---

(1) البوطي محمد سَعيد رَمضان، 1426 هـ - 2005 م، **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، المكتبة الشاملة الحديثة، دار الفكر، دمشق ص224.

(2) رواه ابن هشام أن مدة الحصاركانت خمسة وعشرين يوماً وجزم ابن سعد في طبقاته أنها كانت خمسة عشر.

(3) رضا محمد، 1427هـ - 2006م)، **محمد صلى الله عليه وسلم**، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ص269.

(4) سَعْدُ بن مُعَاذُ المتوفي سنة 5 هـ) صحابي، كان سيدًا للأوس في يثرب قبل الهجرة النبوية. أسلم سعد على يد مصعب بن عمير الذي أرسله النبي محمد ﷺ إلى يثرب ليعلم أهلها دينهم.

(5) الهيثمي نور الدين علي بن ابي بكر، 1353هـ - 1933م)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مكتبة القدسي، القاهرة، ص143.

فلما طلبه رسول الله ﷺ للحكم، كان يرقد جريحًا في فراشه، فحمله قومه. طلب إليه رسول الله ﷺ أن يحكم فيهم، **فكان حكمه أن تقتل مقاتلهم** وتسبى ذريتهم وأن تقسم أموالهم، فقال له النبي ﷺ: « قضيت بحكم الله تعالى» فأمر رسول الله أن تكون النساء والذرية في دار ابنة الحارث امرأة من بني النجار وأمر بالأسارى أن يكونوا في دار أسامة بن زيد.، ثم أمر رسول الله ﷺ بضرب أعناق مقاتلهم في خندق بسوق المدينة المنورة. وكان المتولّي لقتلهم عليّ بن أبي طالب، والزبير بن العوام رضي الله عنهما. كان في جملة من سيق إلى القتل فقتل: حُيَي بن أخطب الذي كان قد سعى حتى أقنع بني قريظة بالغدر ونقض العهد وبلغ عدد القتلى منهم 700 إلى 900 رجلاً. [1]

وحسب رواة آخرين يختلف العدد ويتفاوت.

وحسب رواة آخرين مثيرو الشبهات بما رواه عطية القرظي [2] بقتل كل من أنبت أي بلغ)، فهذه الرواية في سندها نظر. واختلفت الروايات حول عدد قتلى يهود بني قريظة. فمن الروايات التي ذكرت من 400 إلى 900 إلا أن هذه الروايات كلها في إسنادها ومتنها نظر. من الأمثلة على ذلك قول مسلم صاحب الصحيح: فبجميع هذه الروايات ومقابلة بعضها ببعض يتميز صحيحها من سقيمها، ويتبين رواة ضعاف الأخبار من أضدادهم من الحفاظ). [3]

(رأي دفاعي ضد التشويه والمتحاملين على رسول الله ﷺ)

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِيْنِ﴾ [4]

إن أفضل مقدمة تكون استشهادًا بكلام العالي القدير حول أخلاق الرسول ﷺ فإنه أروع

(1) رضا محمد، مرجع سابق، ص270.

(2) محمد بن كعب القرظي محُدث من التابعين،108 – (40هـ له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وكان عالمًا بتفسير القرآن. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة.2023

(3) النيسابوري مسلم بن حجاج، 1395هـ – 1976م)، **التمييز**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مطبوعات جامعة الرياض، الطبعة الأولى، ص 162.

(4) **القرآن الكريم** – سورة الأنبياء – أية رقم 107.

الأمثلة في حُســن الخُلق فكيف يؤولون أنه محب للقتل أو الحروب .كان رسول الله ﷺ يوصي قادة الجنــد بالتقوى ومراقبة الله تعالى ليدفعهم إلى الالتــزام بأخلاق الحروب، ومن ذلك أنه يأمرهم بتجنّب قتل الشيوخ والنساء والأطفال.

وفي رواية أبي داود: «ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، ولا امرأة..». [1]

رسول الله ﷺ كان إذا بعث جيوشه يقول لهم: «لا تقتلوا أصحاب الصوامع» عدم الغدر « من أمَّن رَجُلًا على دَمِه فقَتَله فأنا بريءٌ مِن القاتِلِ وإن كان المقتولُ كافِرًا» [2] وعدم الإفساد في الأرض والإنفاق على الأسير. هذا الأمر يدعو إلى مراجعة بعض الوقائع.

- الرسول الكريم ﷺ قبل التحكيم بقتل المقاتلين من بني قريظة الخائنين للمعاهدة والمعتدين على نساء المسلمين أثناء حرب الخندق وهذا مصير عادل لأي خائن حتى في الأنظمة الحديثة وليس الأمر مستهجناً ولم يفرض هذا الأمر على غير بني قريظة.

- الرســول ﷺ أمر بقتل -**المقاتلين** -وليس الرجــال وليس كل رجال بني قريظة مقاتلــين. وهــذا يدعو إلى مراجعة عــدد القتلى كما أن نقل هذا العــدد الكبير من الحصــون إلى المدينة، أمر بالغ الصعوبة من حيث الإجراء والحماية وحفر خندق في سوق المدينة يتســع لهذا العدد الضخم من القتلى يعرض المدينة لأمراض وانتشار أوبئــة وخاصةً أن موقع الخندق الدفاعي في شــمال المدينة قريــب والأجدر تنفيذ الحكم عند الحصون وعدم نقل هذا العدد إلا إذا كان العدد قليلاً.

- أما هذا العدد الكبير من المحكومين ومبيتهم في دارين فمســتغرب والمعروف آنذاك أشــكال البيوت ومســاحتها في المدينة فهل ممكن أن يبيت 700 رجلاً في دار واحدة وتُلبّى احتياجاتهم الأساســية، وبالمقابل النساء والأطفال مع أعداد

(1) ابن رســلان المقدسي الرملي الشافعي شــهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي 1437هـ – 2016م)، **شرح سنن أبي داود**، دار الفلاح، الأردن – عمان، جزء3،ص .38

(2) الراوي : عمرو بن الحمق | المحدث : العقيلي | المصدر : الضعفاء الكبير | الصفحة أو الرقم : 2/ 215 | خلاصة حكم المحدث : إسناده صالح | التخريج : أخرجه البزار 2308، (والطبراني في المعجم الأوسط) 4252) واللفظ له، وابن عدي في الكامل في الضعفاء (2/ 14).

مضاعفــة في دار ثانٍ. فإذاً العدد كان أقل بكثير وتشــير بعض الروايات أن علياً والزبير رضي الله عنهما هما من نفذا القتل[1]. فكيف يمكن لشــخصين تنفيذ هذا الحكم دون أن تتأثر نفوسهم سلباً. ولا يمكن لطبيعة الإنسان أن تحتمل مثل هذا النوع من القتل.

• عادةً المؤرخون يذكرون أســماء القتلى ولا يكتفوا بالعدد فمثلاً كأسماء من قتل في غزوة بدر من المشركين أو الخندق وهذا لم يحصل مع بني قريظة.

• في أحــادث غزوة بني قريظة، يذكــر الكثير عما جرى بين اليهود أنفســهم، كما ورد في روايــة حُيَي بن أخطب النضري[2]، وكعب بن أســد القرظي[3]، وكلاهما يهوديــان، وماتا على اليهودية، فمن روى الحادثــة بتلك الصفة، وهل يمكن قبول الرواية اليهودية؟.

• روى ابن زنجويه[4]: ثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ صَالِحٍ، حَدَّثَنِي اللَّيْثُ بْنُ سَــعْدٍ، حَدَّثَنِي عُقَيْلٌ، عَنِ ابْنِ شِــهَابٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ غَدَا إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَحَاصَرَهُمْ حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَــعْدِ بْــنِ مُعَاذٍ، فَقَضَى بِــأَنْ يُقْتَلَ رِجَالُهُمْ، وَتُقْسَــمَ ذَرَارِيُّهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ، فَقُتِلَ مِنْهُمْ **يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلاً**، إلا عَمْرَو بْنَ سَــعْدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ : إِنَّهُ كَانَ يَأْمُرُ بِالْوَفَاءِ، وَيَنْهَى عَنِ الْغَدْرِ فَلِذَلِكَ نَجَا. وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ الزُّبَيْرَ إِلَى ثَابِتِ بْنِ قَيْسِ بْنِ شَــمَّاسٍ، فَأَعْتَقَهُ..)[5] هذا الحديث

(1) الشــافعي نور الدين علي الحلبي(2008، م)، **السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، دار الكتب العلمية، لبنان، ج 2، ص .668

(2) حُيَي بن أخطب هو ســيد بني النضير قبل الإســلام.(ت5 هـ – 627م) عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة 2023.

(3) كعب بن أســد القرظي سيد بني قريظة. كان سيد قومه وحليف الأوس من الأنصار قبل قدوم النبي محمد إلى المدينة،(ت5 هـ – 627م) عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة 2023.

(4) أبــو بكر محمد بن عبد الملك بن زنجويه البغدادي. (توفي حوالي عام 258 هـ . أحد الفقهاء ومن رواة الحديث عند أهل السنة والجماعة. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع: الشهر السابع في سنة2023.

(5) ابن زنجوي،أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني،(1406 هـ، 1986 م،**الأموال**، مركز

المدعوم من الرواة، يبعد عن رســول الرحمة ﷺ فعل مجزرة وحتى هذا العدد الضئيل نســبياً من تســعمئة وجب التدقيق فيه مع إمكانية رجاحته. هذا العدد الضئيل لم يرد أيضاً في مدوّنات الجاعون ورأس الجالوت، ســجل الكــوارث والمصائب التي مرت باليهود تاريخياً وذلك يدعم قلة العدد وأنه حدث مقبول وليس مستهجناً.

العبر والعظات

استنبط علماء الحديث والسيرة من غزوة بني قريظة هذه أحكاماً مهمة نجملها فيما يلي:

- **أولاً: مشروعيــة قتال مــن نقض العهد،** وقد جعل الإمام مســلم[1] هذا الحكم عنواناً لغزوة بني قريظة. فائتمان المعاهدات حق، وعند نقضها يجوز القتال وتطبيق العدالة وتنفيذ العقوبة على من يخالفون الإتفاقات والقوانين.

- **ثانيًا: جواز التحكيم في أمور المســلمين ومهامهم،** قال الإمام النووي[2]: الرجوع إلى حكم مسلم عادل صالح للحكم جائز.

- **ثالثاً: إمكانية الاجتهاد في الفروع وليس في أساس الدين،** ففي اختلاف الصحابة في فهــم كلام رســول الله ﷺ: «ألا لا يصلّين أحد العــصر إلا في بني قريظة» مع عدم معاتبه، دلالة مهمة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً».

الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، باب الحكم في رقاب اهل الذمة من الاسارى والسبي رقم الحديث .359

(1) أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن وَرْدٍ بن كوشاذ القشيري النيسابوري 206 هـ – 25 رجب 261 هـــ) / 822م – 6 يوليو 875م)، هو من أهم علماء الحديث النبوي عند أهل الســنة والجماعة، وهو مصنف كتاب صحيح مسلم وهو أحد كبار الحفّاظ. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة2023.

(2) أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي الشــافعي 631هـ – 1233م / 676هـ – 1277م) المشهور باســم «النووي» هو مُحدّث وفقيه ولغوي مســلم، وأحد أبرز فُقهاء الشافعية، اشــتهر بكتبه وتصانيفه العديــدة في الفقه والحديث واللغــة والتراجم، كرياض الصالحين والأربعــين النووية ومنهاج الطالبين والروضة، ويوصف بأنه محرِّر المذهب الشــافعي ومهذّبه، ومنقّحه ومرتبه، حيث استقر العمل بين فقهاء الشافعية على ما يرجحه النووي. عن موقع ويكيبيديا، تاريخ الإطلاع :الشهر السابع في سنة.2023

• **رابعاً: تأكد اليهود من نبوة محمد** ﷺ، من طريقة كلام كعب بن أسد مع إخوانه وأن التوراة أقرّت بمجيئه ونبوءته وعن علاماته وبعثته.

• **خامساً**: الحكمة في التعامل مع الأعداء، فيعلمنا حدث بني قريظة أهمية أن تكون الإجراءات ذات طابع حكيم عند التعامل مع الأعداء. فقد انتظر النبي محمد ﷺ فترة من الزمن قبل أن يبدأ الهجوم، مما أعطى الفرصة للقبائل الأخرى للوساطة.

• **سادساً**: الحذر والاستعداد، فتذكرنا هذه الغزوة بأهمية التحضير والاستعداد لمواجهة التحدّيات. المسلمون اتخذوا تدابير احترازية لمواجهة أي هجوم من قبل بني قريظة، مما يظهر أهمية التأهّب والحذر في وجه التهديدات.

أخيراً في الردّ على من يقول إنّ الإسلام لا يتعايش مع الأديان الأخرى، فالمسلمون تعايشوا مع اليهود في المدينة، ولولا ما حصل منهم، لبقي هذا التعايش، وهذا قوله سبحانه:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (1)

بالتالي لم يكن الأمر «إرضاءً لشهوة الدم والانتقام» كما يقول المهاجمون وبالتالي فإن قراءتها لا بد من أن تكون قراءة عميقة وحكيمة.

﴿لِقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (2).

(1) **القرآن الكريم** – سورة الممتحنة، أية رقم 8.

(2) **القرآن الكريم** – سورة التوبة، أية رقم 9.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- ابن رسلان المقدسي الرملي الشافعي شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي (1437 هـ - 2016م)، **شرح سنن أبي داود**، دار الفلاح، الأردن - عمان، جزء 3، ص 38.
- ابن زنجوي،أبو أحمد حميد بن مخلد بن قتيبة بن عبد الله الخرساني، (1406 هـ- 1986 م)، **الأموال**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، السعودية، الطبعة الأولى، باب الحكم في رقاب اهل الذمة من الاسارى والسبي رقم الحديث 359.
- ابن كثير أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي البصري ثم الدمشقي، (ت 774 هـ- 1372 م) **البداية والنهاية**، الناشر: مطبعة السعادة - القاهرة، الجزء الرابع، ص 116.
- البوطي محمد سَعيد رَمضان، 1426 هـ - 2005 م، **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، المكتبة الشاملة الحديثة، دار الفكر، دمشق ص 224.
- الرازي أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني 1399 هـ - 1979 م، **مقاييس اللغة**، دار الفكر، دمشق المحقق: هارون عبد السلام محمد،الجزء الرابع، صفحة 502.
- الشافعي نور الدين علي الحلبي، (2008 م)، **السيرة الحلبية إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، دار الكتب العلمية، لبنان، ج 2، ص 668.
- العواجي محمد، (1425هـ - 2004م)، مرويات الإمام الزهري في المغازي، (الطبعة 1)، ج1،ص514.
- النيسابوري مسلم بن حجاج، (1395هـ - 1976م)، **التمييز**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، مطبوعات جامعة الرياض، الطبعة الأولى، ص 162.
- الهلالي سليم بن عيد، 1419 هـ - 1999 م)، **غزوة بني قريظة**، دار إبن الجوزي، الدمام، السعودية، ص 6.
- الهيثمي نور الدين علي بن ابي بكر، (1353هـ - 1933م)، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، مكتبة القدسي، القاهرة، ص143
- خطاب محمود شيت، (1422 هـ -2001 م)، **الرسول القائد**، بيروت: دار الفكر، الطبعة السادسة) ص 239.
- رضا محمد، (1427هـ - 2006م)، **محمد صلى الله عليه وسلم**، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، ص269.

قراءة في كتاب خريستو المر
الفلسطينيون والتحرر– موقف مسيحي(*)

د. شوقي عطيّه(**)

لم أكن أعرف، وأنا تلميذ مدرسة كاثوليكية تفرض على تلامذتها التعليم الديني، كيف يمكن أن أوفق بين ما قاله يسوع حول المسامحة وإدارة الخد الأيسر وإعطاء ما لقيصر لقيصر... بين كل هذا، وبين قناعتي التي نشأت عليها منذ الصغر بأن حقيقة قضية فلسطين هي في عقيدة أمة حية وإرادة قومية فاعلة تريد الانتصار، وأن ما أخذ بالقوة لن يسترد إلا بالقوة.

بعد مراهقتي الرافضة لما قدمته مدرستي لي، تجاهلت أيمني الديني، وركّزت على أيسري العقائدي.

تغيّر هذا بعد أن حاضر خريستو المر في موضوع الفلسطينيين والتحرر، من وجهة نظر مسيحية، وذلك منذ ما يقارب السنة على منصّة مجلس كنائس الشرق الأوسط، فتصالحت أيمني مع أيسري.

دفعني ذلك إلى قراءة ومناقشة كتاب شغفٍ وتفانٍ معرفي ونضالي للباحث خريستو المر بعنوان: «**الفلسطينيون والتحرر – موقف مسيحي**».

حين أقول إن خريستو قدّم وجهة نظر مسيحية، فأنا لا أقصد وجهة نظر رجل مسيحي نشأ

(*) ألقيت هذه المراجعة بمناسبة احتفال توقيع كتاب د. خريستو المر: الفلسطينيون والتحرر: موقف مسيحي. جريدة السفير. بيروت الحمرا. 23–حزيران–2023.

(**) منسق مختبر الديموغرافيا في مركز أبحاث معهد العلوم الاجتماعية – الجامعة اللبنانية. استاذ محاضر في المعهد. Chattieh@ul.edu.lb . https: / /linktr.ee /chattieh

في الحركة الأرثوذكسية، بل من وجهة نظر مستمدّة من التعاليم المسيحية نفسها.

فيسوع نفسه الذي طالبنا بالتسامح وإدارة الخد الأيسر، أظهر الغضب على تجّار الهيكل، وما أكثرهم اليوم. ووصف رجال الدين بأبناء الأفاعي، وأوضح لنا بما لا يقبل الشك أنّ مَن لم يعامل إخوته (إخوة المسيح، أي نحن) كما يجب، لن يدخل ملكوت السماء.

نادراً ما نرى كتاباً ولد في سنوات، يحتوي على نتاج فكري كان حصيلة عقد وأكثر من الزمن. ولكن هذا تماماً ما قام به خريستو المر الذي جمع مواد كتابه مما كتبه. تكمن قوة هذا العمل في كونه يعيد إليك الحدث وكأنه الآن. فنتذكر، وكأننا نسينا بالأصل، فظائع عدو لا يفهم إلا القوة، ونعيد معايشة ما أصاب شعباً من أكثر الشعوب المظلومة في التاريخ المعاصر.

ليس كتاب خريستو حول التحرر أو الفلسطينيين الأول من نوعه، ولكنه أضاف بُعداً جديداً لموضوع كتب فيه الكثيرون، وهو البُعد الكنسي المسيحي.

تميّز الكتاب بتناوله المسائل بتسلسل منطقي يبتعد عن التعقيد، ولكنه يفنّد كل موضوع، رئيسياً كان أو فرعياً، بأصغر تفاصيله. يفنّد الأخطاء، يكذّب الادعاءات، ويوضّح المغالطات.

تدرّج الباحث المر من العام إلى الخاص في مقاربته هذه. فهو يطرح إشكالية أساسية حول التعايش بين الإيمان المسيحي والتحرر للفلسطينيين. وللوصول إلى الخلاصة ينتقل من الخاص إلى جوهر الموضوع.

سمعنا تفنيدات كثيرة لمسألة الحياد، وكيف أن الحياد يخدم أعداء القضية، إلا أنها كلها كانت من وجهات نظر سياسية أو أخلاقية. خريستو المر اليوم يرينا كيف أن الحياد هو لا مسيحي. فالمسيح حرّرنا من العبودية، فكيف نسمح لأنفسنا بأن نُستَعبد، وطوعاً، لسلطة أو شخص أو جماعة؟ المسيح يرفض عبودية الظلم حتى لو كانت تحت مسمى الحياد. والمسيح المسالم الفادي كان ثائراً ضد الظلم والطغيان. ألم يقل إنه جاء ليفرّق الابن عن أبيه

والابنة عن أمها، وأن أعداء الإنسان هم أهل بيته؟

إذا كان الأب والأم والحماة مدافعين عن الظلم، فلا يمكنني إلا أن أثور ضدهم. هذه الكلمات ليسوع وقد خرجت للدفاع عن المظلومين. وإذا كان علينا أن نتساءل من هم المظلومون؟ نقول هم إخوته من الفقراء والجائعين والمرضى والعطشانين. وإذا فهمنا أن الفقر والجوع والعطش والمرض آفات تصيب الجسد وحده، فنحن ما فهمنا من المسيحية شيئاً. إنها أيضاً الاستضعاف والتهميش والظلم والقهر، الآفات الأكثر فداحة التي يعاني منه إخوة يسوع، إخوته لطبيعته البشرية، أي نحن أبناء البشر. فلن ندخل ملكوت السموات إلا إن فعلنا بأحد هؤلاء الأبناء ما أوصانا به المعلم.

إن أردنا اتباع يسوع في حياته، لا يكفي أن نصوم كما صام، ونقول الأبانا كما طلب منا حين سُئل كيف نصلي. نعم لن نستطيع السير على الماء وشفاء المرضى وإحياء الموتى، فهذا من طبيعته الالهية. ولكن أن نبقى على الحياد في وجه الظلم؟ وأن نسكت عن الحق ونقبل الباطل؟

هذا ما قدّمه لنا خريستو المر في بداية الكتاب. والمظلوم هنا ليس فقط ابن فلسطين، محور هذا الكتاب؛ بل كل من تعرّض للظلم والاضطهاد. ففي الانجيل مثال ساطع عن حياد ضار، فما الذي حقّقه بيلاطس البنطي حين غسل يديه من دم الصديق؟ ألم يسهم في صلبه فقط لأنه لم يحُل دون ذلك؟ هو لم يحكم عليه، ولكنه لم يوقف الحكم أيضاً. هكذا يتحول الحياد إلى مساهمة في الظلم من خلال عدم رفعه. ومن لم يرفع الظلم، يبتعد عن الحق، والحق هو ما أوصانا به المسيح. فهو الحق والحياة، والحق هنا لا يكون بالحياد بل بالالتزام.

ينتقل المر بعد أن أثبت أن الحق بعيد عن الحياد، ليبين للقارئ كيف أن التصدي للعنصرية الـ «إسرائيلية» هو حق. وللوصول إلى ذلك، وفي مختلف فصول الكتاب، يتبع منهجية تفنيد مزاعم العدو. يبدأ ذلك من خلال تبيان أن التصدي لـ «إسرائيل» ليس معاداة «لواحة ديموقراطية وسط صحراء الاستبداد». وللقيام بذلك يحكم، بدايةً، على وهم

الديموقراطية في بلد قائم على الفصل العنصري القمعي.

لنسلّم لدقيقة، نعم.. لدقيقة واحدة، أننا اعترفنا سياسياً بوجود «إسرائيل»، وأننا نقول إنها دولة ديموقراطية، وإن الفلسطينيين يعيشون فيها كأحد المكوّنات الاجتماعية فيها. أين الديموقراطية في عزلهم، ومنعهم من العمل وبناء جدار حولهم ومنعهم من إرث أرضهم، وحتى منعهم من الزواج أو تقنينه وفرض قيود عليه. هذا الاعتراف هو ما تقوم به الدول المتصالحة مع فكرة «إسرائيل» منذ عام 1948. ولكن هذه الدول التي تعتقد بديموقراطية «إسرائيل»، إما تغضّ الطرف عمّا قلناه، وإما هي لا تعرف بوجوده أصلاً.

يصرح نتنياهو خلال حملة انتخابية منذ حوالي العقدين من الزمن بأن ما يميّز «اسرائيل» كدولة، أمران: الأول يهوديّتها، والثاني ديموقراطيّتها. ولأن يهودية الدولة أهم من ديموقراطيتها فإنها تتخلى عن الثانية لخدمة الأولى عندما تصبح يهودية الدولة في خطر. هم يدركون أنها في خطر، أنا كديموغرافي، أقول ما يلي: اليوم رجحت كفة العرب على اليهود في أرض من البحر إلى النهر. واليهود يدركون ذلك، لا بل إن يهود الداخل من الحريديم سيتفوّقون عددياً على يهود الأشكيناز الممسكين حالياً بالسلطة، والذين يعتبرون أن ما أسّسوه هو تجسيد لسلطتهم وتراكم قواهم المالية والسياسية. فإذا افترضنا أن اليهود لا مشكلة عندهم في قمعهم العنصري للعرب، أتراهم كيف سيقمعون اليهود الحريديم، الرافضين لأي سلطة سياسية، في المستقبل غير البعيد؟ من هنا قناعتي راسخة لأقول بأن «إسرائيل» ستفنجر من داخلها Implosion. والعبرة هي في تسريع الحدث والصمود إلى حين حصوله.

نعود مع خريستو إلى ما يقدمه من أسباب تجعل من «إسرائيل» دولة فصل عنصري، إن كان من خلال ما تمارسه من سياسات، أو هيمنة عوضاً عن سلام. هذا ما فعله الـ «إسرائيليون». فتفسير «إسرائيل» هو شعب الله المختار، إلا أن ممارساتهم وتفنيدها بأنها من أصول توراتية حوّلتهم من الشعب المختار إلى الشعب الذي إلهه اختار، أو اخترع.

وعندها يقدم خلاصة مفادها: لماذا الدفاع عن الفلسطينيين؟ ليس لأنهم عرب أو لأني من مــشرق يجمعني بهم، ولكنه وفق ما يرى، وما أرى أنا أيضــاً، أنهم من أكثر الناس تعرّضاً للاضطهاد، وهم الأكثر مصلوبيّة أما أعيننا وفي منطقتنا.

لا يكتفي المر في الاستشــهاد من آيات الانجيل أو سيَر القديسين المسيحيين. حتى التراث اليهودي العبراني يناقض ما تقوم به دولة الفصل العنصري، فكأن الحصار المدمر المفروض على غزة هو صفعة في وجه آية من التراث اليهودي في حكمة يشــوع بن ســيراخ ومفادها أن: «قلة من الطعام هي حياة الفقراء، من يحرمهم منها يرتكب اغتيالاً، إنه قاتل قريبه ذاك الذي ينتزع منه قوته، إنه يهرق الدم من يحرم الأجير حقه». أهناك أوضح من هذا الكلام؟ أم أن الصهاينة، وهنا التســاؤل لي، يقلبون هذا الكلام لمصلحتهم ويعتبرون أن كل من هو مختلف عنهم لا حقوق ولا إنسانية له أصلاً؟

أستعيد مع الكاتب هنا ما قاله كوستي بندلي بأن الصهيونية هي بعث للانحراف اليهودي القديم، إذ تحوّل هي أيضاً الشعب اليهودي «من شعب يستمد كيانه من الله مبرّر وجوده، إلى أمة تُسَخِّر الله لتفرض ذاتها في حلبة الصراع بين الأمم.»

يضع خريســتو حركة المقاطعة في صلب الإيمان المسيحي، وهي التي تأسست عام 2005 مستلهمة النضال الجنوب أفريقي وشرعة حقوق الإنسان.

ثم يفنّد لنا أشكال المقاطعة التي تبنتها الحركة:

المقاطعــة الثقافية التي كســبت آلاف التواقيع حول العالم ومنها ألف شــخصية ثقافية في المملكة المتحدة عام 2015. والنشاطات المتنوعة حول العالم. وتلقّت الدعم من شخصيات مرموقة، أذكر منهم شــخصيتي المفضلة العضو المؤسس لفرقة بينك فلويد، روجر واترز، الذي وصف بمعاداة الســامية، وكلنا نعرف أن هذه التهمة تعني أن المتهم بها قد تمكّن من إصابة الصهيونية العالمية بألم.

ثم يحدثنا عن المقاطعة الاقتصادية التي خفّضت حوالي نصف الاستثمارات القادمة للكيان.

والمقاطعة الأكاديمية حيث صوّتت جمعيات طلابية أميركية وكندية للضغط على جامعاتهم لسحب الاستثمارات في شركات تساعد «إسرائيل».

وأضيف لها ما حصل مؤخراً في جامعة مدينة نيويورك City University New York حيث ألقت الطالبة اليمنية الأصل فاطمة موسى محمد، عريفة حفل تخرّجها، خطاباً هادئاً لا انفعالياً من 13 دقيقة، دكّت فيه «اسرائيل» والامبريالية الأميركية في ما يتعلق باليمن، وكذلك في ما يخص المسألة الفلسطينية والقمع الـ «إسرائيلي» ضد الفلسطينيين. الخطاب بحد ذاته ليس بمستغرب عن ناشطة عربية يمنية. المستغرب، لا بل المرعب بالنسبة للاعلام السائد mainstream في الولايات المتحدة كان ردة الفعل على هذا الخطاب، حيث صفّق لها الحضور بحرارة. فما كان من فاطمة إلا أن شجعته وسط التصفيق لكي يستخدم خطابها كوقود في المعركة ضد الرأسمالية والعنصرية والصهيونية حول العالم. انقسم تويتر حول هذا الخطاب. والكلمة المفتاح هنا: انقسم، لأن الاعلام والرأي العام التقليدي كان بمعظمه مُوحّداً حول دعم «إسرائيل». اليوم، الوضع تغيّر، وللنضال والمقاطعة والنشاط المستمر activism دور كبير في ذلك.

من استنكر الخطاب؟ السياسيون من الأحزاب كافة وإدارة الجامعة التي حذفت فيديو الخطاب عن موقعها.

ولكن، عادت الجامعة لتعيد نشره بعد حملة ضغط هائلة تعرضت لها، ليس من عرب أو فلسطينيين ولكن من أميركيين.

سأترك هذه الفكرة لتستقر في أعماقنا، لأني أعتقد أن مستقبل السياسات الغربية لن يكون كحاضره.

بالعودة إلى الإيمان والمقاطعة، يذكّرنا خريستو أن ما لم نفعله لإخوة المسيح فكأننا لم نفعله ليسوع، لأن المقاطعة هي فعل نشِط Active أما الامتناع عن الفعل فهو فعل سلبي خامل Passive. ليصبح رفع الامتناع عن رفع الظلم تواطؤاً مع الظالم. ومن

هذا المنطلق، يحدثنا المر عن الحركات المسيحية للمقاطعة ابتداءً من حركة (وقفة حق – فلسطين) Palestine Kairos عام 2009؛ الحركة التي أعلن فيها المؤسسون صراحةً أن الاحتلال الـ «إسرائيلي» هو خطيئة ضد الله والإنسان، وأن أي لاهوت يبرّره هو تحريفي بعيد عن المسيحية، وأن المحبة ورؤية وجه الله في كل إنسان لا تعني قبول الشر والظلم والاعتداء.

لم يتوقف الأمر عند حركة كايروس، ولكن نذكر أيضاً التجمع الوطني للمنظمات المسيحية في فلسطين، وعدداً لا بأس به من كنائس شمال أميركا التي بدأت تقاطع الكيان الصهيوني. صحيح أن موقف الفاتيكان كان مشجّعاً لوقفة حق من خلال المشاركة، إلا أن الموقف الرسمي لا يزال خجولاً وبعيداً عما هو مطلوب، حيث لا تزال الديبلوماسية تطغى على الحديث الرسمي للكنيسة تجاه «إسرائيل» والمسألة الفلسطينية.

أما موقف الكنائس المشرقية فكان مقاطعاً بشبه الإجماع، مع بعض الانحرافات التي حصلت، ونتذكّر تماماً كيف تمّت مجابهتها. أستعيد هنا موقفاً للمطران جورج خضر بأن هناك حالة واحدة فقط يمكن التطبيع معها وهي حالة سقوط الفلسفة الصهيونية. لأن عدم سقوط الصهيونية هي نهايتنا نحن على المستوى الحضاري والانساني.

ينتقل خريستو المر في القسم الثاني ليفصل لنا كيف أن آلة الدعاية الصهيونية في العالم تسعى لاغتصاب وعي الناس. وهو لذلك، يفنّد كل ادعاءات هذه الآلة، وبالتفصيل من خلال عرض الادعاء ثم تحطيمه بالحجج والأدلة المناسبة. فكيف تكون الحرب على غزة مشروعة وهي أصلاً محتلة من قبل المعتدي، وكيف تكون ضرورية ولا يمكن تجنبها، وكان الغزّيون أنفسهم والممثلون السياسيون لهم على استعداد للحفاظ على الهدنة، وكيف تكون غزة ليست محتلة ولا إمكانية لها بالتحكم لا بمائها ولا هوائها ولا أرضها؟ وكيف يمكن التصديق بأن حماس أسقطت الهدنة بينما كانت «اسرائيل» تخطط من 6 أشهر لحربها على غزة؟ يتابع خريستو في منهجية الهدم هذه ليدمّر 12 ادعاءً «اسرائيلياً» مع تفرّعاتها.

وهنا لا بدّ من التساؤل، أي وسائل تحرّر نتبع؟

حين يقدم الكاتب عبارة تُنسب لأب المقاومة اللاعنفية غاندي: حيثما لا يوجد إلا خيار بين الجبن والعنف، ينبغي حسم الأمر لصالح الحل العنيف.

وهذا يعني أن ما سيلي من الصفحات لن يكتفي باللاعنف.

لنبدأ بالمفاوضات كوسيلة لا عنفية، سأختزل الأمر من الآن في عبارة واحدة: كيف يمكن أن يحقق تفاوضٌ مصلحةً ما من دون أن يكون لدى كل من المتفاوضين أوراق ضغط وقوة. كلنا نعرف ما هي أوراق الضغط الـ«إسرائيلية». ولكن أين أوراق القوة الفلسطينية؟ ألم يتخلَّ عنها الفلسطينيون أول مرة عام 1993 بعد أوسلو؟

ألم نشهد كلنا كيف أن الـ«إسرائيلي» بات يحسب ألف حساب، للمقاومة، ولن أقول للمقاومة التي دحرته عام 2000، ولم يتمكن من لَيّ ذراعها عام 2006، وهي اليوم تملك ما تملك من ترسانة؟ أتحدث عن المقاومة في الداخل، عن سيف القدس، عن أبي عبيدة، عن **صواريخ كان يصفها الإعلام الغربي بأنها تمطر على «إسرائيل». إلا أنها في الحقيقة كانت رذاذاً تطوّر إلى غيثٍ في يومنا هذا، وقد تصبح بُعاقاً ويعلولاً وصِنديداً وجَوداً غداً.**

القوة تُختزل بوجود عامل يردع الآخر، حتى دون الحاجة لاستخدامها. الأسلحة النووية رادع بفرط القوة، لم تُستخدم، على حد علمنا، إلا مرتين في التاريخ. ومن هنا، من لا يملك عوامل ردع وقوة لن ينجح في تحصيل أي مكسب في أي مفاوضات كانت. ولكن المر لا يتهاون في نظرته للمقاومة العنفية عند الحاجة إليها. يُمنع على هذه المقاومة أن تنزلق إلى التسلط، لأنها بذلك تكون قد استبدلت ظلماً بآخر. لذا يحذّر من الانزلاق نحو أخطاء شائعة تقع فيها المقاومة العنفية كتناسي الإنسان لفنائيته والتماهي بالمعتدي، والاسقاط المبرّر للعنف والمتبني له وإلغاء الأنسنة عن الآخر. لذلك لا بد من من وجود قواعد تنظّم الصراع العنفي لكي لا يتحول المظلوم المُقاوِم إلى ظالم مُقَاوَم.

يلخص المر المقاومة وأســاليبها بأن لا تفاوض من دون قوة يستند إليها المتفاوض ليحقق ما يفاوض من أجله. وإذا كانت القوة لا عنفية فليكن، أما إذا لا سبيل إلا بالعنف، فليكن أيضاً.

سأتخطى بعض ما جاء في القسم الثالث لأركّز على مقطع هام ينتقد مقاربة مارسيل خليفة عن الحــب، وهو ما أتى على خلفية ثنائية حب الحياة وثقافــة الموت التي انتشرت في فترة معينة في لبنان، رافقها استغلال للعلم اللبناني وتصويره على أنه حكر على فئة دون أخرى. يصرّح خليفة في مقابلة صحافية بأنــه «لا يريد الحرب ولا يريد الأرض، يريد الحب». ما الحب؟ يتساءل المر.. الحب في المسيحية أنواع، وبالتأكيد نحن لا نتحدث عن الحب الحسي Eros، ولكن عــن أهمها الـ agape الحب اللامشروط. الحــب اللامتناهي. ولكن ما هو الحب إذاً؟

يجيب المر بأنه ليس هذا الشــعور الوردي الذي نشــعر به، بل هو سعي الإنسان إلى انشاء رابطة وحدة عميقة بإنســان آخر من دون أن يفقد أيٌّ منهما فرادته الذاتية. المحبة هي صنو الحب على الصعيد الاجتماعي، هي مسعى لقاء أقصى بالآخرين مع المحافظة القصوى على الذات. أي: لا ينشأ الحب والمحبة من دون بيئة الحرية. وبيئة الانفتاح والتحرر. وهذا يعني ضرورة وحتمية وقوف الإنســان المحب في مواجهة كل محاولة لقمع الحرية. وعليه، فإن مقاومة كل قمع وكل استغلال جزء لا يتجزأ من عيش الحب على أرض الواقع.

ينتهي المر من حيث بدأ، المســيحية وفلسطين. ففلسطين تصبح مَن هو إبنها بالجسد، نعني به: يســوع المســيح. فالملكوت لمن يصبح كالأطفال والأطفال أول من يثور على الظلم، وأول مــن يقول لا في وجه ما يرونه ظلماً وعدواناً من أهلهم عليهم. الطفل إن أخبرته عما يتعرض له الفلسطينيون ينتفض، فما حجّتنا نحن؟ سأقول مع الأسى، نحن طُوِّعنا ودُجّنا وتأقلمنا على ما فعله أهلنا، وهم هنا مَن لهم الســيطرة علينــا: الدول – الإعلام – المال، علينا. الفلســطينيون على ما يقول المر هم وجه المســيح، وإن حاربهم في ذلك المسيحيون،

أو لنكـــن منصفين بعضهم، في بلدنا. وذلك ليـــس دفاعاً عن دين بل خوفاً على طائفة، بل طائفية مهددة.

أعيد وأقول ما ذكرته سابقاً، اعتقادي الراسخ بأن «الدولة» إلى جنوبنا زائلة، وأنها ستنفجر داخلياً implode في وقت ليس ببعيد. وما علينا إلا أن نصمد ونستمر كما طلب منا ادريس والكنفاني وسعاده، وإن كان كل واحد منهم بطريقته الخاصة.